شرح اسم الحكيم

الدورة الصيفية من عام ١٤٣٣هـ

للأستاذة أناهيد السميري

اللقاء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الأول في السلسة التي ضمن الدورة الصيفية لعام ١٤٣٣هـ، وسيكون كلامنا ـ إن شاء الله ـ في هذه الساعة المباركة عن أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ، وستكون لقاءاتنا حول الأسماء الجامِعة، وسنشرح في هذا اللقاء: ما معنى الأسماء الجامِعة؟ وكيف تتم دراستها؟

الله عز وجل له الأسماء الحسنى، فقد قال في كتابه في أربعة مواضع: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[1] ، ومعنى الحُسنى: أي البالغة في الحُسن غايته؛ لأن كل اسم من أسماء الله عز وجل يتضمن صفة، بمعنى أنك تجد الاسم لله عز وجل يدل على صفة لله:

- فلو أخذنا مثلاً اسم (الغفور) : سنجد أن الصفة فيه هي (المغفرة).
- لو أخذنا اسم (الرحيم): ستكون الصفة فيه هي (الرحمة). وهكذا.

في المقابل أن الخلق لهم أسماء حَسَنة، لكن ليس شرطاً أن كل صاحب اسم حسن يكون حامِلاً لصفة اسمه، لكن لابد أن تعرف أن الله يوصَف بكل صفة موجودة في كل اسم من أسمائه، إلى أن نجد أن من حُسن أسماء الله عز وجل أن كلها حسنى، وإلى أن نصل فنجد أن كل اسم من أسماء الله العظيمة تدل على صفاته، وكل اسم من أسمائه يشترك مع غيره في الدلالة على عظمة الله، فأنت عندما تدرس الأسماء كلها سيقع في قلبك تعظيمه وهيبته، ويقع في قلبك محبته والتعلق به، فأسماؤه عزوجل حُسنى حال انفصالها، وحال اجتماعها ستورث القلب العبودية والجلال والهيبة، فأنت تعالج قلبك باسم من أسمائه، وتعالج حياتك بمُجمَل أسمائه:

- فأنت إن كنت في حال ضعف وفقر: لابد أن تعالج قلبك باسمه الغني، القوي.
- ولو كنت في حال ذنب: لا بد أن تعالج قلبك باسمه التواب، الغفور.
- ولو كنت في حال من الألم: ستعالج قلبك باسمه الجبار، الرحيم.

إذًا أنت تحتاج اسمه في مواطن، تحتاجه في علاج قلبك وحياتك، ثم **من أجل أن يستقيم أمرك كله ستحتاج إلى أن تكون كل هذه الأسماء في فؤادك**. ماذا سيحصل لك بعد ذلك؟ سيحصل لك من تعظيمه والانكسار بين يديه والذل ما يحصل.

[1] (الأعراف:١٨٠)

ثم اعلم أن من حُسن أسماء الله ـ عز وجل ـ أن بعض الأسماء يكون فيها عدة صفات –أي: أن الاسم الواحد من بعض أسماء الله قد يتضمن عدة صفات–، لو أخذنا مثلاً:

- اسم (المُحسِن) ستجد أنه سبحانه وتعالى محسن إلى الخلق كلهم، محسن في خلقهم، في رزقهم، في جبرهم، محسن فيما أظهره في صورهم سبحانه وتعالى –وهو المصور–، محسن في تدبيره. فتجد أن الإحسان يدخل في أمور عدة، وفي عدة صفات.

والأسماء الجامعة غالباً تكون مُشكِلة لمن يقرؤها ويدرسها؛ لأنها تتداخل عليه.

إذًا: ما معنى الاسم الجامِع؟

هو اسم يتضمن عدة صفات لله ـ عز وجل ـ، واجتماعها يدل على حُسن عظيم. فأنت تفهم الصفات منفردة، ثم تجتمع هذه الصفات في هذا الاسم.

ولتتصوروا المسألة أكثر سأعيدها لكم لكن ليس من نقطة (الاسم الجامع)، وإنما سأتكلم عن تقسيم الأسماء عمومًا، كأن العنوان:

أقسام أسماء الله عز وجل

١- **الأسماء المنفردة**: مثل: اسم (الغفور) هذا اسم منفرد، والمعنى في هذا الاسم أنه سبحانه وتعالى: يغفر، والصفة: المغفرة. (التواب) الصفة فيه: التوبة. هذه اسمها أسماء منفردة، كل اسم يحمل صفة.

٢- هذه الأسماء المنفردة قد تنضم إلى غيرها في القرآن فتصبح **أسماء مقترنة**: مثل:(غفورٌ رحيمٌ)، (غفورٌ شكورٌ)،. كل اسم على حِدَة فيه كمال، والاجتماع والاقتران يزيده كمالًا.

مثلًا: (عفوٌ قديرٌ): اسم (العفو) الحُسن فيه: أن الله يعفو، و(القدير) الحُسن فيه: قدرة الله، وعندما يقترنان كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾[1] ، كيف سيأتي الحُسن؟ سيزيد حُسنًا عليه، فنقول: أنه سبحانه وتعالى يعفو عن الخلق مع

[1] (النساء:١٤٩)

تمام قدرته عليهم، **فالعفو من القدير تمام الإحسان**. فقد تعفو وأنت ضعيف غير قادر، لكن ما نوع هذا العفو؟ عفو ناقص. لكن عفو القادر هو العفو الكامل.

إذًا: تنضمّ الأسماء معًا ليزيد الحُسن فيها.

٣- **الأسماء المزدوجة**: مثل: (المعطي المانع)، (القابض الباسط)، (الخافض الرافع)، هذه الأسماء يجب أن تُذكر معًا ولا يُفصَل بينها لتكون أسماءً لله، وهناك من لا يُثبِتها.

لابد أن تُذكر معًا أي: لابد أن تقولي أن الله عز وجل هو (المعطي المانع)، ولا تقولي (المعطي) فقط، أو (المانع) فقط؛ لأن من يظن أن الله يعطي فقط سيظن أنه ليس قادرًا على المنع –تعالى الله عن ذلك–، بل هو تام التصرف، هو (المعطي المانع). لكن هل يصح أن تقولي مثلًا: أن الله يعطي المتقين؟ نعم؛ عندما تقيّدينها على أهلها يصح الفصل، ومثله القول: بأنه عز وجل يمنع الفاسقين. لكن لا تقولي عن الله إطلاقًا أنه مانع! أو إطلاقًا أنه مُعط! وإنما تقولي: هذا رُزِق لأن الله عز وجل هو المعطي المانع، يعطي من يشاء، ويمنع رزقه عمن يشاء، خافض رافع، قابض باسط وهكذا، كل هذه الأسماء من هذا النوع.

٤- **الأسماء الجامعة** – التي هو موضوعنا–:

ما معنى الاسم الجامع؟ هو اسم يتضمن عدة صفات من صفات الله –سبحانه وتعالى–، تجتمع تحت هذا الاسم، وقد تجد هذه الصفات منفردة، واجتماعها تحت هذا الاسم يدل على صفة زائدة، فالأسماء الجامعة ليست مجرد جمع لعدة صفات تحت اسم واحد وإنما فيها إضافة، وفَهم هذه الأسماء الجامعة يسهّل عليك فَهم التدبر؛ لأنك سترى آثار ذلك في الكتاب. سنضرب مثالًا على اسم (الصمد):

الصمد معناه: السيد العظيم الذي قد كَمُل. "كَمُل" في ماذا؟ كَمُل في علمه، وحكمته، وحلمه، وباقي الصفات التي يعدها. الصمد هو السيد، والعرب تقول لسيد القوم أنه صمد، لكن هذه التسمية انتهت بعدما صار هذا الاسم خاصًّا بالله، لكنه كان متداولًا قبل ذلك، فيسمّون السيد صمدًا، ويصمدون إليه. لماذا صار سيدًا أصلًا؟ لأن له صفات حسنة كاملة، وبالطبع عندما يكون سيدًا في البشر ستكون صفاته الحسنة الكاملة كاملةً على قَدر الكمال البشري، فهو لن يصبح سيدًا إلا إذا كان عنده علم، حلم، حكمة، سلطة، قدرة، وعدة صفات كاملة أصبح بها سيدًا.

ماذا ستقولين عن (الصمد) اسمًا لله؟ ستقولين أنه السيد. وما صفة هذا السيد؟ صفته أنه كامل. كامل في ماذا؟ كامل في علمه، في حلمه، في حكمته، في رحمته، في قدرته. ستأتين بأسماء كثيرة وصفات كثيرة لله تحت اسم الصمد، بل إن **الصمد من**

أجمع الأسماء، فهو أعظم اسم جامع، بحيث أن كل أسماء الله تدخل تحت اسم (الصمد)، **فهو –سبحانه وتعالى– السيد الذي قد كَمُل في كل صفات الكمال**، فتعدّين صفات كمال الله كلها، وتقولين: أنه قد كَمُل فيها. أنت تعرفين أن الله (عليم) و(حكيم) و(رزّاق)، و(الصمد) معناه: السيد الذي قد كَمُل في علمه، وفي رحمته، وفي رزقه، إلى باقي صفات الكمال التي تعدّينها وتعرفينها عن الله، عندما تشرحين اسم (الصمد) ستقولين: هو السيد الذي قد كَمُل في كل صفة أنت تعرفها من صفات كماله، ولهذا أصبح اسمًا جامعًا.

(الصمد) أسهل مثال يُضرب في ذلك، فهو السيد الذي كَمُل في عظمته –وعظمته اسم جامع، (العظيم) من الأسماء الجامعة، وكذلك (المحسِن) من الأسماء الجامعة– ولذلك يعتبر اسم (الصمد) أجمع اسم من أسماء الله، وحقّ له أن تكون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ لأنك عندما تشرحين لأحد شرحًا تفصيليًّا اسم (الصمد) ستأتين بكل صفات الله، وتقولين: قد كَمُل في علمه، كَمُل في حكمته، كَمُل في رحمته، في رزقه، في عطائه، في إحسانه، في عظمته، ستعدّدين كل الصفات فتقولين: أنه الكامل؛ ولذلك هو السيد. ثم تقولين: **لمّا كَمُل في كل صفاته حقّ أن تصمد إليه القلوب**. "تصمد إليه" أي: تلجأ إليه وقت حاجتها.

فأصبح لاسم الصمد شقّان:

١– السيد الذي قد كَمُل في سُؤدَدِه.

٢– الذي تصمد إليه كل الخلائق في كل شيء.

وهذا من فطرتها، فهي قد فُطِرت على أن هناك في السماء مَن هو كامل الصفات، فلا تتجاهلوا هذه الفطرة، هذه الفطرة موجودة مع أطفالنا، كلهم في قلوبهم فطرة أن في السماء من هو كامل الصفات، ولذلك سورة الإخلاص هي أول ما يُلَقَّنه الطفل بعد الفاتحة، وعندما يُلَقَّنها من لسان سؤول وقلب عقول –فتكوني أنت أصلًا تسألينه: ما معنى كذا؟ وما معنى كذا؟– ستقع السورة في قلبه.

على كل حال، ما ميزة الأسماء الجامعة في الدراسة؟

- تجد شواهدها في القرآن كثيرة.
- تحتاج إلى تتبُّع.

- والأسماء الجامعة غالبًا لا تُكرَّر.

ومن الأمثلة على ذلك:

- **(القيوم)** من الأسماء الجامعة الذي جُمع تحته كل الأسماء الفعلية،لم يأتِ في القرآن إلا ثلاث مرات، وهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[1] في البقرة وآل عمران، وقوله تعالى: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾[2] في سورة طه.

- **(الصمد)** اسم جامع لجميع صفات الكمال لله، لم يأتِ إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾[3] .

- **(البَرّ)** من الأسماء الجامعة العظيمة التي تجمع كل أنواع الإحسان للخلق، ولم يأتِ إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾[4].

- **(المؤمن)** من الأسماء الجامعة التي جُمِع تحتها كمال عظيم لله عز وجل، ولم يأتِ إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ﴾[5].

فأنت الآن لابد أن تفهم شيئًا مهمًّا، وهو: أن الاسم الذي يتكرر له معنى، والاسم الذي يأتي مرة واحدة له معنى. فكثير منّا يتصور أن الاسم الذي يأتي مرة واحدة تكون حاجتنا له أقل من غيره، لا، بالعكس! الاسم الذي يأتي مرة واحدة –إن كنت تفهمه جيدًا– ستجد شواهده في القرآن.

مثلًا: اسم (القيوم) ورد ثلاث مرات فقط في القرآن، لكن كل صفة فعلية تدل على قيوميّة الله عز وجل:

- فهو سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض: وهذا دالٌّ على قيوميّته.
- يرسل الرياح : دالٌّ على قيوميّته.
- يخلق الخلق : دالٌّ على قيوميّته.
- { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى} إيحاؤه سبحانه وتعالى: دالٌّ على قيوميّته.

---

١ (البقرة: ٢٥٥)، (آل عمران: ٢)
٢ (طه: ١١١)
٣ (الإخلاص: ٢)
٤ (الطور : ٢٨)
٥ (الحشر : ٢٣)
٦ (القصص: ٧)

- { فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ} فعل يدل على قيوميّته. [1]

إذًا: بالرغم من أن اسم (القيوم) ورد ثلاث مرات فقط، لكن كل فعل لله تجده في القرآن يدل على قيوميّته.

نأتي الآن إلى:

قاعدة مهمة عند أهل السنة والجماعة في معاملة أسماء الله عز وجل

من القواعد المهمة في معاملة أسماء الله عز وجل: أن نُثبِت الصفات التي وردت في هذه الأسماء من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وإنما نؤمن أنه –سبحانه وتعالى–: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} . وهذه القاعدة مع وضوحها لكن الأقدام زلَّت فيها.

سنناقش الآن تفاصيل الإيمان بهذه القاعدة:

- **أولًا:**

أن الله عز وجل عندما يخبرنا عن شيء من أسمائه وصفاته فإنه يريد منّا أن نعتقده، فهل تظن أن الله يخبرك أنه استوى على العرش، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، وأنه رحيم، وأنه غفور، وأنه تواب، ثم لا يُطلَب منك شيء؟! الله أخبرك بذلك من أجل أن تعتقده، وإذا اعتقدت انتفعت.

كل خبر في القرآن عن الله يُراد من أهله وممّن يسمعه أن يعتقدوه، ولا يعطّلوه، ولا يتركوا التفكير في مدلوله. وقد وَهِم مَن خوّف الناس من معرفة أسماء الله عز وجل، فبعض الناس خوّفوا غيرهم بأن لا تدخلوا في باب الأسماء حتى لا تزلّ أقدامكم!! ونحن نقول: أن الله ما أخبرنا بها إلا من أجل أن نعتقدها. فأنت ستُسأل يوم القيامة: ماذا كنت تفعل بالكتاب؟ أُخبِرت أن أوصاف الله كذا وكذا، فماذا كنت تعمل؟ سنُسأل: عن ماذا كنتم تعلمون؟

ولذلك **من المسؤوليات العِظام علينا: أن نتعلم صفات الله كما أخبرنا بها، فالله عز وجل ما أخبرنا في كتابه بأسمائه وصفاته لكي نتركها ونهملها، بل أخبرنا بها لكي نعتقدها، ونلقّنها أبناءنا، وهذا التلقين أمر مهم جدًّا.**

---

[1] (القصص : ١٣)

[2] (الشورى:١١)

لماذا ضَعُفَت العقائد؟ بسبب عدم التلقين. أنت ما عليك من ابنك! لا تظن أن ردود فعله هذه القائمة أمامك هي ردود فِعل قلبه، فقلبه مفطور على الحق، أنت ارمِ سهمك، وسيصل إلى مكانه المناسب دون أن تشعر، ودون أن يشعر ابنك، **لا يُطْلَب في هذه المرحلة ولا في المراحل التي بعدها أن تُسمِّع له، وتستجوبه، وتتأكد أنه يفهم معنى اسم (القيوم) ومعنى اسم (الصمد)...، ليس هذا المطلوب! وإنما المطلوب: أن يُعَاد على إذنه أسماء الله ومعانيها والانفعالات بها حتى تستقر في قلبه.**

إذًا: هذا أول أمر علينا أن نتفق عليه، وهو أن أهل السنة والجماعة يعلمون أن الله ما أخبر عن أسمائه وصفاته إلا من أجل أن نعتقدها، وليس من أجل أن نهملها، و(الوَهم) سبب من أسباب الإهمال لأسماء الله عز وجل، يَهِم الإنسان أنه يخاف من التفكير في كيفيتها! ولذلك نحن سنضع قواعد وضوابط للتفكير فيها، لكننا لن نهملها.

كيف نُهمِل هذه الأخبار العظيمة؟!

مثلًا: الله يقول لك هذا الخبر العظيم عنه في كتابه: أنه هو {الحَيُّ القَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ }[1] ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبيّن لك أن هذه أعظم آية في الكتاب، كما في حديث أُبيّ بن كعب أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ " قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: " يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ " قال: قلت: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}. قال: فضرب في صدري، وقال: " والله ليَهْنَك العلم أبا المنذر" .[2]

فتأتي بعد هذا كله تقرأ آية الكرسي وتكرّرها دون أن تفهمها؟! هذا نوع تجاهل للخبر، نوع تجاهل لأهمية ما أخبر الله به.

- **ثانيًا:**

أن **الله أخبرنا أنه لا يماثله شيء، وليس له سَمِيّ، وليس له كُفؤ**، وهذه من أصول اعتقادنا التي نجمعها مع ما سبق.

ماذا ستفهم من الجمع بين الأصل الأول والثاني؟ ستُثبِت الصفات بدون أي مماثلة. فبمجرد ما يخطر في عقلك سؤال عن كيفية صفة من الصفات تقطع التفكير وتستعِذ بالله؛ لأن الشيطان يلبّس عليك في أول الأمر، لكن ستستعيذ وتهرب منه، وتطلب من الله إلى أن يثبّتك.

---

١ (البقرة: ٢٥٥)

٢ رواه مسلم في صحيحه/ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي/ (١٩٢١).

عالِج قلبك باليأس من معرفة الكيفية، قل له: لو أدركت كل تفاصيل الأمور التي لا تستطيعها في الحياة فإنك لن تستطيع إدراك صفات الله، لو أدركت كيف تسري هذه الكهرباء، وهذه الرسائل كيف تُرسل، وهذا "الكمبيوتر" كيف يشتغل، وهذه الطائرة كيف تطير، لو أشغلت نفسك بإدراك هذا كله، اعلم أنك بعدما تدركه لن تستطيع أيضًا إدراك صفات الله. فهو يضغط على الكهرباء، ولا يستطيع أن يفسّرها، وهذا من صُنْع الإنسان! فكيف بصفات الله؟!!

لا بد أن يصل الإنسان إلى درجة اليأس من معرفة كيفية الصفات، والشيطان يجرّب الإنسان؛ لأن هذا الشيطان –والعياذ بالله– ما يُلقي في عقل الإنسان إذا أراد أن يستعمل أي أداة من الأدوات الحديثة بأن يبحث عن وصفها، لكنه عندما يسمع خبر عن الله يُلقي في قلبه أن يتساءل عن كيفيّته، فهذا من وسواسه.

إذًا: نجمع بين الأصلين الأول والثاني، فنقول: أخبرنا الله بصفاته كي نعتقدها، وأخبرنا في كتابه أنه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}، فهو ليس له سميّ، وليس له كفؤ. سأعتقد أن صفاته ثابتة له، وأنه لا يماثله أحد. ومع أول معركة في هذا ستكون هناك صعوبة، لكن عندما يستقر الاعتقاد الصحيح في الفؤاد سينقطع الأمر.

والصغير لا بد أن يُلَقَّن هذا، وكلما يسألك: كيف؟ وكيف؟ ستقول له: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، وتشرحها له، فتقول: أي: لا مثيل له، ولا يمكن إدراك صفاته، عقلك لا يستطيع ذلك، أنت شيء صغير لا يمكنك إدراك هذه الصفات العظيمة. وتكرار هذا يقطع من قلوبهم الأمل في معرفة الصفات.

ومرة أخرى سنقول: من المؤكد أن ضعف اللغة من الأسباب التي تؤثر على الاعتقاد.

الناس كلهم يقولون: "لا إله إلا الله". ونشعر أن قولها سهل، لكن ما بهم كفار قريش لم يقولوها بالرغم من ذلك؟! السبب: أنهم فهموا معناها. لكن الذي يردّدها اليوم يفعل ضدها؛ لأنه لا يدري ما معناها أصلًا، فلو أننا عرفنا معنى اسم (الله) فقط لحُلَّت مشاكل كثيرة في حياتنا، لكننا نردد هذا الاسم العظيم دون أن نَعي معناه، وهذا بسبب ضعف اللغة.

والإهمال لأخبار الله أيضًا من الأسباب المؤثرة على الاعتقاد، وأسباب أخرى كثيرة اجتمعت على بعض، وأخرجت هذا النموذج من الجيل ـ أسأل الله عز وجل أن يكشف الغُمّة عنا، وأن نكون سببًا حقًّا لكشف الغمة ـ، وصحيح أننا نقول كل دقيقة: نحن في فتن. ويأتينا الاكتئاب بسبب هذا، لكن مع ذلك نسأل الله أن يرفع راية التوحيد، ويقوّي هذه البلاد المباركة، ويعوّضنا بمن يسير في مسيرة الأسلاف في الدعوة للتوحيد!

صحيح أننا نعيش في فتن، لكن في المقابل نرى وسائل الدعوة إلى الله اليوم يسيرة. تسمع وأنت في فراشك درسًا من ١٥ دقيقة، أو يرسل لك أحدهم كلمتين من كلام أهل العلم، فأصبحت تجني من ثمار العلم، وهذا يرفع عنك ذاك، وهذا بالطبع لِمَن صَدَق، وهاهم أهل السنة والجماعة بفضل الله لهم صوت في الأرض كلها، نسأل الله أن يقوّي صوتهم!

نحن نقول: لا تأتي لنفسك بالاكتئاب وأنت تفكر فقط في الزاوية السوداء وأن الفتن قوية، وإنما فَكِّر في الجهة الأخرى: الآن وأنت في بيتك تستطيع أن تدرس وتتعلم، والناس في آخر الدنيا يستطيعون أن يتعلموا، أليس هذا خيرًا وبركة؟! صحيح أن الفتن ارتفعت، لكن وجوه الخير أيضًا ارتفعت، الناس كلهم يتحركون باتجاه العلم –صحيح أنها حركة بطيئة، لكن هناك حركة–، والتقصير الذي مضى انتهى، وغفر الله عمّا سلف.

كل من رزقه الله عِلمًا وكُشِفَت عنه غُمّة الجهل يجب أن يُفكّر في تقوية نفسه، وفي إمداد عمره بأحد بعده. اعمل لك صفًّا ثانيًا يبقى بعد موتك! تُعلِّمه وتُفهِّمه، وتبذل جهدك في ذلك، وتنقل له بدون بخل. قل لنفسك: سأموت قريبًا، وما مضى ليس أكثر مما سيأتي، ولهذا لابد أن أكوِّن لي صفًّا ثانيًا، من شخصين أو ثلاثة، أربعة، عشرة، الذي أستطيعه! وأبذل جهدي ليلًا ونهارًا لعلهم يستمرون في الدعوة إلى الله وفي نشر العلم، فيكونوا استمرارًا لي، لا بد من تكوين صف ثاني من كل مكان، **لابد من نشر عقيدة أهل السنة والجماعة بالتوريث، فالعلم يُوَرَّث**، نسأل الله أن يفتح لنا جميعًا!

ذكرنا أصلين في عقيدتنا في جادّة أهل السنة في هذا الباب:

الأصل الأول: اتفقنا أن الله عز وجل لما أخبرنا عن أسمائه وصفاته أخبرنا بها من أجل أن نعتقدها.

الأصل الثاني: أنه لا سَمِيّ له، ولا كُفْؤ، ولا نِدّ.

والمفترض أن نجمع بين الأصلين: فنعتقد أسماءه وصفاته دون أن يقع منا أي تمثيل.

- **ثالثًا:**

تعلُّم أسماء الله عز وجل وصفاته يجب أن يمرّ –على الأقل– بأربع مراحل:

❖ **المرحلة الأولى**: الإجمال في إثبات الأسماء والصفات بأدلتها.

تعرف الاسم، وتعرف أنه ثابت بدليل كذا، وتعرف معناه على الإجمال [الاسم، ودليله، ومعناه مجملًا]، مُر على كل الأسماء بهذه الطريقة إلى أن تعرف هل هذا اسمًا لله أم لا؟

❖ **المرحلة الثانية**: التفصيل في معرفة أسماء الله عز وجل وصفاته بشواهدها أيضًا.

نتقدم بهذه الخطوة قليلًا، ونأخذ الأدلة التي تدل على المعاني التفصيلية؛ لأن كل اسم له معانٍ تفصيلية، وتظهر آثاره في كذا وكذا.

❖ **المرحلة الثالثة**: دراسة حال المُخالِفين في أسماء الله ـ عز وجل ـ وصفاته على وجه الإجمال.

تعرف أن هناك من ينفي صفات الله، تعرف أن هناك من عطّلها، تعرف أن هناك من لا يؤمن أن الله ينزل، تعرف كل هذا بالإجمال حتى لا يهاجمك هذا الفكر المخالِف، خصوصًا أن الله ابتلى أهل السنة والجماعة بهؤلاء (الروافض) الذين أتوا إلى كل أصول الدين فشوّهوها، أتوا إلى توحيد الألوهية فشوّهوه، أتوا إلى توحيد الأسماء والصفات فشوّهوه. هؤلاء لهم صفة المَكْر؛ لأنهم لا يقولون لك مباشرة: نحن كذا وكذا.. وإنما يُلقون عليك الشُّبَه، فأنت اِفهم على وجه العموم حال هؤلاء المُخالِفين، وبمجرد أن تسمع مَن يُلقي عليك الشُّبَه سُدّ أذنيك، وقل: أنا جاهل، وهناك مَن له علم في هذه الأمور، ويعرف كيف يرد عليك، نعم، أنا الآن صحيح بفضل الله، وأعتقد ما اعتقده الصحابة والتابعين، لكني لست طبيبًا متخصّصًا لكي أطبّبك. فهل يأتي المريض لغير الطبيب، ويقول له: طَبِّبني، أنا عندي المرض الفلاني؟! لا! وإنما يذهب للطبيب.

واعلموا أن هؤلاء تخصّصوا فينا ـ وهذا ليس سرًّا ـ، فهم جماعة مرتبة، يدخل أحدهم –مثلًا– على موقع من المواقع كالـ"فيسبوك" أو غيره، ويقول لك: أنا أريد أن أستقيم على الدين ـ هذا لو كان من الروافض ـ، والنصراني يقول لك: أنا أريد أن أسلم، لكن جاوبوني على هذا السؤال. وهذا السؤال عبارة عن ماذا؟ عبارة عن شُبهة يلقيها في قلبك من أجل أن تستقبلها، وتدخل في الشكّ، وقد عوِمل هؤلاء من بعض مَن فهم حالهم، فيقول له: إذا عندك شُبَه سأقابلك ومعي الشيخ الفلاني، قل له كل ما عندك، وهو سيرشدك. وتجده –هذا الرافضي أو النصراني– بعد هذا يذهب، ولا يرينا وجهه!! لأنه أصلاً متخصّص في هذه العملية. وهذا هو مكْر الليل والنهار! ولهذا لا بد أن تفهموا هذه الأمور، ونحن لا نريد أن نقول أنها أمور مُخَطَّط لها، ولكن سنقول أن الساحة سمحت بها، الوضع العام سمح لمثل هؤلاء بأن يُخرِجوا رؤوسهم لنا.

إذًا في المرحلة الثالثة: تعرّف على حال المخالفين على وجه الإجمال، أنهم نفوا كذا، وأنكروا كذا من صفات الله، لكن بعد المرور بالمرحلتين السابقة بالطبع، بعدما تعرف أسماء الله وصفاته وأفعاله على وجه الإجمال، وبعدما تعرف ذلك أيضًا على وجه التفصيل.

❖ **المرحلة الرابعة** –وهي لمن تخصّص في هذا الباب–: أن يعرف كيف يردّ على هؤلاء المخالفين على وجه التفصيل.

فمن سار هذا الطريق وكانت عنده الأدلة سيصل في الأخير لمعرفة كيفية الرد عليهم، فهو سيدرس "الطحاوية" و"التدمرية" و"الواسطية" وتفصيلها –والواسطية من النوع الثاني والثالث وليس الرابع، لكن التدمرية والطحاوية من النوع الرابع–، وهذه بعض الرسائل لأهل العلم الكبار، التي ردّوا فيها على المخالفين.

عقائدكم أمانة تحملونها!! ستُسألون يوم القيامة: ماذا كنتم تظنون في ربكم؟ يجب أن تكون عقيدتك في الله من أوضح ما يكون، وهذه العقيدة كما أنها أمانة في عنقك أنت ستُسأل عنها، ستُسأل على ماذا ربّيت ولدك من العقائد؟ لا يوجد مدرسة تختبره في هذا، أنت لقِّنْه ولقِّنْه! ثم يوم القيامة اعتذر لربك أنك لقَّنته ما تستطيع، لكن المشكلة هي أن أكون أنا بنفسي جاهلة، لا أعرف الله، ولا أعرف أسماءه وصفاته وأفعاله على وجه التفصيل، وليس في قلبي التعظيم اللازم؛ لأن **التعظيم لا يأتي من فراغ، التعظيم يأتي بعدما تجمع في قلبك معاني أسمائه وصفاته، والتعظيم هذا روح تُبَثّ من الآباء لأبنائهم، روح يحملها من عَرَفَ الله، فلابد من بذل الجهد، ولا تستخسِر في هذا جهدًا، بل المفترض أن تكون حياتك كلها من أجل معرفة الله.**

وهذه الأربعة المراحل لتعلُّم أسماء الله عز وجل وصفاته خطة طويلة المدى لمن أراد أن يسير فيها، وأنت على أقل تقدير تعال بالثلاثة الأولى.

والمقصود أننا نريد أن نقضي وقت هذه اللقاءات من أجل أن نقول: يا ربنا أنا أريد أن تكون عقيدتي صحيحة، وأن ألقاك وأنا صاحب مُعتَقَد صحيح، فأُعْذَر بهذا الاعتقاد! طلب العلم في هذا الباب ـ باب العقيدة ـ من الأولويات التي علينا مسؤوليتها، والواقع اليوم يشهد أن هذه المسؤولية مسؤولية خطيرة، بمعنى أنك إن لم تكن على عِلم بأسماء الله وصفاته، وعلى عِلم بأصول دينك، فلا تستغرب أن تجد حولك الإلحاد! ولا تستغرب أن يخرج من بيوت أهل الإيمان ملحدون! فنسأل الله عز وجل أن يَقِينا شر أنفسنا، ويَقِي أولادنا ذلك!

طلب الوقاية هذا يحتاج إلى جُهد، وهذا الذي نفعله هو جُهد المُقِلّ، فوقت هذه اللقاءات من هذه الإجازة الطويلة ومن هذا العمر والنعم العظيمة لا يعتبر شيئًا! ثم أن وقت هذه اللقاءات كلها على بعضها لا شيء في نفس بحر العلم، لكننا نعتذر إلى الله أننا نعتني بعقائدنا، علّ الله ـ عز وجل ـ أن يفتح علينا بهذا العمل أبوابًا للعلم، ويثبّت الإيمان في قلوبنا وقلوب أبنائنا، ونحتسب على الله ـ عز وجل ـ أن تكون هذه الساعات العظيمة من حياتنا طلبًا للعلم وسببًا لزيادة الإيمان. وأول وأهم أسباب زيادة الإيمان –كما اتفقنا سابقًا–: العلم النافع. فنحن نحتسب على الله الطلب، وخروجنا له، واجتماعنا في هذه الساعات المباركة أن تكون طلبًا لزيادة الإيمان، فأسأل الله عز وجل أن يزيد إيماني وإيمانكم، وأن يجمع قلوبنا على توحيده وله الحمد أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

*أذكركم بالواجب: يفترض أن تقرؤوا آل عمران من أولها لآخرها، وتحددوا تقريبًا موضوعها.

جزاكم الله خيرًا.

اللقاء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

طريقة الدراسة:

اتفقنا سابقًا على أربع خطوات للدراسة:

الخطوة الأولى: أن أعرف معاني أسماء الله عز وجل على وجه الإجمال، بمعنى:

- ✓ أدْرُس كل اسم من أسماء الله.
- ✓ أعرف أين ثبت.
- ✓ أعرف معنى الاسم على وجه الإجمال، وشيء من تفاصيل المعنى.

الخطوة الثانية: أتحول من هذا إلى القرآن، فأرى آثار هذا الاسم في القرآن.

مثال: اسم الله القيّوم: سأبحث عن آثار قيّوميّته في كل شيء، اسم الله الحكيم: سأبحث عن آثار حِكمته في كل شيء، اسم الله الوهّاب: سأرى ما هي الهِبات التي يهِبُها للخلق، وهكذا.

إذًا: سأتعلم معنى الاسم على وجه الإجمال من كتب مثل كتاب "فقه الأسماء الحسنى"، ثم بعد ذلك أخرج إلى القرآن لأجد شواهد على هذا الاسم.

سنبدأ اليوم بالخطوة الأولى، وغالبًا ما تكون الخطوة الأولى سريعة إذا كنا سنأتي بالثانية، وتكون الدراسة بطيئة إذا أدخلنا الخطوتين معًا، –درسنا اسم الودود في السنة الماضية وأدخلنا الخطوتين في نفس الوقت، فأخذنا معناه على وجه العموم ثم مباشرة أخذنا شواهده من القرآن– لكننا هذه المرة سنفصل بين الخطوتين:

- سأقرأ المعنى من كتاب "فقه الأسماء" –كأنك الآن تقرئين بنفسك–.
- ثم نتدرب بعد ذلك على فتح المصحف، ورؤية آثار الحكمة في النصوص.

بسم الله..

دائمًا عندما نبدأ في دراسة الأسماء نسأل أهم سؤال: ما دليلي على أنه اسم؟ هذا أهم سؤال يجب أن يكون ثابتًا في ذهنك، ما دليلك على أن الوهاب اسم من أسماء الله؟ فأحفظ كذا وكذا من الأدلة. ما دليلك أن القيوم من أسماء الله؟ أحفظ كذا وكذا.

ما دليلك أن (الحكيم) من أسماء الله؟

يقول الشيخ عبدالرزاق البدر –حفظه الله–: **"وقد ورد اسم الله (الحكيم) في القرآن الكريم ما يقرب من مائة مرة، قال تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[1] ، وقال تعالى: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[2] ، وقال تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[3] ، وقال تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا}[4] ."**

سنلاحظ هنا أمور:

- الأمر الأول: أمر واضح وهو: أن هذا الاسم تكرّر في القرآن ما يقارب مائة مرة.
- الأمر الثاني: سنلاحظ أنه اقترن بأسماء متعددة، منها: الخبير، العزيز، العليم، الواسع.

ما المفترض فِعله في هذه الخطوة؟

المفترض أن تأتي من "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن" بالمائة موضع الذي ورد فيها اسم الحكيم، فتبدئي من اليوم بكتابة: ورد اسم الحكيم في آية كذا واقترن بكذا..، وتقومي بعمل جدول:

(نموذج لجدول الاستقراء)

الآية	السورة	رقم الآية	الاسم المقترن مع اسم الحكيم
قال تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا}	النساء	١٣٠	الواسع

*ملاحظة مهمة: لا تُخطئوا فتَصِفوا الله بصفة وصف الله عز وجل بها أحدًا من خَلقه.

[1] (الأنعام:١٨)
[2] (البقرة:٢٢٨)
[3] (النساء:٢٦)
[4] (النساء:١٣٠)

مثلًا: في تجربة قريبة قمنا بها مع اسم الرؤوف: الرؤوف ورد في القرآن عشر مرات، فقالوا لي: أنه ورد إحدى عشر مرة . ثم قلنا: لا بأس، سنعدّها سويًّا. فعددناها إلى أن وصلنا لسورة التوبة، فقالوا: ورد في التوبة مرتين. فماذا كان الخلل؟ أنه ورد فيها وصفًا للنبي صلى الله عليه وسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم رؤوف. فوقع هذا الخطأ، فمن الضروري عند الملاحظة أن تتأكدي بأن الاسم ورد هنا في حق الله عز وجل، ودائمًا ما يقع هذا الخطأ في اسمي الرؤوف والشكور؛ لأن الله وصف نوح عليه السلام بأنه عبد شكور، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رؤوف.

قال: " **وهذا الاسم العظيم دالٌّ على ثبوت كمال الحُكم لله وكمال الحِكمة** "

إذًا معناه الأوّلي سيتضمّن معنيان معًا:

١- كمال الحُكم.

٢- كمال الحِكمة.

وسيشرح الآن كِلا المعنيين، قال: " **أمّا كمال الحُكم فبثبوت أن الحُكم لله وحده يحكم بين عباده بما يشاء، ويقضي فيهم بما يريد، لا رادّ لحكمه، ولا معقّب لقضائه، قال تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}** " الجواب: بلى. ويسمى هذا[1] جواب منفي. "**وقال تعالى: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا} ، وقال تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} ، وقال تعالى:{ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} ، وقال تعالى: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} ، وليس لأحد أن يراجع الله في حكمه كما يراجع الناس بعضهم بعضًا في أحكامهم، قال تعالى: {وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} ، فحكمه في خلقه نافذ لا رادّ له.**"

المعنى واضح على وجه العموم، ولاحظوا أننا ندرس دراسة أولية فنأخذ المجمل، ثم بعد هذا سننتقل ونأخذ التفصيل —إن شاء الله—.

---

[1] (التين:٨)
[2] (الأنعام:١١٤)
[3] (الأعراف:٨٧)
[4] (الأنعام:٥٧)
[5] (الكهف:٢٦)
[6] (الرعد:٤١)

ماذا فهمنا الآن؟ فهمنا أن **الحكم لله يحكم بين عباده كما يشاء، ويقضي بينهم كما يريد، لا رادّ لحكمه، ولا يستطيع أحد أن يراجع الله في حكمه.**

ماذا نعتقد في حكمه؟ **نعتقد أنه خير الحاكمين وأحكم الحاكمين.**

قال : " **وثبوت الحكم له سبحانه يتضمن ثبوت جميع الأسماء الحسنى والصفات العلُيا؛ لأنه لا يكون حَكَمًا إلا سميعًا بصيرًا عليمًا خبيرًا متكلِّمًا مدبِّرًا، إلى غير ذلك من الأسماء والصفات.** "

يعني كونك تثبتين أن الله حكيم يحكم بين عباده، إذًا أنتِ تثبتين أنه سميع، بصير، عليم، قريب، متكلم، تثبتين جملة عظيمة من صفاته ـ سبحانه وتعالى ـ اللازمة لثبوت الحكم لله.

قال :" **وفي هذا إبطال لجعل الحكم لغير الله؛ لأن الحكم لا يكون إلا لكامل الصفات الذي له الأمر، وبيده التصرف، وتأمَّل هذا المعنى في قوله تعالى:{فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} ، وقوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** ." أي: لأنه الله الإله الذي لآ إله إلا هو فإنه يُحمَد على ذلك في الأولى والآخرة، ومما يستحقه: الحُكم؛ لِمَا له من تمام الألوهية.

قال : "**وقوله تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}** " أي: يُرَدّ إلى كتاب الله وسنةّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فما حَكَمَا به فهو الحق، وما خالفهما فهو باطل.

قال : " **ثم قال مُبَيِّنًا صفات من له الحكم:{ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}** " [٤]

أول وصف: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} أي: اعتمدت عليه بقلبي في جلب المنافع ودفع المضارّ واثقًا به.

انظري لهذه الآيات المتتابعة في الشورى:

الأولى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}، أي: بعدما أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أن ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه يُرَدّ إلى الله، قال مُبَيِّنًا صفات من له الحكم: هو الله ربي الذي {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} أي: اعتمدت عليه واطمأننت له، { وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } أي: أتوجّه له بقلبي وبدني.

---

[١] (غافر:١٢)

[٢] (القصص:٧٠)

[٣] (الشورى:١٠)

[٤] (الشورى:١٠)

الثانية: { فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} ماذا يفعل لكم؟ {يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} أي: يبثّكم ويكثّركم، ويكثّر مواشيكم بسبب أنه جعل لكم من أنفسكم أزواجًا، وجعل لكم لأنعامكم أزواجًا، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [1].

الثالثة: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [2].

إذًا: من صفاته ـ سبحانه وتعالى ـ أنه ربنا، وأن عليه الاعتماد وإليه الإنابة، وهو فاطر السموات، وهو الذي كثّرنا وأعطانا، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، له مقاليد السماوات والأرض، ماذا يفعل للخلق؟ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فيوسّع على قوم، ويضيّق على قوم، وهو بكل شي عليم.

يقول : " **أي: أن الذي له هذه الصفات هو الذي يستحق أن يشرّع ويحلّل ويحرّم، وجَعْلُ ذلك لغيره أظلم الظلم وأعظم الجور {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}** " [3].

أي: أن آية الشورى تُبيّن لك أنه لا يستحق الحكم إلا من خلق وأعطى ورزق، ومَن قلبي إليه مطمئن هو الذي يستحق أن يحكم بين الخلق، وهو حقيقةً يحكم فيهم بأن يبسط لمن يشاء الأرزاق، ويقدِر على من يشاء الأرزاق، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء، ولاحظي قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} جاء في سياق إثبات الحكم له، أي: هو وحده يستحق أن يحكم ولا أحد مثله، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ليس كوصفه أحد من الخلق، فلا تظن خيرًا إلا فيه، وكل أحد غير الله وإن حَكَم فلا بد أن يتخطّفه هواه أو يرتكب الأخطاء، والله ـ عز وجل ـ تعالى عن ذلك كله.

قال : " **كما أن في ذلك دلالة على أن مَن هذه شأنه هو المستحق وحده أن يُفرَد بالذل والخضوع، قال تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** ". {أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[4] ماذا؟ أكثر الناس لا يعلمون أن هذا الدين هو الذي يُقيمهم، لماذا؟ لأنهم يستجيبون لنزعات أهوائهم.

قال: " **وقال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** . **ومن أسماء الله: (الحَكَم)، ففي الحديث عن هانئ بن يزيد الحارثي: أنه لما وفد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه سمعهم**

[1] (الشورى:١١)
[2] (الشورى:١٢)
[3] (المائدة:٥٠)
[4] (يوسف:٤٠)

يكنّونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إن الله تعالى هو الحَكَم وإليه الحُكم، فلِمَ تُكنَّى أبا الحكم؟" فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمتُ بينهم فرضيَ كِلا الفريقين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟" قال: لي شُرَيح ومسلم وعبدالله. قال: "فمن أكبرهم؟" قلت: شُرَيح. قال: "فأنت أبو شُرَيح. " [٢]

غيّر الرسول صلى الله عليه وسلم كنيته لأن هذا الاسم خاص لله، وقد كنّاه قومه بأبي الحكم لمشاعرهم تجاهه، فهم يلاحظون فيه صفة أنه يحكم بينهم فيعدل في حكمه. إذًا هذا الاسم –الحَكَم– اسم خاص لله، لا يُسمَّى به أحد وهو يُلاحَظ فيه معنى الصفة، لكن عندما يقولون –مثلًا–: هذا حكم المباراة، هذا حاكم في هذه المسابقة. فهذا لا بأس به، لكن متى يكون اسم الحكم ممنوعًا؟ إذا لوحظت الصفة فيمن تسمّى به، كأن يحكم في شؤونهم، ويرضون بحكمه، لا أن يُقيَّد بحال، وإنما على وجه الإطلاق.

إذًا: اسم الله الحكيم يحمل معنيين –كما اتفقنا–:

١– الحُكم

٢– الحكمة

وكل ما مضى من نقاش كان كلامًا عامًّا حول أن الحُكم لله ـ عز وجل ـ، وأخذنا معنى أن له الحكم، وكيف أنه لا رادّ لحكمه، وأن حكمه هو الصواب، وأنه يجب علينا أن نستسلم لحكمه لِما له من كمال الصفات، و**يجب أن يكون في قلوبنا القبول بحكم الله ـ عز وجل ـ القدري والشرعي بدون** منازعة.

سنقول الآن كلامًا عامًّا أيضًا عن الحكمة، ثم بعد ذلك نبدأ نفصّل:

يقول :" **أما كمال الحكمة فبثبوت الحكمة له سبحانه في خلقه وفي أمره وشرعه، حيث يضع الأشياء مواضعها ويُنزِلها منازلها، ولا يتوجه إليه سؤال ولا يقدح في حكمته مقال**" أي: أن الله {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [٣] .

---

[١] (القصص:٨٨)

[٢] رواه أبو داوود في سننه/ في كتاب الأدب/ بَابٌ فِي تَغْيِيرِ الِاسْمِ الْقَبِيحِ/ (٤٩٥٥). ورواه النسائي في سننه/ في كتاب آداب القضاء/ إِذَا حَكَّمُوا رَجُلًا فَقَضَى بَيْنَهُمْ/ (٥٣٨٧)، وصحّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد/ ٣٥٣– باب كنية أبي الحكم/ (٨١١).

[٣] (لأنبياء:٢٣)

سيضرب الآن أمثلة عن حكمة الله ـ عز وجل ـ :

يقول : " **أما الحكمة في الخلق فإنه سبحانه خلق الخلق بالحق، ومشتملًا على الحق، وكان نهايته وغايته الحق، أوجده بأحسن نظام، ورتّبه بأكمل إتقان، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضو من أعضاء الحيوانات خِلقته وهيئته اللائقة به، بحيث لا يُرى فيه شي من التفاوت والخلل**"

ثم ذكر من أمثلة ذلك: السماء {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} ماذا تفعل؟ {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ } ماذا سيحصل؟ {يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} ، لا يُرى تفاوت في خلقه[1] أبدًا.

قال: " **ولو اجتمعت عقول الخلق على أن يقترحوا مثلًا أو أحسن من هذه الموجودات لم يقدروا على ذلك {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}** " [2]

نعود لأول الكلام، يقول : "**أما الحكمة في الخلق فإنه سبحانه خلق الخلق بالحق**"

أي: خلق كل الخلق بالحق ليس عبثًا ولا لعِبًا، وخلق الخلق مشتملًا على الحق، أي: هم بأنفسهم مشتملون على الحق، وستكون نهاية الخلق وغاية الخلق هي الحق.

ما علاقة هذا بالحكمة؟

أنا الآن أفهم أن هذا كلام مجمل وأنه غير متبيّن، لكن أريد منكم أن تقرؤوه وتفكروا فيه، وتأتوا بشواهد من القرآن على هذه الجمل التي قالها، فنحن نريد أن نتدرب كيف نقرأ كلامًا عامًّا مجملًا عن الأسماء، ثم نفكر فيه ونبحث عنه في القرآن. كيف يكتب العلماء عن أسماء الله؟ هل يكتبون عنها من تلقاء أنفسهم؟ بالطبع لا، وإنما يدرس ويتعلم عن الله ويبحث، ثم يعبّر عن هذا الموجود في القرآن بهذا الكلام.

لو أتى لك المصنف بكل الآيات وشرح لك كيف خرج بكل هذه الجمل سيطول المقام، لكن أنت ماذا تفعل؟

← تمرّ بالمرحلة الأولى: تقرأ معنى الاسم على وجه العموم –كقراءتنا اليوم–.

[1] (الملك:٣-٤)

[2] (النمل:٨٨)

← ثم في المرحلة الثانية:

١. نقسّم، ونقول: قال في الحكم [أ ، ب ، جـ ، د]، وفي الحِكمة قال [أ ، ب ، جـ ، د].

٢. ثم نرى من أين أتى بهذه النقاط؟ فنبحث في القرآن عن آيات تدل على هذه المعاني.

٣. ثم نفهم الآيات في سياقاتها، فتتضح هذه الجمل التي كتبها.

من الخطأ أن تظن أنك بمرة واحد ستفهم كل هذا على بعضه، أنت اليوم تقرأ كأنك تقرؤه مطالعة وتفهم على وجه العموم، ثم تقرؤه قراءة جديدة تقسّم لك المعاني، ثم قراءة جديدة تأتي لك بالأدلة، ثم قراءة جديدة تفهمك وجه الاستدلال بالأدلة، **كنا نستطيع أن نشرح الاسم وانتهى الموضوع! لكن المسؤولية اليوم ليس مجرد أن أُطلعك على معاني الأسماء، المسؤولية اليوم هي تعليم الناس كيف يتعلمون**، ضروري أن تتعلم كيف تتعلم بنفسك، فبالرغم من وجود الاتصالات الحديثة وتوفر العلم في كل مكان لكننا مصابون بالكسل، ولذلك لا تعتمد على أن تُلَقَّن العلم، وإنما لا بد أن تبحث بنفسك.

يقول: "**وإذا كان من المتقرِّر أن الله سبحانه له الكمال الذي لا يحيط به العباد، وأنه ما من كمال تفرضه الأذهان ويقدّره المقدّرون إلا والله أعظم من ذلك وأجلّ، فإن أفعاله وجميع ما أوصله إلى الخلق أكمل الأمور وأحسنها وأنظمها وأتقنها، فالفعل يتبع في كماله وحُسنه إلى فاعله، والتدبير منسوب إلى مدبّره، و الله تعالى كما لا يشبه أحد في صفاته في العظمة والحُسن والجمال، فكذلك لا يشبهه أحد في أفعاله**". هذا الكلام تابع للكلام الماضي.

ماذا قرّر في أول الكلام ؟ قرّر أن الله ـ عز وجل ـ حكيم، وأفعاله كلها حكمة، ومخلوقاته كلها حكمة، ولو اجتمع الناس على أن يقترحوا فيقولوا لو كان شكل هذا المخلوق كذا لكان أحسن لَما استطاعوا، فإنهم لا يجدون أحسن مما خلق الله، ثم بيّن أن الكمال الذي يوصَف به ـ سبحانه وتعالى ـ لا يمكن لأحد أن يحيط به علمًا، ولا أن يقدّره أحد، و إذا قدّر مَن قدّر كمال الله فالله أجلّ مما يقدّره أي مُقَدِّر. وكذلك الأفعال، فأنت عندما ترى أفعاله ستعلم أن أفعاله لا يمكن أن يقدّر الخلق عظمتها والحِكمة فيها ولو اجتمعوا.

فأنت عندما يقال لك: هذه الحكمة من الوضوء، وهذه الحكمة من الصلاة، أو هذه الحكمة من خلق هذا الحيوان، أو هذه الحكمة من خلق الأرض بهذه الصورة. عليك أن تقول: هذا ما وصلتم إليه من الحكمة، أما أفعال الله فلا يمكن أن تحيطوا بها

علمًا، بحيث أنكم تحصرون كمال حِكمته في ما تذكرون، لذلك من الأخطاء التي تحصل أن يُرَبَّى الناس على أن يعتقدوا أن هذه فقط هي حكمة الله من كذا وكذا.

وسأضرب لكم مثالًا: ما الحكمة من الصيام؟ أن يتّقي الإنسان. هل تستطيعين أن تأتي بجملة مختصرة عن التقوى؟ أم أن التقوى كلمة كلما جاء جيل عبَّر عنها بما لا يستطيعه عقل من قبله بناءً على ظروف وأحوال الخلق؟ فالتقوى عند مَن سبقنا تختلف عن التقوى عندنا، فهم كانوا يتّقون أن يخرجوا إلى الملاهي أو أن يخرجوا إلى أي شيء يلهيهم، أما التقوى الآن فأنت لست بحاجة لأن يقال لك: اتّقِ للخروج لِما يُلهيك. وإنما اتّقِ بأن تأتي بأي شيء يلهيك.

والمعنى: أن هذه المفاهيم العظيمة تتّسع لكل من خلق الله في كل عصر، فهي ليست محصورة ولا يمكن ضبطها، وإنما كلما قلت عن شيء من الحكمة لا بد أن تقول: أن هذا شيء من حكمة الله، وحكمة الله في كل شيء لا يُحاط بها، فأفعاله كلها حكمة وحكمته لا يحاط بها، والدليل على ذلك أن هناك أشياء لا نعلم الحكمة منها، مثلًا: لو سألنا: لماذا كوكب المشتري موجود؟ لماذا كوكب الزهرة موجود؟ هل عندك جواب؟! ماذا سنفعل؟ سنقول: أن الله هو الحكيم سبحانه الذي لا يمكن لأحد أن يحيط بحكمته، **لا بد أن تشعر بالعجز عن الإحاطة بحكمته كما أنك عاجز عن الإحاطة بكماله.**

سنرى هذا أيضًا في شرعه: قال: **"وأما الحكمة في أمره وشرعه فإنه تعالى شرع الشرائع، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فلم يخلقهم هملًا، ولم يوجدهم سُدًى، بل خلقهم لأكمل مقصد وأوجدهم لأجلّ غاية. ومعرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له –التي هي مقصود الخلق– هي أفضل العطايا منه تعالى لعباده على الإطلاق، و أجلّ الهبات وأشرف المِنَن لمن يَمُنّ الله عليه بها ويكرمه ببلوغها وتحقيقها، وهي أكمل السعادة والفلاح والسرور للقلوب والأرواح، بل هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي."**

هنا يبيّن أن **الحكمة من أمره وشرعه وإنزاله لكتبه كلها تدور حول أمر واحد وهو أن يعرفه العباد**، ولا تدري كم من وراء هذه المعرفة من حكمة، فإن أُسّ السعادة وأساسها وصلاح المرء في دينه ودنياه كلها تدور حول هذه المعرفة، فلا تدري ولا تستطيع أن تقدّر ما مقدار الرحمة والحكمة التي أنعم الله بها على العباد حال تعليمه لهم عن نفسه، **والخاسر حقيقةً في الدنيا الذي لم يعرف الله**، هذا حقًّا خاسر! لأن الله ـ عز وجل ـ من أعظم مِنَنِه على الخلق أن أنزل عليهم كتبًا يتعلمون منها عنه، فهذا أعظم ما تَسأل عنه، فالله أرسل الرسل وأنزل الكتب من أجل هذه الحكمة التي معرفة الله.

فكان أولى ما تُجيب به وقت ما تُسأل عن الحكمة من خلق الخلق وإنشائهم أن تقول: خلق الله الخلق ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه. هذا التسلسل منطقي مفهوم، وله أدلة في القران، ومن أدلته: -نفس الدليل الذي نحفظه كلنا- قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} أكمل {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ}[1] ، وذُكِر هذا المفهوم نفسه في سورة الطلاق، قال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} لأجل ماذا؟ {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[2] . إذًا: خلق الله المخلوقات لحكمة عظيمة وهي: معرفته والتمتّع بعبادته.

وهذا الكلام الذي قلناه موجود حتى في أصول الدين، فإنه مما يُشكِل على الخلق كونهم لا يفهمون معنى أن يكونوا عِبادًا، أتت المفاهيم الجديدة تشوّه كلمة (عبودية)، نعم أمر مؤذي ومُضِرّ أن تكون عبدًا للخلق، فهذا أمر تكرهه وتُبغضه، لكن عندما تأتي تتكلم عن الحرية لابد أن تتكلم عنها بمعناها الحقيقي؛ لأنك لا تظن أنك ستصبح حُرًّا عندما تتحرّر من العبودية لله! بل أنت ستنتقل من نوع عبودية إلى نوع عبودية آخر، ونوع العبودية الآخر هذا هو العبودية للهوى، و**العبودية للهوى تجعلك في مرتبة أحطّ من مرتبة الحيوان.**

أنتم الآن لو كنتم في زيارة لمدينة الطائف أو لمناطق عسير ستتصوّرون الصورة بوضوح، ففي سفوح جبال الطائف أو في عسير تجدون مجموعات كبيرة من القِرَدة، يمارسون كل الحياة المعروفة، من الأكل والشرب والتناسل في سفوح الجبال، أمام الناس كلهم، ولهم أصوات ولغة يحدّث بعضهم بعضًا بها، هذه بالضبط صورة للإنسان لو ما كان عبدًا لله، بالضبط بهذه الصورة! بهذا الانفلات! بهذا القُبح! بهذه العلانية! ما عليهم إلا أن يستيقظوا مع شروق الشمس ليأكلوا، ويشربوا، ويتنافسوا، ويتقاتلوا، ويبحثوا عما يأكلونه، ويتناسلوا، ثم يتهارجوا ويتصايحوا، ثم يعودوا فيناموا، وانتهى أمرهم!!

هذه هي صورة الأنعام —الحيوانات- الحقيقية المعروفة التي لا يجادل فيها أحد، خلقهم الله لهذه الصورة من الحياة، لكن الله أخرجك من هذه البهيميّة، وشرّفك، و بُيّن لك أنك لو لم تكن عبدًا له ستكون عبدًا لهذه الشهوات: تأكل، تشرب، تصارخ، تتناسل، وينتهي الأمر! وتصبح كل يوم من هذا لهذا، ثم أنك لن تشبع! ما تأكله اليوم ستطمع فيه غدًا وأكثر، سيكون حالك كل يوم إلى الأسوأ والأردى في عدم الشبع وزيادة الطمع. **لابد أن تكون عبدًا، إن لم تكن عبدًا لله كنت عبدًا لهواك.**

---

[1] (الذاريات:٥٦-٥٨)

[2] (الطلاق:١٢)

أي شيء تحاربه و تدافعه كي لا تكون عبدًا لله؟! ما الذي سَيَضِيق عليك لو أصبحت عبدًا لله؟!

اسمع ما هي المميزات التي ستكون لك لو أصبحت عبدًا لله:

سيكون لك سيّد ومولى، تتوكل عليه فيكفيك، تناديه فيسمعك، تسترزقه فيرزقك، إن كنت في مأزق يفرّج عليك، إن كنت في ضيق يلطف بك، يناديك في الثلث الأخير من الليل: "مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟"[1] كلما شعرت بشعور الخوف إليه تفزع، إليه تصمد، يكفيك، ويؤويك، بل يعاملك بالجَبْر فيجبر قلبك، ويعاملك باللطف فيخرجك من مضائق حياتك، ويعاملك بتمام الرأفة فيمهّد لك الأرض، ويعطيك ما يحملك وينقلك، كل هذا سيكون لك! إذًا ما الذي يضرّك في عبوديته؟!

معنى أن تكون عبدًا: أي: أن لك سيد يكفل لك كل شؤونك، لك سيد يقال لك: عامِله بالاعتماد والتوكل، وهو يكفيك كل ما أهمّك، واعلم أن سيدك ومولاك له كل الملك، يده سحّاء الليل والنهار، كريم ـ سبحانه وتعالى ـ، خزائنه ملأى، أتدري ما أنفق منذ أن خلق السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة؟ كمثل ما تدخل الإبرة في البحر، أتُنقِص منه شيئًا؟! لو أنقَصَت من البحر شيئًا لكان ما أنفقه على أهل الأرض في هذا الزمن نقص في ملكه شيء، لكن ملكه ـ سبحانه وتعالى ـ لا ينقص، فماذا تريد بعد ذلك؟! المطلوب منك فقط أن تعتمد عليه وتتوكل عليه، الخير سيجلبه لك، الشر سيصرفه عنك، يُقبِل عليك الشر فيحفظك منه، فكل ما يقال لك عن العبودية معناه الكفاية، فأنت كُن عبدًا له وهو سبحانه وعدك بالكفاية، ماذا يضرّك أن تكون عبدًا لرب العالمين؟! إلّا أن كلمة العبودية شُوِّهَت في عقول الخلق، وظنوا أنهم يهربون من العبودية والرِّق، وما عرفوا أنهم يخرجون من عبودية الله إلى عبودية الشيطان والهوى، وما تدري هذا الذي يصبح عبدًا للشيطان والهوى ما حاله؟ أليست القلوب بيد الله؟ فحتى لو انشرح صدرك لأنه عاملك برأفته زمنًا من الأزمنة، أتظن أنه يُبقِي صدرك مشروحًا؟!

الله ـ عز وجل ـ حينما تهرب منه وتذهب بعيدًا عنه يعاملك برأفته وحِلمه، ولا يُضيق عليك الأمور مرةً واحدة، وإنما يذيقك شيئًا من الآلام لكي تعود، وهو عنك غني، ولكن من تمام رأفته بخلقه وتربيته لهم أنه يعيدهم، فأنت عندما تظن خاطئًا –كما يظن مَن ليس له عقل، وليس برشيد– أن الهروب من الله يوصِل إلى السعادة تكون قد اغتررت بحلمه، واعلم أن الذين يقولون لك: نحن سعداء؛ لأننا في حرية وانطلاق. إنما هم في زمن بقائهم تحت حِلم الله، وزمن بقائهم تحت حِلم الله هو الذي يوهِم

١ رواه البخاري في صحيحه/ كتاب التوحيد/ بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ}/(7494)

الناس أن هؤلاء سعداء، ثم إذا أتى الضيق والله لا يُفرَّج على القلوب ولو كانت الدنيا ملك يمينهم، فلا يغرّك هذا الهروب، واعلم أن العبودية نعمة أنعم الله ـ عز وجل ـ علينا بها، وشرف تشعر به إذا عرفت الله.

ومن تمام حكمته في معاملته لخلقه أن جعل كتابه مليئًا بالخبر عنه، فأعظم الحِكم أنه خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا، بل أرسل إلينا رسولًا، والرسول أتى بالكتاب، والكتاب فيه خبر عن الله، فأعظم ما تشعر به وتشاهده من حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ أنه علمك عن نفسه، وفي هذا ستكون السعادة والفلاح السرمدي.

يقول: "**إضافة إلى هذا**" يعني إضافةً للخبر عنه. ما هو أول الشرع؟ معرفة الله، أول الدين أن تعرف الله، أُس الدين وأساسه أن تعرفه، فتتجلّى الحكمة في تعليمه لنا عن نفسه، ثم إضافة إلى هذا :"**فإن شرعه قد اشتمل على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علمًا وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، ويحصل لها أفضل المعارف وأجلّ العلوم**".

والمقصود من هذا: الأخبار التي جاءت في الشرع، فكل خبر في القرآن يملأ قلبك علمًا وعقائد صحيحة، فمن حكمته أن يخبرك عن نفسه بما أخبرك، ومن حكمته أن يعلّمك هذه العقائد التي بها تستقيم القلوب ويزول انحرافها، وأيضاً ستجد أن أوامره كلها منافع ومصالح.

قال: "**وأوامره كلها منافع ومصالح، وتُثمِر الأخلاق الجميلة والخصال الكريمة والأعمال الصالحة والطاعات الزاكية، والهدي الكامل**" إذًا هذه آثار الأوامر.

قال: "**ونواهيه كلها موافقة للعقول الصحيحة والفِطَر السليمة، فلم ينهَ إلا عمّا يضر الناس في عقولهم وأخلاقهم وأعراضهم وأبدانهم وأموالهم**"

هذا كله الآن يجب أن ندرسه بالتفصيل من القرآن، أي: أننا سنُخرِج له شواهد على أن من حكمة الله ـ عز وجل ـ أن شرعه –سواءً كان أخبارًا أو أحكامًا– كله فيه من الخير والحكمة.

قال: "**ومن حُكمه وحِكمته سبحانه: مجازاة المحسن بإحسانه**" هذا الحُكم والحِكمة في الجزاء.

عرفنا الآن ثلاثة أنواع من الحُكم والحِكمة، فنقول: أن **حكمة الله –عز وجل– تظهر في ثلاثة أمور**:

١– حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ في خلق المخلوقات.

٢- **حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ في شرع الشرائع.**

٣- **حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ في الجزاء.**

نرى حكمته في الجزاء: يقول: **"ومن حُكمه وحِكمته سبحانه مجازاة المحسِن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قال تعالى في شأن المحسِن:{هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ} ، وقال في شأن المسيء: {ثُمَّ[1] كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى} "**

إذًا من حكمته في جزائه أن كانت عاقبة الإحسان الإحسان، وعاقبة الإساءة السوء. أين الحكمة في أن يعاملنا الله بهذه المعاملة؟ الحكمة هي العدل؛ ثم من حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعاملهم بشيء من الفضل، فالحكمة تكون في العدل أو في الفضل. أي: أن معاملة الله لخلقه ليست فقط العدل، وإنما هناك نوعان من معاملة الله لخلقه تظهر فيهما الحكمة: معاملة العدل ومعاملة الفضل، لكن معاملة الفضل تكون مع المحسِن وهنا تكون الحكمة، والمسيء من حكمة الله ـ عز وجل ـ أن يعامله بالإساءة التي يستحقها، أما المحسِن فيعامله الله إما بالإحسان المكافِئ ـ وهذا العدل ـ، أو يعامله بالفضل ـ والفضل معناه الزيادة ـ، والأصل في معاملة الله للمحسنين الفضل، وفي معاملة الله ـ عز وجل ـ للمسيئين العدل.

نأتي هنا لمشكلة كبيرة في التفكير اتجاه الحكمة الجزائية: الله ـ عز وجل ـ يخبِر أنه سيعامل المسيء بالسيئة، ويخبِر أنه لا يغفر أن يُشرَك به، ويخبِر أنه {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} ، وأن الكفار مصيرهم الخلوّد في النار، يخبر بهذا كله، ثم يموت كافر فيقال: ربنا قادر على أن يدخله الجنة، أليس الله رحيم؟!. ما رأيكم؟ إذا عامل الله من مات على الكفر بالرحمة فإن ذلك سيخالف الحكمة، الله ـ عز وجل ـ حكيم، ومن حكمته أن يعامل المسيء بالعدل، وأن يعامل المحسِن بالفضل، فإن قلت بخلاف ذلك فقد اتّهمت حكمته.

ولذلك انظري لعيسى ـ عليه السلام ـ كيف يفهم ذلك عن ربه فيقول: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ} أنت تعاملهم بما تريد {وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} ، أي: أن مغفرتك صادرة ممن عزة وحكمة، فمن المؤكد أنك لن تغفر إلا لمن يستحق المغفرة، لن تغفر لمن حكمت عليه بأنه مسيء، وإلا فمعنى ذلك أن الإنسان سيمشي هذا الطريق الصعب ويشقّه، ويبقى موحّدًا، وغيره يُشرِك ويلهو، ثم بعد هذا كله يستوي هو والموحّد! هل تتصور أن من حكمة الله أن يساوي هذا المشرِك بالمؤمن

---

[1] (الرحمن:٦٠)

[2] (الروم:١٠)

[3] (المائدة:٧٣)

[4] (المائدة:١١٨)

الموحّد؟! الجواب: لا! ولا بد أن تتيقّن من هذا؛ لأن هذا يخالف حكمة الله، كيف يقول الله في كتابه: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} ثم تظن أنه سيأتي بحكم[1] جزائي يخالف ما أخبر به؟! لا تختلط عليكم الرحمة مع الحكمة، {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} أي: أن مغفرتك لن تصدر إلا من عزة وحكمة، فستغفر لهم –وأنت الحكيم– إذا استحقوا هذه المغفرة.

هل تبيّن لكم كيف يحصل الخلل هنا؟ الناس غالبًا يخلطون بين صفة الرحمة وصفة الحكمة لله ـ عز وجل ـ، الله ـ عز وجل ـ له الحكمة في خلق الخلق، وله الحكمة في الشرع، وله الحكمة في الجزاء، ثم يقول الناس: ولكن هذا –أي: من مات على الكفر– أحسَنَ للناس، وعمل أعمالًا خيرية! نقول: ماذا قال الله ـ عز وجل ـ؟ قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} ، { مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ}[2] أي: كل عمل صالح يتقرّبون به لكن على الشرك جعلناه هباءً منثورًا، وقد دعاك الله بكل الآيات إلى توحيده، فبما أنه دعاك إلى التوحيد وأنت لم تقبل هذا التوحيد سيصبح العدل الذي يوافق حكمته أن يُجازي الإنسان على تركه للتوحيد، وأما الفضل فهذا شأنه إلى الله، ووضع الله له شرطًا وهو أن تكون موحدًا، يقول الله –عز وجل– في الحديث القدسي: " يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا" –عندما تسمع كلمة "شيئًا" تشعر أن الأمر صعب؛ لأن معناه: ألّا يحصل لقلبك أي التفات لغيره أبدًا– "لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مغفرةً" [3]، فانظر إلى هذا الفضل يؤتيه الله ـ عز وجل ـ من يشاء بشرط ألّا يكون مشركًا.

فلا تخلطوا بين الرحمة والحكمة، ولا تنسوا كلام عيسى ـ عليه السلام ـ : {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}، لم يقل: أنت العزيز الرحيم، وإنما قال: {أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}، معناه: أن من ستغفر له من المؤكد أنه وافق حكمتك في مغفرته، وأتى بالشرط الواجب للمغفرة.

قال: **"فلا يسوّي سبحانه بين محسنٍ ومسيء، لا في الدنيا ولا في الآخرة"**.

قد يقول قائل: هناك محسنون في دينهم لكنهم متعبون وعندهم ضوائق. سنقول: من قال لك أن السعة في الدنيا دليل الرضا؟! "إذا أحب الله عبدًا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء"[4] لأنه يؤذيه، أتدري **ما دليل رضا الله عنك؟**

---

[1] (النساء:١١٦)

[2] (الفرقان:٢٣)

[3] رواه الترمذي في سننه/ في كتاب الدعوات/ باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده/ (٣٤٥٠)، وأخرجه الألباني في صحيح الترمذي (٣٤٥٠).

[4] رواه الترمذي في سننه/ كتاب الطب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم/ باب ما جاء في الحمية / (2036) وقال: حديث حسن غريب.

انشراح صدرك، وقبولك لأحكامه وحكمه وشرعه وجزائه، وأن يقع في قلبك أنت الرضا عن الله، فتُنادى فتكون أنت النفس المطمئنة الذي يقال لها: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} ، يعيش حياته حتى لو تقلّب في الذنوب والمعاصي والأخطاء لكنه دائم التوبة والأَوْبة والإنابة إلى ربه والاستغفار، وأهم شيء في هذا الأمر هو انشراح صدره ورضاه عن ربه، واسأل نفسك دائمًا: هل أنت راضٍ عن ربك؟ أم في قلبك شيء من السخط؟ هل ترى حكمه في كذا لا يناسبك؟ وحكمه في هذا لا يناسبك؟ وأمره في هذا لا يناسبك؟ هذا الاختبار يُعرَض علينا ليلًا ونهارًا: أتؤمن أن الله حكيم؟ ولذلك **اختبار اسم الله (الحكيم) من أصعب الاختبارات، ونتيجة الاختبار: إذا رضيت فلك الرضا**، وإذا رضيت تكون تلك النفس المطمئنة التي تُنادى: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}. فما تتصوروا إلى أي درجة دخولنا طوال الوقت في اختبار الرضا عن أقداره وأحكامه وخلقه وجزائه ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال : **"قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} وهذا من كمال عدله، وهو[2] مناسب غاية المناسبة لحكمة أحكم الحاكمين سبحانه."** اهـ.

نحن فقط مررنا مرورًا عابرًا، وسيأتي الكلام ـ إن شاء الله ـ بالتفصيل، سنعود ونقرأ نفس الكلام لكن سنقسمه بأدلته من القرآن.

[1] (الفجر:٢٨)

[2] (الجاثية:٢١)

اللقاء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثالث من لقاءات (فقه الأسماء الحسنى)، ولازلنا نتكلم عن اسم (الحكيم)، وقد مرّت معنا طريقة الدراسة في دورة هذا العام:

أولًا: سنفهم معنى الاسم على وجه العموم. ومما يساعدنا على ذلك: قراءة رسائل في معاني الأسماء متوسطة -لا مختصرة ولا طويلة-، مثل: كتاب (فقه الأسماء الحسنى) للشيخ عبدالرزاق البدر -حفظه الله-.

ثانيًا: بعد أن نقرأ معنى الاسم كاملًا: نبدأ نخرج من مفاهيمه إلى القرآن، فالشيخ قام بعملية الدراسة للقرآن وجمع هذه الجمل، وأنتِ سترجعين مرة أخرى إلى شواهدها من القرآن. لماذا نفعل هذا الفعل؟

لأننا نتعبد الله بكلامه، فالمطلوب منك طوال الوقت وأنت تتدبر القرآن أن ترى آثار كمال صفاته في كتابه، والحقيقة أن آثار كمال صفات الله موجودة في كتابه كله، لكننا لا نستوعب آثار الكمال هذه نتيجة عدم ردّ المفاهيم إلى نصوصها.

سنضرب مثالًا حتى تتصوّروا المسألة: -المسألة ليست بالعسيرة، ومع التمرين تصبح يسيرة إن شاء الله-

الشيخ عندما بدأ في اسم الله (الحكيم) تكلّم عن أمرين:

١. تكلم عن صفة الحُكم لله.

٢. وتكلم عن صفة الحكمة له سبحانه وتعالى.

والذي سنُظهره أكثر في تجربتنا هو (الحِكمة)؛ لأنها أكثر خفاءً في دلالتها، أما الحُكم فيأتي صريحًا في كتاب الله. سنقرأ جملة عن الحِكمة من الكتاب، وسنفكر: ماذا سنفعل؟ كيف سنبحث في كتاب الله؟ سنبدأ بتفكيكها والبحث عن دلالاتها في القرآن؛ **لأننا على يقين أن أهل السنة والجماعة لم يكتبوا مفاهيمهم إلا بأدلة من القرآن**، لكن الشيخ هنا اختصر، وأنت ستُخرِجين الأدلة.

يقول الشيخ -حفظه الله-: **"أمّا كمال الحكمة: فبثبوت الحكمة له سبحانه في خلقه، وفي أمره، وشرعه، حيث يضع الأشياء مواضعها، ويُنزِلها منازلها، ولا يتوجَّه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال"**.

ما معنى الحِكمة؟ أن **"يضع الأشياء مواضعها، ويُنزِلها منازلها"**، والحكيم لكمال حكمته **"لا يتوجَّه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال"**، أي: مَن كان عاقلًا تامّ العقل، ويُقبَل منه كلامه، ستجد أنه لا يتوجَّه إلى الحكيم سبحانه وتعالى بسؤال، ولا يقدح في حكمته بمقال، بل هذا من شأن السفهاء والناقصين.

وحكمته سبحانه وتعالى تتجلّى في:

١. في خلقه.

٢. وفي أمره.

٣. وفي شرعه.

سيبدأ الشيخ الآن يُفَصِّل؛ فهو يريد أن يُظهِر لنا حكمة الله في خَلقه، وبعد ذلك حكمته في أمره، وبعد ذلك حكمته في شرعه، لكن اليوم ستكون المناقشة حول: حكمته سبحانه وتعالى في خلقه:

قال: **"أمَّا الحكمة في الخلق فإنه سبحانه خلق الخلق بالحق، ومشتملًا على الحق، وكان نهايته وغايته الحق، أوجده بأحسن نظام، ورتَّبه بأكمل إتقان، وأعطى كل مخلوق خلْقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خِلقته وهيئته اللائقة به، بحيث لا يُرى فيه شيءٌ من التفاوت والخلل {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}[١] ولو اجتمعت عقول الخلق على أن يقترحوا مثلًا أو أحسن من هذه الموجودات لم يقدروا على ذلك {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[٢].**

وإذا كان من المتقرِّر أن الله سبحانه له الكمال الذي لا يحيط به العِباد، وأنه ما مِن كمال تفرضه الأذهان ويقدّره المقدّرون إلا والله أعظم من ذلك وأجلّ؛ فإن أفعاله وجميع ما أوصله إلى الخلق أكمل الأمور وأحسنها وأنظمها وأتقنها، فالفعل يتبع في كماله وحُسنِهِ فاعِلَهُ، والتدبير منسوب إلى مدبّره، والله تعالى كما لا يشبهه أحدٌ في صفاته في العَظَمة والحُسن والجمال، فكذلك لا يشبهه أحد في أفعاله".

---

[١] ( )(الملك:٣-٤)

[٢] () (النمل:٨٨)

بهذا يكون انتهى كلام الشيخ حول: الحكمة في الخلق.

نبدأ بأول جملة قالها، ثم نرى كيف سنتتبّع ذلك:

قال: "**أمَّا الحكمة في الخلق فإنه سبحانه خلق الخلق بالحق، ومشتملًا على الحق، وكان نهايته وغايته الحق**".

سنبحث عن هذا المفهوم من أجل أن نعرف ما معنى: "**خلق الخلق بالحق**"؟ وإلى ماذا تُشير هذه الكلمة؟

- سنبدأ بآية (٧٣) في سورة الأنعام، وسنبحث عن كلمة "الخلق" المتصلة "بالحق": قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}.

ما معنى الآية؟ ما دلالتها الظاهرة؟

يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ}، أي: أن الله يقرّر لك أنه خلق السموات والأرض بالحق.

الآن سأفكر: ما هو دليلي على أن الله خلق الخلق بالحق؟ وما دلالة الحق على مفهوم الحكمة؟

سنجيب على هذا بعد أن نجمع أكبر عدد من الآيات الدالّة على نفس المعنى، ونفهمها كلها.

- قال تعالى في سورة يونس آية (٥): {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.

فيها تقرير: بأنه سبحانه {جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ} والغاية من ذلك: {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ} -"ذلك": اسم إشارة للشمس وللقمر وللحركة، -{إِلَّا بِالْحَقِّ}.

- ننتقل إلى سورة إبراهيم آية (١٩)، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}.

سنقول: الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بالحق، بدليل آية سورة إبراهيم التي تَقَرَّر فيها أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض بالحق.

وآية إبراهيم هذه فيها دلالة مهمّة أيضًا، وهي: أنه يجب عليك أن ترى؛ فقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ} معناه: أنه يجب عليك أن تُلاحظ وأن تفكر في هذا المفهوم العظيم: أن الله خلق السماوات والأرض بالحق.

الله سبحانه وتعالى ما خلق مخلوقًا إلا بالحق، ولكي تفهم هذه الجملة، لابد أن تفهم: أنه لم يخلق مخلوقًا باطلًا. ومن المفترض عند البحث في القرآن عن (حكمة الله تعالى في خلقه) أن تأتي بهذين المفهومين؛ لأن كلمة "حق" تقابلها كلمة "باطل"، فتبحث:

١. عن أدلة تدل على أن الله خلق الخلق بالحق.

٢. وعن أدلة تنفي أن يكون هذا المخلوق خُلِق باطلًا.

وهذه هي النتيجة الأخيرة التي ستخرجين بها، بحيث لا يكون اسم الحكيم درسًا سمعتِه في عشرين دقيقة، أو في ساعة، أو في ساعتين، ثم بعد ذلك تقرئين القرآن ولا تجدين آثارًا لهذا الاسم إلا في الآيات التي يُذكر فيها اسم (الحكيم)! والصحيح أنك ستجدين آثار حكمته سبحانه وتعالى في القرآن كله، ومن ذلك كل موطن سيذكر الله فيه أنه خلق المخلوقات بالحق، سيكون هذا دليل لديك على أنه حكيم؛ لأنه خلق المخلوقات بالحق وليس بالباطل، خلقها جِدًّا وليس هزلًا، فهو حكيم يضع الأمور موضعها.

لا زال أمامنا أدلة طويلة سنمرّ عليها كلها؛ لتتصوَّروا كيف أن هذا البحث سيعينكم وقت التدبر، فتقرأ وتجد أن هذا المخلوق خُلِق بالحق، فيرتبط هذا مباشرة بإيمانك أنه سبحانه وتعالى حكيم، وهذه هي الطريقة التي ستثبّت في قلبك الإيمان بهذا الاسم.

- نذهب الآن لسورة الحجر آية (٨٥): قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}.

يعني: السماء خُلِقت بالحق. الأرض خُلِقت بالحق. ما بين السماء والأرض خُلِق بالحق.

- ومثلها آية (٣) في سورة النحل: قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

نفس الدلالة: أن الله خلق السماوات والأرض بالحق.

*سيُفِيدنا جدًّا أن نفكر في الجمل التي بعدها، ولكن مقصودي الآن: أن نمرّ على الآيات، ونرى كم تكرر في القرآن الخبر عن أن المخلوقات خُلِقت بالحق؛ لأن الإشكال هو: أن هذه الكلمة لم تُناقش، لم نفهم ما معناها، وما وجه دلالتها.

- آية (٤٤) في سورة العنكبوت: قال تعالى: {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ}.

لاحظوا نهاية الآية: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ}، لابد أن نفهم أن خلق السماوات والأرض بالحق هو آيةٌ للمؤمنين، آيةٌ يجب عليك أن تفهمها، وأن تتفكر فيها، ولذلك سنجد أنه جاء على لسان المؤمنين: نفي أن يُخلَق شيء بالباطل، فقالوا: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[1]؛ لأنهم آمنوا أنه لم يُخلَق شيء إلا لحكمة وبالحكمة وبالحق.

- ومثلها آية (٨) في سورة الروم: قال تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}.

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا} تُشبِه {أَلَمْ تَرَ} التي فيها الأمر بالتفكّر، وهنا سنتفكّر في أي شيء؟ سنتفكّر في أنفسنا.

ثم أتت الجملة المقصودة: {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ}، إذًا: عليك أن تتفكّر؛ لأن هذه الدلائل ما وُجِدت إلا من أجل أن يظهر لك الحق، وتظهر لك الحكمة فيها.

- ومثلها آية (٥) في سورة الزمر: قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}.

أخبر سبحانه وتعالى أنه {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ}، ثم أخبر بشيء من الأفعال المتعلقة بهذا، فقال: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} وهذا كله له زمن، لكنه خُلِق بالحق، مشتملًا على الحق؛ من أجل أن تصل أنت إلى الحق.

- ومثلها آية (٣٩-٣٨) في سورة الدخان: قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

وهنا فهمنا المعنيين المتقابلَين:

[1] () (آل عمران:١٩١)

← ففي آية (٣٨): نفى سبحانه أن يكون خلق السماوات والأرض وما بينهما لعبًا. (نفي اللعب)

← ثم أثبت سبحانه وتعالى في آية (٣٩): أنه خلقهما بالحق. (إثبات الحق)

فالسماوات والأرض ما خُلِقتا هكذا عَبَثًا ولعبًا! وإنما خُلِقتا بالحق، وللحق، مشتملتان على الحق.

ومن هنا سنبدأ نبحث عن المعنى الآخر، فنقول:

- كل مرة سيأتي في القرآن نفي اللعب والباطل فإن ذلك سيدل في المقابل على حكمة الله.
- كل مرة يأتي فيها أن هذه المخلوقات خُلِقت "بالحق" إذًا أكيد سيظهر لي هنا آثار اسم الحكيم؛ لأن الله حكيم فمخلوقاته كلها لها حكمة، خلقها إظهارًا الحق، وإثباتًا لكمال صفاته، و**الحق هو أن تعلم أنه لا إله إلا هو**.

فالسماء على اتّساعها، والأرض على الخيرات التي فيها، وما بين السماء والأرض من مخلوقات، وما في الأرض من مخلوقات، كل ذلك يشهد بالحق، كل ذلك يشهد أن الله كامل الصفات، وأنه هو الذي يستحق أن يكون الإله الذي يُعبد، **فكل المخلوقات التي أمامك بمثابة معرض عُرِض عليك، لم يُعرَض هذا المعرض للتسلية!! وإنما عُرِض هذا المعرض الطويل العريض الذي تفتح عينيك عليه وتُغمِضها عليه من أجل أن تُثبِت الحق الذي فيه**. أين نحن من التفكّر في هذا؟!

- الآن سندرس ثلاث آيات من سورة الجاثية (٢١-٢٢-٢٣)، وسنرى دلالتها: قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}.

ما الرابط بين الآيات الثلاثة؟

سنفهم آية (٢١) مع آية (٢٣) لكي تسهل المسألة:

في آية (٢١): أتى الخبر عن قوم بقوا طوال عمرهم مجترحين للسيئات -والاجتراح فيه زيادة على معنى الاقتراف؛ لأن الاجتراح هو: اقتراف باستهانة مع استمرار-.

ثم قيل لك في آية (٢٣): {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}.

ما هي العلاقة بين القوم الذين اجترحوا السيئات، وبين مَن اتخذوا إلههم هواهم؟ هم أنفسهم! ولكن قيل في آية (٢١): لا تظن أننا سنُساوي بين مَن اجترح السيئات، وبين مَن عمل الصالحات؛ لأن هذا ينافي حكمة الله الحكيم، من المستحيل أن يساوي بينهم سواءً في محياهم أو مماتهم!

ولكي يظهر الأمر أكثر قيل لك في آية (٢٢): {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}، بمعنى: هل يمكن أن تتصوَّر أن الحكيم الذي خلق السماوات والأرض بالحق، وظهر في السماوات والأرض كمال حكمته، أن يجعلهم سواءً في محياهم ومماتهم؟! بالطبع لا! لا يمكن أن يساوي بين عباده الذين عبدوه وألّهوه، وبين مَن اتخذوا إلههم هواهم!

وبهذا المعنى ستجدين آثار اسم (الحكيم) عند قراءة القرآن.

كثير ممن يقرأ القرآن وتأتيه الدلالات يكون واحدًا من اثنين:

- إما أن يسأل: ما هي الدلالة؟ وبعد ذلك ينسى، ولا يبحث!
- أو أنه أصلًا لا يأتي في ذهنه سؤال: "ما العلاقة؟".

فهمنا الآن أنه كلما تأتي كلمة "خلق السموات والأرض" مع كلمة "الحق"، إذًا هناك إشارة واضحة إلى وجود كلام عن الحكمة. ثم وجدنا كيف أن الله يستدل على استحالة أن يُساوي بين مَن اجترح السيئات وبين مَن آمَن، وبين مَن اتخذ إلهه هواه وبين مَن اتخذ اللهَ إلهًا؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض بالحق.

- نذهب الآن إلى آواخر آل عمران آية (١٩٠-١٩١): قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}

ظهر هنا موقف أولي الألباب، وسيتبيَّن لنا من دعائهم ما معنى "الحق": هم قالوا {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا}، ثم جاءت الفاء في قولهم: {فَقِنَا}؛ بمعنى: لأننا على يقين بأن هذه المخلوقات خُلِقت بالحق، ولم يُخلَق هذا الخلق باطلًا -أي: خالٍ من الحكمة-؛ فمن المؤكد أن هناك جزاء، ولذلك قالوا مباشرة: {فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

هم علموا أن كل هذا الخلق فيه الإشارة الظاهرة إلى كمال حكمة الله، كله يدل على الانتظام، فهموا أن الله حكيم، وسيضع كل شيء في موضعه؛ لأنهم رأوا أن كل الدنيا تشهد على أن كل شيء وُضِع في موضعه، حتى أنت يا مخلوق! عينك وُضِعَت في موضعها، أذنك وُضِعَت في موضعها، كل شيء في موضعه.

علموا أن كل الخلق يشهد بالحق، والحق هو أن لا يُساوى بين الظالم والمظلوم، ولا يُساوى بين العابد لله والعابد لهواه، لا يستوي الصالح مع الطالح، ولا المطيع مع العاصي، لا يمكن ذلك! علموا أن لكلٍّ مُستَقَرٌّ مناسبٌ له، علموا أن أهل الطاعة موضعهم الجنة، وأهل المعصية موضعهم النار، ففزعوا مباشرةً طالبين من من الله أن يكون مستقرَّهم الجنة، وأن يُجَنَّبوا النار. هم دعوا بالنجاة من النار، وكأنهم دعوا الله أن يعطيهم أسباب النجاة منها.

الآن أريد أن أربط مسألة {مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا} بمسألة (الحكمة):

{مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا} معناها: أن كل المخلوقات تشهد أن كل وُضِع شيء في موضعه.

وأنت ترى أن كل وُضِع شيء في موضعه، إلا الخلق! فترى هذا مرفوعٌ عند الناس، وهو عند الله لا شيء! وهذا له مكانه وكرامة عند الناس، وليس له كرامة عند الله! هذا {مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ} [1] ، وهو نبي من الأنبياء!

إذًا: الخلق فقط هم الذين لا تظهر لنا نهايتهم، لكننا نعتقد أن كل شيء موضوع في موضعه.

متى ستظهر مواضع الخلق؟ مواضع الخلق لن تظهر هنا، بل ستظهر هناك، وهذا هو الاختبار!

لا بد أن نعرف أننا في اختبار، ولسنا في وضع نتائج، وهناك فقط كل واحد سيأخذ مكانه، ولن يأخذ موضعه النهائي إلا هناك، ومن أجل هذا الفهم سأل أولو الألباب اللهَ الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها: أن يضعهم بعيدًا عن النار؛ بأن يُسَبِّب لهم أسبابًا تبعدهم عنها.

وهذا هو ما قرأناه في سورة الجاثية: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ}، مستحيل أن يكونوا سواءً في محياهم ومماتهم؛ لأن الله خلق السماوات والأرض بالحق، أي: أنه وضع الأشياء في مواضعها، فمن المؤكد أنه بعدما ينتهي اختبارهم سيضعهم مواضعهم، سيضع كل واحد على حسب نتيجة اختباره في مكانه المناسب.

[1] (الزخرف:٥٢)

بهذا يكون قد اتّضح ما معنى "بالحق"، وما دلالة خلق السماوات والأرض بالحق على هذا المعنى.

عليكم الآن أن تبحثوا عن "لعبًا" و"باطلًا".

جزاكم الله خيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اللقاء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الرابع في سلسلة الكلام حول فقه الأسماء الحسنى في دورتنا لعام ١٤٣٣هـ، أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعلها دورةً مباركة، وأن يجعل علمنا هذا سبيلاً لمرضاته وأن يجعل إيماننا بأسمائه وصفاته سببًا لزيادة إيماننا، خصوصًا ونحن ندخل على هذا الشهر العظيم "شهر القرآن"، فكان من الواجب أن نتعلَّم عن الله، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله، فنرى آثار هذا كله ونحن نقرأ القرآن.

كنا قد اتَّفقنا أن طريقتنا هذه السنة ستكون تشبه طريقة السنة الماضية، ولكن بفرق بسيط وهي أننا قرأنا معنى اسم الحكيم كله ثم بدأنا نبحث عن هذه المعاني في القرآن.

بدأنا في الكلام حول اسم الله الحكيم، وعرفنا أن حكمة الله تتجلَّى في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: في خلقه.

الأمر الثاني: في أمره.

الأمر الثالث: في شرعه.

ويمكن الكلام حول الحكمة في جزائه سبحانه وتعالى.

بدأنا في اللقاء الماضي نفهم معنى أن الله عزَّ وجلَّ له الحكمة البالغة في كل خلقه، فبدأنا بالحكمة من الخلق أولاً.

ما معنى الحكمة؟ وضْع الأمور مواضعها، فإنه سبحانه خلق الخلق بالحق. ما معنى "بالحق"؟ أي: أن خلق السموات والأرض، والليل والنَّهار يُكوَّر بعضه على بعض ويتكرر هذا المشهد، لكنه وُجِد وكُرِّر بالحق. وللتقريب أكثر: سنقول: وُجِد وكُرِّر من أجل الحق. ما دلالة هذه الباء في كلمة "بالحق"؟ دعوني أقول أنها الباء السببيَّة، فأقرِّب المعنى، ونقول: أي: وُجِدوا بسبب الحق. أقرب أكثر: وُجِدوا ملابسةً للحق، ووُجِدوا لإظهار الحق، فأنت الآن لو كنت يقظًا –واليقظة شرط– ماذا سيبيّن لك تكرار مشهد الليل والنهار عليك؟ سيبيّن لك أن هذه الأشياء وُضِعت مواضعها من أجل أن تصل أنت إلى الحق.

وهذا يجعلنا نفهم مسألة ليست فلسفية، وإنما هي مسألة مركَّبة في العقول، لكن قليل مَن يلتفت إليها: العقلاء يفهمون أن للعقل منافذ. عقلك أين مكانه؟ مكانه في فؤادك، أما مخّك فهو المترجِم، مترجم لأي شيء؟ لمنافذ العقل، فالله عزَّ وجلَّ جعل لنا سمعًا وبصرًا وفؤادًا، والسمع والبصر عبارة عن منافذ للفؤاد، ومَن المترجِم؟ مخّك، قال تعالى: {لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا}[1] . هل تعرفون ما معنى العقل؟ أي الذي يعقلك، بماذا يربطون الخيل أو الإبل؟ يربطونها بعقال، ماذا يفعلون بالعقال؟ يشدُّونه لكي يمنعوها من أن تتصرَّف تصرُّفًا لا يرضونه. إذًا ما معنى أنك تعقل؟ أي: أنك تشُدَّ نفسك، ولا تتصرَّف تصرُّفًا غير صحيح. عقلك يعقلُك ويُلجِمُك، وهذه المنافذ لو كانت يقظة ماذا ستفعل بك؟ ستدخل عليها مشاهدات، وهذه المشاهدات عبارة عن فكرة، و**الفكرة كلما تكرّرت تقرَّرت إلى أن تصل الفكرة إلى درجة اليقين**.

كيف تصل الأفكار إلى درجة اليقين؟ بالتكرار.

الإنسان عندما يرى السموات والأرض بتكرار لنفس المشهد، ويرى الشمس والقمر يتداولان بنفس الأمر، ماذا يعقب هذا لمن كان بصيرًا؟ سيعقبه اليقين، لكن متى؟ إذا تفكَّر. لكن عندما تُعامَل هذه الأمور بأسلوب الإلف والعادة فإن العبد سيغفل عن أن كل شيء حوله ناطق، فالشمس تقول له: أنا لا أتحول من المشرق إلى المغرب بنفس الطريقة وبنفس النظام لأني أستطيع ذلك، وإنما ورائي من هو قائمٌ علي! والقمر يقول: أنا لا أتحول من هلال مولود إلى بدرٍ كامل، ثم إلى الموت مرة أخرى فأعود هلالًا إلا وهناك من يبدِّل حالي! والسماء تنطق قائلةً بالحق: أنا لا أكون موجودة بغير عمد، ولا أسقط على الأرض إلا وهناك من يمسكني! والأرض تنطق قائلةً بالحق، شاهدةً على كمال الله: ذُلِّلت لك، وسرتَ عليّ كما تريد؛ لأن هناك من ذلّلني! والفلك تجري في البحر والماء يدفعها، فتُحفظ على سطحه، والهواء يحرّكها فتسير ولا تظلّ راكدة!

كل شيء حولنا ينطقُ بالحق لمن كان له سمع، لمن كان له بصر، لمن كان له فؤاد يقِظ، كل شيء ينطق بالحق دلالةً على الحق، وكل شيء وُضِع في موضعه ليدلّك على الحق، فالله عزَّ وجلَّ ما جعل هذا المعرض يتكرر عليك لتكون غافلاً عنه! وإنما كُرِّر عرْضه عليك لتعترف بالحق.

هل اتضّح لكم ما معنى أن السموات والأرض خُلقتا بالحق؟ أنت أُمِرت أن تعرف أن هذا الخلق كله خُلِق بالحق، وهو مشتملٌ على الحق.

سأشرح الجملة الثانية –جملة: كل المخلوقات مشتملة على الحق–، ربما توصلانكم كِلتا الجملتان إلى المعنى:

---

[1] (الحج:٤٦)

الله عزَّ وجلَّ خلق كل المخلوقات بالحق، وكل المخلوقات مشتملة على الحق، وقولنا "بالحق" أي: أن كل المخلوقات شاهدة لك بالحق.

ما هو أحقّ الحق؟ أن الله كامل الصفات، أنه حيّ، أنه قيوم، أنه عليّ، أنه عظيم، أنه سبحانه وتعالى الذي يستحق التأليه، هذا هو الحق الذي تشهد به كل المخلوقات، فلما وُجِدت السموات والأرض ما وُجِدتا باطلاً بمجرد الصدفة، وإنما وُجِدتا للشهادة على الحق، أترى كيف أن الشمس معتدلة، تسير مسيرها لا تخرج عنه؟ هذا يدلّك على أن هناك مَن يسيّرها.

إذا فهمت هذا شهدت لك هذه الأشياء بالحق، وكان الواجب عليك أن تشهد بالحق، ولهذا الله عزَّ وجلَّ يقول عن الذين آمنوا: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُون} ، بماذا وُصِف المؤمنون؟ وُصِفوا بأنهم شَهِدوا بالحق، أتدري ما الحق؟ الحق: أحد أسماء شهادة "لا إله إلا الله"، فيقول سبحانه وتعالى: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُون} مَن شهد بالحق: أي: شهِد بـ"لا إله إلا الله"، وشهادته بالحق كانت من وراء ما رأى من السموات والأرض وما بينهما اللتان خُلِقتا بالحق، واشتملتا على الحق.

الآن سنفهم أكثر معنى كونها "مشتملة على الحق":

نذهب إلى سورة الروم ونبدأ القراءة من الآية السادسة عشر: قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} [٢] .

الله عزَّ وجلَّ يتكلَّم في أول السياق –في الآية السادسة عشر– عن الذين كفروا وكذَّبوا بالآيات التي وُجِدت أصلاً لإظهار الحق، ومن ثم إذا كذَّبوا بآيات الله سيكذّبون بلقاء الآخرة.

وأنت قيل لك في الآية السابعة عشر والثامنة عشر ماذا ستفعل: سبِّح واحمِد، وكُن من الشاكرين الحامدين. لماذا تُسبِّح وتحمد؟ لِما ترى من الآيات.

نبدأ من الآية الثامنة عشر، قال تعالى: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} [١] .

---

[١] (الزخرف:٨٦)

[٢] (الروم:١٦-١٨)

الآن فكِّروا! هذه الأشياء خُلِقت بالحق، مشتملة على الحق.

ما هو الحق؟ أن تعترف في النهاية بألوهية الله.

← الله عزَّ وجلَّ له الحمد في السموات والأرض؛ لأنه يستحق الحمد.

← ولا بد أنك ستلقاه

وتأمل فقط في إخراجه للحي من الميت، وإخراجه الميت من الحي، ونموذج ذلك تجده في الأرض: من إحيائه الأرض بعد موتها، ألا يدلّك هذا على الحق؟ الحق الذي سيدلّك عليه ذكره الله في قوله: {وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}[1]، فأنت من المفترض ألا تأتيك لحظة شك في أن الله عزَّ وجلَّ سيعيدك في اليوم الآخر، لماذا؟ لأن كل نبتة في الأرض تشهد على هذا الحق، كل نبتة تقول لك: كنتُ نواة ميِّتةً لا حياة فيَّ، فأُلقيت في هذه الأرض الميِّتة، ووقع عليَّ هذا الماء الميِّت فأحياني الله! فكما أن هذه الأموات المجتمِعة –من التربة، والأرض، والحبّة، والماء– لما اجتمعت أحياها الله، فكذلك أنت ستكون رميمًا في تربة، وسينزل عليك مطر كمَنِيّ الرجال ، فيحييك الله {وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}[2].

إذًا: كل نبتة في الأرض تشهد لك بالحق، والحق هنا هو البعث، كما أتى في السِّياق: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ}[3].

حق الله عزَّ وجلَّ عليك: التسبيح والحمد، وانظر: أليس هو الذي يُخرِج الحي من الميت، ويُخرِج الميت من الحي، ويحيي الأرض بعد موتها؟ فكّرْ في هذا الذي حولك، ماذا تقول لنفسك عندما يتكرر عليك مثل هذا المنظر: تخرج فتجد هذه الأرض مليئة بالنباتات التي لم تكن؟ ماذا تقول لنفسك عن عدد هذا الشجر الذي تراه بعينيك وأنت مستيقظ –لست بغافل–؟

الغافل الذي يعيش في العادة والإلف لن يرى شيئًا من هذا، نحن نريد شخصًا مستيقظًا، كما سيأتي الوصف في الآيات: {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[4] ، فإذا كنّت متيقّظًا فعلى قدر الشجر الذي تراه أُحيي بعد الموت سيكون يقينك، وتخيَّل

---

[1] (الروم:١٨-١٩)

[2] ذكره الحاكم في المستدرك (٥/٦٩٨)، صحيح على شرط الشيخين، وهذا نصه : "... قالَ: فيرسلُ اللَّهُ ماءً مِن تحتِ العرشِ كمَنِيِّ الرِّجالِ، فتَنبتُ لُحمانُهُم وجُثمانُهُم من ذلِكَ الماءِ، كما ينبتُ الأرضُ منَ الثَّرى..." الحديث.

[3] (الروم:٢١)

[4] (الروم:٢٤)

عندما يتكرر عليك هذا المنظر، وأنت في كل مرة تعيد على نفسك نفس المفهوم، أيُّ استقرار لأمر الدار الآخرة والبعث سيكون في قلبك؟! سيكون اليقين مستقرًّا عندك مثل الجبال!

كم مرة مررت على رصيف؟ هل تعرفون كيف يُبنى الرصيف؟ الرصيف هذا فيه إسمنت، والإسمنت أقوى ما اخترعه الإنسان، يصبُّون الإسمنت ثم يضعون عليه البلاط الذي تراه، ثم ماذا يخرج من هذا الإسمنت ومن البلاط؟ تخرج نبتة!! كيف تشقُّ هذا كله؟! أنت لكي تشق هذا المكان ستأتي بآلة للحفر، وسيتطلّب هذا منك جهدًا كبيرًا لتصل إلى الداخل، وقد لا تتمكن أيضًا من شقّه مع هذا كله! لكن يشقُّه الملك، الذي سيشقّ الأرض، وسيُخرج هذه الأجساد. أليست هذه آية؟ كم مرة رأيتها؟ المفترض بعدد هذه المرات وتفكيرك نفس هذا التفكير تصل إلى اليقين أنه من المستحيل أن يمرّ بخاطري أنني لن أخرج يوم القيامة، سيُخرجني الله، وهو على كل شيء قدير، {وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}.

كل شجرة تشهد لك بهذا الحق، وستسير بنفس هذا السير في كل شيء، وأنت تقرأ في القرآن سيُقال لك: هذا يشهد لك بكذا، وهذا يشهد لك بكذا، بحيث تجتمع كل أركان الإيمان في قلبك، وأعظم أركان الإيمان: معرفة الله ثم تأليهه وتعظيمه ومحبته، هذا هو الحق الذي من أجله خُلِقت السموات والأرض وما بينهما.

نُكمل الآيات: قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[1].

سورة الروم تحتاج إلى دراسة، كثيرًا ما يُكرّر فيها قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ...}، نحتاج أن نَعُدّ كم مرة كُرِّر فيها هذا اللفظ؟ وبماذا خُتِمت هذه الآيات؟ ما علاقة آخر السورة بمطلعها؟ **سورة الروم وسورة النحل من السُّور التي لا بد من دراستها بالتفصيل في هذا الوقت بالذات؛ لأنك أنت الآن تحتاج لشواهد قوية تشهد لك على أن ما معك حق، فالحق مستقر في قلبك، نعم! لا ننكر ذلك! لكن لا تترك هذا الحق مهجورًا، فيبلى في قلبك!**

قد يأتيك شخص وأنت غافل فيقول لك: ما الذي أدراك أن يوم القيامة سيكون؟ من الذي قال لك هذا؟ مثل هذا السهم الذي يُرسل إليك وأنت غير مستعد له، ولم تكن قد تأمَّلت فيما حولك من الآيات الدالة على الحق، قد يصيب مقتلًا فيك. مَن الذي يُخرج هذا السهم المسموم من القلب إذا لم تتحصَّن منه؟

[1] (الروم: ٢٠-٢١)

ضروري جدًّا أن تهتم بهذا النوع من النصوص فتبرزه لنفسك، وأنا أعرف أن الإيمان بالله وبربوبيَّته مستقر بفضل الله، ولكن **مَن يضعف سلاحه يغلبه عدوُّه**، فأنت الآن من المفترض أن تتسلَّح وتستعد لمثل هذا الكلام.

الآن سندرس ما تدل عليه الآيات:

- سنبدأ بالآية الأولى: قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ}.

ما العلاقة بين التراب وبين كونك الآن بشرًا منتشرًا؟ أنت الآن بشرٌ منتشر ستعود إلى التراب، ثم يعيدك مرةً أخرى من هذا التراب، فكما انتشرت مرةً أولى ستنتشر مرةً أخرى.

المفسرون ذكروا كلامًا كثيرًا في هذا، لكني أقوله لكم الآن باختصار؛ لأن مقصودي هو أن أصل فقط إلى هذه الجملة: أن الله خلق الخلق بالحق، مشتملًا على الحق.

- قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} من أجل ماذا؟ {لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}.

الله عزَّ وجلَّ هو الذي جعل بين كل زوجين المودة والرحمة اللتان سببَّتا استمرار الحياة الزوجية.

العقل المجرَّد يقول: أن الاحتكاك بين شخصين إذا طال زمنه قلَّت مقابله الألفة، خصوصًا لو كان هناك منازعات، لكن أنت ترى من آيات الله عزَّ وجلَّ أن جعل الحياة الزوجية تستمر، ٢٠-٣٠-٤٠ سنة مستقرَّة مع كل ما فيها من الشد، ولكنها تعتبر بصورة مجملة حياة مستقرَّة، مع أن الأصل في الإنسان أنه كنود –أي: فيه بخل–، لا يحب أن يتدخَّل أحد فيه، ولا يحب أن يلاحظه أحد، ولا يحب أن يتابعه أحد، ولا يحب أن يرتبط به أحد ارتباطًا شديدًا، ومع ذلك تأتي الحياة الزوجية وتصبح آية من آيات الله أن تبقى هذه المودة والرحمة كل هذه السنين.

وهذا معناه أنك حينما تنظر إلى كل من استمرَّت حياتهم مستقرة ماذا سترى في استقرارهم؟ سترى آية، وتقول: أن **الذي أبقى هذه الحياة الزوجية مستمرة هو الله، والمودَّة والرحمة التي بينهما إنما هي من عطايا الله.**

وهذه الآية غالبًا ينسبها الناس لكل شيء إلا لله! فهناك مَن يقول: أن المرأة أليفة، ومسكينة، وطيّبة، وتستحمل. وهناك مَن يقول: أن الرجل صابر، وماذا سيفعل في أولاده إن طلق زوجته؟ وإلى آخر هذا الكلام، وكل هذا ضد تَفكُّرك في كون الحياة الزوجية آية، **فكم من البيوت وصلت إلى أن تُهَدّ ثم يلحمها الله، ويقرّبها الله، ويحفظها الله، فبقاؤها آية من آياته.**

وهذه الآية –التي هي آية بقاء البيت الزوجي– تبيّن لك أن مخلوقاته مشتملة على الحق، بمعنى: أن بقاء المودة والرحمة وبقاء البيوت دليل على أن الذي يبقيها هو الله، أما الإنسان لا يستطيع هو بنفسه أن يبقيها هذا العمر كله.

ولاحظي قوله تعالى في آخر الآية: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}، مَن الذي سيشعر أن هذه الآية مشتملةً على الحق؟ الذي يتفكر.

- ومثلها قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}

ما هي الآيات هنا؟

١. خلق السموات والأرض.

٢. اختلاف الألسن.

٣. اختلاف الألوان.

وهذا كله مرتبط بخلق السموات والأرض.

اختلاف الألوان ما معناه؟ ما معنى أن هذا اللون الذي نراه هو إشارة إلى الحق؟ نحن لا زلنا على نفس الكلام: أنه سبحانه خلق الخلق بالحق، مشتملًا على الحق. فلونك ولون جارك يدلّ على أن مخلوقاته مشتملةٌ على الحق، فقد يكون هؤلاء من نفس البيئة، ومن نفس العائلة، وقد تقترب أكثر فتراهم إخوانًا ثم ترى درجة بسيطة من الاختلاف، على ماذا يدلُّك هذا؟ يدلّك على الحق، وأن الله عز وجل يخلق ما يشاء ويختار، فليس من أجل أن هؤلاء من عائلة واحدة وهذه هي صبغتهم إذًا لابد أن تخرج أشكالهم هكذا! لا! ليس هكذا! بل الله يخلق ما يشاء ويختار، وابدأ من العائلة قبل أن تبدأ من البعيدين عن بعضهم، ابدأ من

[١] (الروم:٢٢)

العائلة الواحدة وانظر هل تأتي درجتهم واحدة؟ لا، لا تأتي درجتهم واحدة! سبحان الله! وحتى التوائم قد لا تأتي درجة ألوانهم واحدة، وكل هذا مشتمل على الحق.

بمعنى أنك **لو كنت ممن يرى الخلق بعين البصيرة لرأيت اختلاف الألوان يشهد لله بالحق**، فدرجة الاختلاف هذه بين الألوان تجعلك تؤمن أنه وحده الذي خلق، وهو وحده الذي يخلق ما يشاء ويختار. كم مرة مرّت عليك الألوان؟ عدد لا نهائي، كل مرة يُقال لك فيها: هذا التكرار الذي يحصل، هذا التكرار الذي أوصلك إلى حد الإلف، يجب أن تتبصّر فيه، وتراه آية، فالذي خلق هذا الأبيض الذي قد يُزعجك النظر إليه، وخلق هذا الأسود الذي قد لا يكون له في نفسك مكان، الذي خلق هذا وهذا هو الملك العظيم سبحانه وتعالى، الذي يخلق ما يشاء ويختار، أما ما يحصل في قلبك من انزعاج من الألوان التي لا تناسبك إنما هو من صدّ الشيطان لك عن التفكر.

ومن آياته سبحانه وتعالى ما هو أعجب من ذلك: عندما تسمع الألسنة واختلافها، ويقال لك: أن هناك أكثر من ثلاثة عشر ألف لغة حيَّة في العالم يتداولها الناس، من علَّمهم؟ أليس هذا سؤالًا يجب أن نسأله أنفسنا؟! هؤلاء العرب من علَّمهم؟ والعجم من علَّمهم؟ والفرس من علَّمهم؟ والهند من علَّمهم؟ والروم من علَّمهم؟ والأفارقة من علَّمهم؟ وهكذا، لا يوجد أحد اخترع لغته، كلهم علَّمهم الله.

فاختلاف الألسنة من آيات الله، هو الذي ألقى ذلك في نفوسهم، وعلَّمهم كيف يتكلَّمون، ثم استعملوها وأحيوها وكثَّروها وعاملوها، بل هو الذي وضع في فطرة الإنسان أن يُسمّي كل شيء، وعلَّمه ذلك، فهذا من عظيم آياته التي تدلَّك على الحق الذي وراءها.

غالب اللغات لا بد أن يكون فيها حرفًا مميزًا، حرفًا كثيرًا ما تسمعه في الكلام، إلا اللغة العربية فإنها لغة مستقيمة، لا تشعر الأذن بحرف معين يكثر سماعه فيها، وإنما تشعر باستقامتها، وهي لغة أهل الجنة التي اختارها الله لهم، ونحن لا نتمدّح في العربية لأننا عرب! وإنما هي اختيار الله، يخلق ما يشاء ويختار.

والمقصود: أنك عندما تسمع هذه النبرات المتباينة، التي تبين لك مباشرة أن هؤلاء من هنا وهؤلاء من هنا بسبب طريقة كلامهم، فإنه لا بد أن يتبادر إلى ذهنك هذه الأسئلة: من علَّمهم؟ من جعل ألسنتهم بهذه الصورة؟ من جعلك لا تستطيع أن تتحدث بلغتهم إلا عندما يعوجّ لسانك لهم؟ من فعل هذا؟ **الله**، ولهذا اختلاف الألسنة آية.

والتنافس على دراسة اللغة الآن هو تنافس للتفاخر بين الناس، وتُركت شهادة هذه اللغات المختلفة على أن الله هو الحق!! تُركت هذه الشهادة! وأصبح كل التفكير في نفس اللغة! ألسنا نعيش في تمام الغفلة والسُّبات؟! بالرغم من أننا نقرأ سورة الروم، فهي ليست بالأمر البعيد عنّا، أو أنها أمر لا نستطيعه.

أنا أسألك: هل تعلمين ماذا يجب عليك أن تفعلي عندما تسمعين الله عزَّ وجلَّ يقول: {وَمِنْ آيَاتِهِ...}؟ يجب عليك أن تتفكَّري عمليًّا، وأن تعايشي هذه الآية، فإذا حفظتها ودخلت إلى وجدانك، فإن تكرارها يكوِّن لك: أن الله هو الحق، يكوِّن لك الشعور والاعتقاد بأن الله حق؛ لأن هذه كلها شواهد على أن الله هو الحق، وأنه العظيم، وأنه الإله الذي يستحق أن يُعظَّم، وأن يُعبد سبحانه وتعالى.

- ثم قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[1] .

هذه هي النعمة العظيمة التي يعايشها الناس ثم يُناقضونها: {مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ}، وابتغاؤكم الفضل بالنهار.

هذه الآية فيها لفّ ونشْر: فالنوم للَّيل، وابتغاؤكم من فضله للنهار.

ثم من المؤكد أنه سيتبادر للذهن سؤال: لماذا {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}؟ هل قوله تعالى {لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} يناسب الليل أم النهار؟ المفترض أن السمع يناسبه الليل؛ لأن اللَّيل وقت للسكون، فيُسمع فيه من الضجيج ما لا يُسمع في النهار، والنهار من الطبيعي أن يكون فيه آية الإبصار. وهذا التفنُّن العجيب سيأتينا الكلام عنه في سورة النحل، وسيأتينا -إن شاء الله- أيضًا في بقية التدارس.

- ثم قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}[2] .

المقصود الآن: أن الله يقول لك: أن كل هذه الآيات ما وُجِدت إلا بالحق، وهي مشتملةٌ على الحق.

← وُجِدت بالحق: لكي يثبت في قلبك الحق، وهو:

---

[1] (الروم:٢٣)

[2] (الروم: ٢٤- ٢٦)

- كمال صفات الله عزَّ وجلَّ.
- ووجوب لقائه.
- وأنه سيحاسبك حسابًا بالعدل والفضل.

← وأنها كلها مشتملة على الحق: بمعنى أن كل الآيات يظهر فيها كمال صفات الله.

فهذه الآيات تجعلك تعتقد كمال صفات الله، وتعتقد لقاءه، وإذا فصَّلت كل آية ستجدها مشتملةً على شيء من الإشارات العظيمة لصفات الله عزَّ وجلَّ.

سأشرح الآن معنى "مشتملة" شرحًا نظريًّا، وبعد ذلك سيتم الشرح عمليًّا:

ما معنى "مشتملة"؟

"مشتملة" بمعنى: أنك عندما تأتي لكل آية من آيات الله عزَّ وجلَّ فتُفَتِّدها تجد فيها ما يُرشدك إلى كمال صفات الله، كالقدرة مثلًا، أو العلم، أو الحكمة، أو الإحسان، أو اللُّطف.

إذًا: نفس الآيات مشتملة على الحق، كل آية لو فصَّلتها ستدلُّك على شيء تفصيلي من صفات الله.

على كل حال: نحن لدينا جزءًا من كلام ابن القيم –رحمه الله–، نقلناه مختصرًا، سيشير لكم إلى هذه المسألة: كيف أن كل آية من آيات الله: خلقها الله عزَّ وجلَّ بالحق، لكي تدلّك على الحق، وجعلها مشتملةً على الحق، متضمِّنة له، فلو فصَّلتها ستجد أنها تشير إلى كمال صفات الله.

قال ابن القيم –رحمه الله–: **"من آيات الله عز وجل في خلق السموات والأرض وما بينهما وما في الأرض، فتأمّل خلق السماء، وارجِع البصر فيها كرّةً بعد كرّة، كيف تراها من أعظم الآيات في علوّها، وارتفاعها، وسعتها، وقرارها، ولا عَمَد تحتها، ولا علاقة فوقها، بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يُمسك السموات والأرض أن تزولا".**

يقول: "**فتأمّل خلق السماء، وارجِع البصر فيها كرّةً بعد كرّة، كيف تراها من أعظم الآيات في علوّها، وارتفاعها، وسعتها، وقرارها**" فهي مستقرة لا تهتزّ، مع أنها "**لا عَمَد تحتها**"، ولا يوجد ما يعلِّقها من فوقها، فإذا كانت هذه هي صفة

السماء المخلوقة فما صفة خالقها؟ ومن هنا سيظهر اشتمالها على الحق، فهي مشتملة على أن خالقها قادر، له كمال القدرة، عظيم، له كمال العظمة، قوي، بديع، وستعدِّين من أسماء الله وصفاته ما يناسب خلق هذه السماء. ضعي أسماء الله أمامك، ثم انظري إلى السماء، وقولي: ماذا يتجلَّى في السماء من الآيات؟ على ماذا تشتمل السماء في تفاصيلها من آيات؟

إذًا: الله خلق كل مخلوق لحكمة، كل مخلوق ينطق بالحق، كل مخلوق مشتملٌ على الحق، كل مخلوق يقول لك: الله عظيم، قادر، قوي، عليم، قيُّوم، له الملك. فما أن يقول الله عزَّ وجلَّ لكِ في القرآن: {وَمِنْ آيَاتِهِ...} قولي: ما أبرز الله آياته في القرآن إلا ليُخبرنا أنه موصوف بهذه الصفات، وهذا من حكمته أن جعل كل شيء ناطق بكمال صفاته، وما خلق مخلوقًا إلا لهذه الحكمة.

ثم إنك ستخرج بنتيجة مهمة وهي: أن **الله عزَّ وجلَّ ما خلق مخلوقًا إلا وله حكمة: إما الانتفاع أو الاستمتاع أو الاعتبار**، لا يوجد مخلوق إلا وجعل الله عزَّ وجلَّ فيه هذه الأمور أو بعضها.

وكمثال على ذلك: كانت الحكمة من النمل وبيوته إلى زمن قريب هي الاعتبار فقط، إلى أن جاء "حِمض النمليك" فأصبح هناك انتفاع، ثم أن مَن تأمّلها، وتأمّل حركتها، وتأمّل كيف أنها لو كذبت قتلوها، ستصبح له نوعًا من أنواع الاستمتاع؛ لِمَا يراه من هذا المخلوق العجيب. وإذا أردت الحقيقة فإن كل المخلوقات فيها الحكمة بأنواعها الثلاثة، إلا أن بيانها يختلف بحسب الأزمنة.

هذه هي النتيجة التي سنخرج بها، وكل هذا ذكرناه لكي نوضح كلمة واحدة وهي: "أن الله خلق الخلق بالحق، مشتملاً على الحق".

تابع كلام ابن القيم –رحمه الله–: "**ثم تأمّل استواءها واعتدالها، فلا صدْع فيها، ولا فَطْر، ولا شقّ، ولا أمْت، ولا عِوَج. ثم تأمّل ما وُضِعَت عليه من هذا اللون الذي هو من أحسن الألوان، وأشدّها موافقة للبصر، وتقوية له**".

الآن سيظهر الكلام حول لون السماء، وكيف أنه "**من أحسن الألوان، وأشدّها موافقة للبصر، وتقوية له**"، والمعنى: أنك لا تنزعج بالنظر إلى لونها، سبحان الله! ويذكر ابن القيم أن مِن طبِّهم: مَن وقع في الكلالة أو ضعف البصر، فلينظر إلى السماء الزرقاء، أو ينظر إلى الخُضرة ذات السواد، وكلها مخلوقاته سبحانه وتعالى.

قال: **"ثم تأمّل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبَطُل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم ويتصرّفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم؟! وكيف كانوا يتهنّون بالعيش مع فَقْد النور؟ ثم تأمّل الحكمة في غروبهما؛ فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع فَرْط الحاجة إلى السُّبات، وجموم الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المُعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء"**.

تحول الآن إلى آية أخرى غير السماء والأرض، تحول إلى آية الشمس والقمر، فقال: **"تأمّل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما"**، ماذا ستجد؟ ستجد أن دولة أُقِيمت بسبب طلوع الليل والنهار، فلو ما وُجِد الشمس والقمر لَمَا وُجِدت الأيام، ولو ما وُجِدت الأيام لَمَا وُجِدت الحياة؛ ولبَطُل أمر العالم كله! وهذا معنى: أن الدول تُقام بسببهما. فـ(الشمس والقمر) اللذان هما آلتي (الليل والنهار) يساويا: حياتك، والله عزَّ وجلَّ جعل وقت الشمس هو وقت المعائش، وجعل وقت القمر هو وقت الهدوء والسكون الذي أنت بحاجة إليه.

سنقرّر المسائل التي تناقشنا فيها حول هذه الجملة من الكتاب:

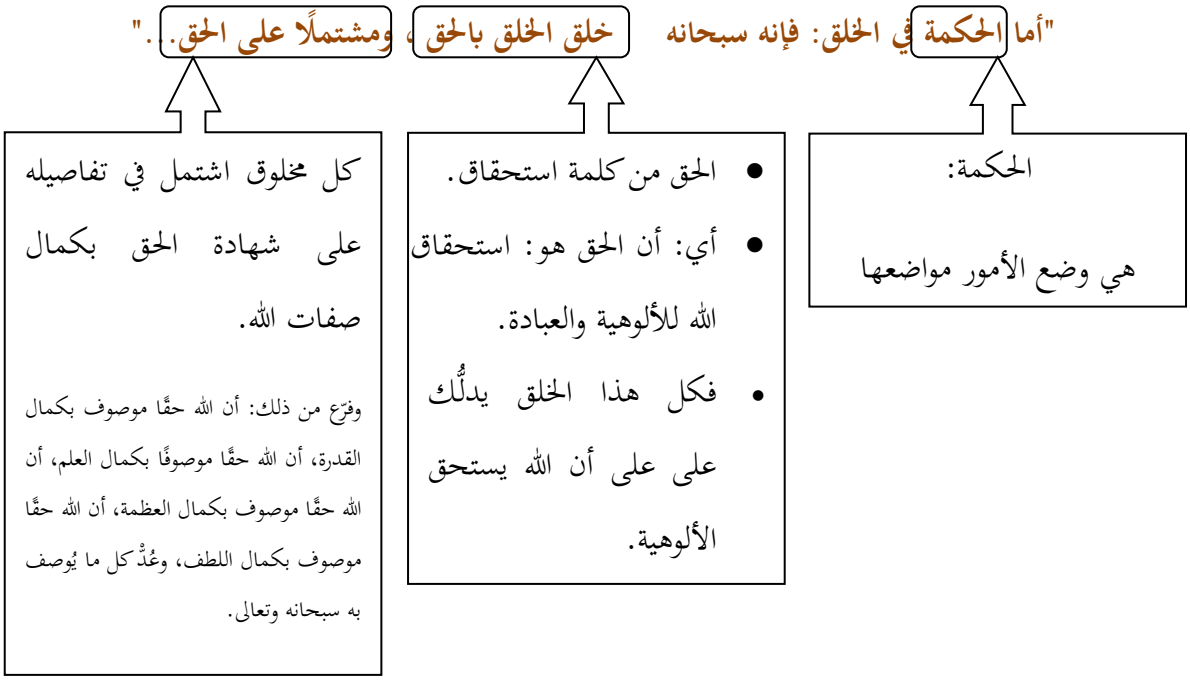

- وجدنا أن كلمة "بالحق" كُرِّرت في القرآن للمخلوقات، وفي كل مرة تقرأ فيها أن الله خلق المخلوقات بالحق، كأنه يقال لك: خُلقت هذه المخلوقات لتشهد لك أن الذي يستحق الألوهية ومن ثم العبادة هو الله، الذي يستحق أن يتَّجه قلبك وفؤادك وانكسارك وذلُّك له هو الله.

- كلَّما قرأت أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، وخلق كذا وكذا بالحق: ستفهم أن هذا إشارة إلى الحكمة.

- كلما قرأت قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ...} {لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ستفهم أن الله يخبرك أنه حكيم، ما جعل هذه الآية موجودة أمام عينيك إلا من أجل أن ترى آثار كمال صفات الله فيها:

  - ما خلق الليل والنهار إلا ليكون شاهدًا لك على كمال صفاته.
  - ما خلق الزوجين وجعل بينهم مودة إلا ليكون شاهدًا لك على كمال صفاته، ولطفه، ورحمته.
  - ما اختلفت هذه الألسن والألوان إلا ليكون شاهدًا لك على كمال قدرته، ومشيئته، واختياره سبحانه وتعالى.

وهكذا...

- كل المخلوقات عندما تُذكر لك في القرآن، ويُذكر لك أنها من آياته، معنى ذلك: أنها ما خُلِقت لعبًا ولا باطلًا، وإنما خُلقت لك آية، خُلِقت لك بالحق من أجل أن تراها، وتتأمّلها، وتتدبَّرها، وتقلِّبها، فتشهد لله أنه كامل الصفات.

هذه هي الحكمة من وجود كل هذه المخلوقات التي حولك، هذه الحكمة من خروج شجرة في صحراء! هذه الحكمة من وجود رياح عجيبة! ترى رياحًا تحرِّك لك ورق الشجر الذي على سطح الأرض، ثم تجد رياحًا تحرِّك لك الأوراق على أغصان الشجر دون أن تنزل إلى الأرض، ثم ترى بالأعلى رياحًا تَهُبّ على السحاب، سبحان الله! كيف تنزل الرياح من فوق إلى تحت ثم تحرِّك فقط ما على الأرض من أوراق، ولا تُحرك ما على الشجر! وأحيانًا نرى غبارًا ولكن في السماء، بقي فيها معلَّقًا، حمله الهواء، ولم ينزل على الناس، هذا كله ما حصل إلا بالحق؛ ليشهد لك أن الله على كل شيءٍ قدير.

وأهل جدة لهم سنتان يأتيهم السيل، ثم يتكلَّمون، ويطلقون ألسنتهم، ويقولون: استعدوا للسيل الثالث! ثم ماذا حدث؟! لم تأتهم ولا نقطة مطر؛ هذا لتعلم أن كل شيء بخلقه واختياره. وإذا قلتِ لإحداهم: اسألي الله اللطف، قولي: يا رب اسقِنا خيرًا.

تقول لك: لا! لا تصلُّوا حتى صلاة الاستسقاء! هذا هو الكلام الذي يقوله السفهاء الذين لا يعلمون أن الله حكيم، يفعل ما يشاء ويختار -نسأل الله أن يسقينا ويسقي المسلمين!-. والمقصود: أن الخلق إذا ما رأوا في مخلوقات الله الحقَّ الذي تشير إليه: فإنهم حينئذ لم يعلموا معنى اسم الله الحكيم، الذي خلق كل مخلوق، وأودع فيه دلالته على الحق، فكل المخلوقات خُلقت بالحق، مشتملة على الحق.

جزاكم الله خيرًا.

اللقاء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ربِّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلُل عُقدة من لساني يفقهوا قولي!

هذا هو لقاؤنا الخامس في نهاية الأسبوع الأول من الدورة الصيفية لعام ١٤٣٣هـ، نسأل الله عز وجل أن يجعل خاتمة هذا الأسبوع خاتمة مباركة، وأن تكون الأيام القادمة سببًا لزيادة إيماننا.

لا زلنا نتكلم عن هذا الاسم العظيم اسم (الحكيم)، وتفاصيل هذا الاسم تستحق منّا أن نقضي زمنًا طويلًا ونحن نناقشه.

بدأنا في الكلام حول الحكمة، فالله عز وجل حكيم، ومن حكمته أن يضع الأشياء مواضعها، وهذه الحكمة تظهر في:

- خلقه.
- وفي أمره.
- وفي شرعه وجزائه.

اتفقنا أن الله خلق المخلوقات بالحق، ومشتملةً على الحق، وكان نهايته وغايته الحق.

ناقشنا معنى "بالحق"، وتناقشنا أيضًا بالأمس في بداية الكلام عن معنى "مشتملة على الحق"، وسأشير سريعًا إلى معنى أن "غايته الحق"، ثم سأنتقل إلى أن الله سبحانه وتعالى "حكيم في شرعه"، و"حكيم في أمره". سنتكلم في نصف الأسبوع القادم – إن شاء الله– عن الحكمة في شرعه سبحانه وتعالى؛ لأبيّن لكم بعض نماذج الحكمة في شرعه، ثم سيأتينا الكلام عن حكمة الله في كل أمره.

الآن سنقرأ كلامًا لابن القيم فيه بيان لحكمة الله في المخلوقات.

ما معنى حكمة الله عز وجل في المخلوقات؟ معناها: أن كل مخلوق خُلق مشتملاً على الحق.

ما معنى "مشتملًا على الحق"؟ أي: أن الله عز وجل يُشهدك به أنه يستحق التأليه. فأنت إذا فكّكت هذا المخلوق وقلّبت النظر إليه سترى اشتماله على الشهادة بأن الله سبحانه يستحق التأليه.

ومعنى التأليه: التعظيم والمحبة، ودعاؤه سبحانه وتعالى –دعاء عبادة ودعاء مسألة–، بمعنى أنك تعظّم الله وتحبه، فتدعوه وترجوه.

ماذا يُراد منك؟ يُراد منك أن تنظر لجميع المخلوقات على أنها مشتملة على الحق؛ ليقع في قلبك تأليه الله. وكل واحد منّا له القدرة على هذا التفكير –تفكير تحليل المخلوقات– على حسب اجتهاده في أمرين:

- الأمر الأول: أن يتخصَّص في التعلّم عن أمور الدنيا، فيبدأ يكتشف أثناء تعلّمه أن هذه المخلوقات هي شواهد على الحق. فيقول: نعم هذا شاهد، وهذا شاهد..

مثلًا: الأطبّاء لهم أكبر النصيب في الشعور بأن الله عز وجل حكيم في وضْع الأشياء مواضعها، وكل شيء في جسم الإنسان يشهد بذلك، كل شيء في الجسم يشهد بكمال صفات الله، وأن الذي خلقه حكيم، لطيف، رؤوف، رحيم.

أو تكون ممّن يكثِر التفكير فتُثير المسائل، ولذلك يقول الله تعالى في سورة الواقعة: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ}[1] ، {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} . فكّروا في هذا كله ليظهر[2] لكم أن كل شيء مشتمل على الحق، وإما أن يكون هذا التفكير نتيجة التخصّص، أو نتيجة كثرة التفكير في مخلوقات الله.

- الأمر الثاني: أن تجد من يرشدك إلى هذا، فتقرأ –مثلًا– في كلام مَن له شي من العلم، وفكّر في المخلوقات، وفهم الحكمة من خلقها، وأنها مشتملة على الحق، فيظهر لك أن كل ما خلقه الله عز وجل اشتمل على الحق.

إذًا: الطريقان اللذان تصل بهما إلى معرفة أن كل مخلوقات الله عز وجل مشتملة على الحق هي:

- أن تتأمل أنت بنفسك، فتنجح في ذلك نتيجة تخصّصك وتفكيرك بعمق، تنجح في ذلك لأنك شديد الملاحظة.

مثلًا: تطبخين فتتساءلين: هذه النار من أين لي بها؟ من الغاز. هذا الغاز من أين لي به؟ وهذا الكبريت من أين لي به؟ وهكذا..، أو تذهبين للحرم المكي، وتجدين في المطاف أن الأرض باردة، فتسمعين من يقول: أن تحت هذا تكييف. وآخر يقول: أن هذا من الاختراعات. ثم تفهمين بعد ذلك أن هذا نوع من الرخام الذي خلقه الله، موجود كما هو في جبال في سويسرا، إلا أنهم يُدخِلون عليه بعض التحسينات التي تعكس حرارة الشمس، فيحوّلها إلى برودة تستمتع أنت بها أثناء سيرك في

[1] (الواقعة:٦٣)

[2] (الواقعة:٦٨)

الحرم –وهذا من فضل الله علينا، أسأل الله أن يرفع راية التوحيد! وأن يُقيم هذه الدولة ويُبقيها!–، فأنت لو كنت شديد الملاحظة ستبدأ بهذا التفكير! تفكر فتجد أن كل شيء يشهد لله بالحق، مشتملًا على الحق.

إذًا: الطريق الأول قضيتك أنت.

- الطريق الثاني: قضية مَن يعلّمك، والشرط هنا أن يكون هذا العالم عالِمًا بما يتكلم به، لا يلفّق الحقائق، ولا يلوي عنق النصوص ليخرّج بالمسائل، وإنما يتكلم عن علم، وخبرة، وصدق، ودِراية بما يقول.

وابن القيم –رحمه الله– تكلّم في جزء كبير من كتابه "مفتاح دار السعادة" عن هذه المسألة، وقد أخذنا بعض الكلمات لكي ترتب لنا طريقة التفكير في التفكّر، فتتفكّر ثم ترى آثار حكمة الله عز وجل، وأن كل شيء يشهد لله عز وجل بالحق، وأنه يستحق التأليه.

قال ابن القيم – رحمه الله –: **"وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى، ونبَّه عباده عليه بقوله عز وجل: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}** [1].

خصّ سبحانه النهار بذِكر البصر؛ لأنه محلّه، وفيه سلطان البصر وتصرّفه، وخصّ الليل بذكْر السمع؛ لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتَسمعُ فيه الحيوانات مالا تَسمع فيه بالنهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات، وخُمود الحركات، وقوة سلطان السمع، وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر، وضعف سلطان السمع.

فقوله: {أَفَلَا تَسْمَعُونَ} راجع إلى قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ}.

وقوله: {أَفَلَا تُبْصِرُونَ} راجع إلى قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}.

[1] (القصص:٧١-٧٢)

قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [1].

فذكر تعالى خلْق الليل والنهار، وأنهما {خِلْفَة}، أي: يخلُفُ أحدهما الآخر، لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما".

((الشمس والقمر، الليل والنهار))

تحدثنا بالأمس عن الليل والنهار، وكيف أنهما يشهدان على ما لله عز وجل من حكمة، ونُتبع ما مضى بكلامنا اليوم، بالاستشهاد بآية سورة القصص:

يقول الله عز وجل لينبّهك على عظيم مِنَّته التي تشهد له بالحكمة: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا} أي: دائمًا {إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ}. إذا بقي الليل إلى يوم القيامة ماذا سيحصل؟ أين مصالحك؟ لن تكون موجودة! فيسألك سبحانه وتعالى: {مَنْ إِلَٰهٌ}؟ وهنا الشاهد، أي: أن هذا الأمر يشهد على أنه إلهٌ يستحق أن تحبه وتعظّمه وتدعوه، {مَنْ إِلَٰهٌ} أي: مَن هذا الذي ستعظّمه؟ ابحث فيمن تُعظّمُهم وتؤَلِّهُم ووقعَ في قلبك محبتُهم، بل وامتلأ قلبك بحبهم، مَن فيهم يستطيع أن يأتي لك بالنهار إذا أراد الله أن يجعل الليل سرمدًا إلى يوم القيامة؟!

وعلى ذلك انظر إلى كل من يحب أحدًا ويعظمه، لابد أن يَعرِض مثل هذه الآيات على نفسه، فيقول لها: هذا محبوبٌ معظَّم، وأشعر تجاهه أنه قِبلةُ قلبي، ثم آتي فأقرأ القرآن فيعالج القرآن قلبي، كيف ذلك؟! يسألني الله: إن جعلت الليل سرمدًا، ماذا سيفعل لك هذا الذي تحبه وتعظمه؟ أنت تعلم أنه لن يفعل لك شيئًا! فهذا شاهدٌ على أن الله هو الحق، الذي يستحق أن يؤَلَّه، وغيره لا يستحق.

وإذا أتيت إلى الأشخاص الذين يُؤلِّهون غير الله فسيتوجه إليهم هذا السؤال أيضًا. تعال –على سبيل المثال– إلى من يؤلِّه "بوذا" –أي: يحبه ويعظمه، ومِنْ ثَم يتوجه إليه بدعاء المسألة ودعاء العبادة–، واسأله: أَرَأيتَ {إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا} هل سيَرد عليك النهار "بوذا" هذا الذي تؤَلِّهه؟! من المؤكَّد أن الجواب: لا.

---

[1] (الفرقان: ٦١-٦٢)

اذهب إلى الهندوس، الذين يؤلِّهون البقر –أي: يحبونها، ويعظمونها، ويتوجهون لها بالدعاء–!!، واسألهم: {أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ} ماذا ستفعل لكم بقرتكم؟! مَن سيأتيكم بضياء؟ هل ستفعل لكم شيئًا هذه التي تؤَلِّهونها؟ الجواب: لا.

إذًا: كل ما حولك يشهد لك بماذا؟ يشهد لك بأن الله هو الإله الذي يستحق التأليه.

وفي الآيات أحد الأدلة الدقيقة التي تشهد على تأليه الله:

يقول سبحانه وتعالى: {أَفَلَا تَسْمَعُونَ} في الحديث عن الليل، وقال: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} في الحديث عن النهار، مع تكرار نفس السؤال.

لماذا أتت {أَفَلَا تُبْصِرُونَ} مناسبة للنهار، و{أَفَلَا تَسْمَعُونَ} مناسبة للَّيل؟

الجواب: "**خصّ سبحانه النهار بذِكر البصر؛ لأنه محلّه**"، أي: النهار محله البصر لأن سلطان البصر يعمل في النهار حيث النور، وخصّ الليل بالسمع؛ لأن سلطان البصر يخفّ في الليل، وفي المقابل يعلو سلطان السمع، أي: أنك تهدأ فيه فتسمع.

خواتيم الآيات كلها تدل على أن هذا القرآن من لَدُنّ حكيم خبير سبحانه وتعالى.

إذا نظرت إلى آية الفرقان أيضًا ستسمعُ أمرًا آخر عن اللَّيل والنهار، ستسمع أن الله عز وجل {جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً}، بمعنى: يَخلُفُ بعضُه بعضًا، لا يأتيان مع بعضهما البتّة؛ لأنهما لو أتيا معًا لَمَا حصلت المصلحة بين العباد من تعاقبهما. فيَخلُف النهار الليل من أجل ماذا؟ من أجل أن تنتفع وتتحصّل لك المصالح، {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}.

قال: "**تأمّل الحكمة في طلوع الشمس على العالم، كيف قدّره العزيز العليم سبحانه! فإنها لو كانت تطلع في موضعٍ من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لَمَا وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر. وكان يكون الليلُ دائمًا سرمدًا على مَنْ لم تَطلع عليهم، والنهارُ سرمدًا على مَنْ هي طالعةٌ عليهم، فيفسدُ هؤلاءِ وهؤلاء، فاقتضت الحكمةُ الإلهية والعناية الربانية أنْ قَدَّرَ طلوعها مِن أول النهار مِن المشرق، فتشرقُ على ما قابَلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشَى جهةً بعد جهة، حتى تنتهيَ إلى الغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فيختلف عندهم الليل والنهار، فتنتظم مصالحهم**".

وهذا الأمر واضح. ما هي المفسدة التي ستحصل لو أنَّ الشمسَ تُشرِقُ وتقف على مكانٍ معينٍ ولا تتحرك؟ سيصبحُ الليلُ سرمدًا على قومٍ، والنهارُ سرمدًا على قوم! لكنها تتحرك وتتحرك، فتَحصلُ المنفعة لهذه المنطقةِ بحركة الشمسِ، ثم تنتقل من هذه المنطقة إلى غيرها، وهكذا.

فهذا الانتظام البديع يشهد على ماذا؟ يشهد على أن هناك قيومٌ قائم عليها، يُحصِّل لخلقه المصالح من وراء فعله.

وإذا أردت أن تعرف ما قيمة هذه الشمس التي تتحرك: انظر -مثلًا- إلى شجر الزيتون: فشجرُ الزيتون عندما يكون بارزًا على التلال، وتأتي عليه الشمس فتمرُّ عليه من ساعةِ الشروقِ إلى ساعةِ الغروب، فإن زيته يكون أنضجَ ما يكون، لماذا؟ لأن الزيتون يحتاج إلى فترتين لينضج، فترة قُرب الشمس وبُعدها، وفترة اختفائها. بمعنى: أن الزيت الذي يحويه هذا الزيتون يحتاج أن تكون الشمس بعيدة عنه فترة، ثم تصبح قريبة منه في فترة أخرى، ثم تكونُ غيرَ موجودةً ثم تعود، فكل هذا يجعل زيت الزيتون أنضج ما يكون، فهو كأنه يغلي بهدوء، ثم ترتفع درجة حرارته، ثم يرجع فيستكُنّ، ثم يعاود هذا الأمر إلى أن ينعقد -أي: تصبح ثمرتُه ناضجة يأخذها الخلق-، فكأنها تُطبخ طبخًا على أمهل ما يكون، وكل ذلك يحصل لها وأنت لا يد لك فيها أبدًا، أنت فقط مستقبِل.

لماذا يُكرَّر عليك عرضُ الليل والنهار والشمس والقمر؟ يكرَّر هذا على منافِذِ قلبِك -سمعك وبصرك- وأنت يقِظ ليحصل اليقين بأنه ما مِنْ إلهٍ إلا الله!

قال: "ثم تأمّل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدْها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قُدِّر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعةً وعشرين ساعة، وجعلا يتقارَضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يَزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخرُ فيستردُّه منه. قال تعالى: {يُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهارِ ويُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيلِ }[1] ، وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى: يُدخِل ظلمةَ هذا في مكان ضياء ذلك، وضياءَ هذا في مكان ظلمة الآخر، فيُدخِل كلَّ واحدٍ منهما في موضعِ صاحِبهِ، وعلى هذا: فهي عامةٌ في كل ليل ونهار.

[1] (الحديد:٦)

والقول الثاني: أنه يَزيد في أحدهما ما يُنقِصُهُ مِن الآخر، فما يَنقصُ منه يَلِجُ في الآخر، لا يذهب جملةً، وعلى هذا: فالآية خاصةٌ ببعض الساعات في كلِّ مِن الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصةٌ في الزمان، وفي مقدار ما يَلِجُ في أحدهما مِنْ الآخر".

يُعلِّق الشيخ على قوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}.

أولًا: انظر إلى المصالح العائدة من مجموع ساعات النهار والليل.

ثانيًا: اعلَمْ أنَّ اللَّيل والنهار يَلِجُ أحدهما في الآخر.

والذي يهمّنا الآن قبل التفصيل: الفعل {يُولِجُ} مُسنَد إلى مَن؟ مُسنَد إلى الله، فالله وحده هو الذي يولِج الليل في النهار، ويولِج النهار في الليل. إذًا: هذا الفعل لابد أن يُشعِرك بأحدِ مفهومين:

١) متى سأشعر بهذا الفعل؟ ٢) ومِن ثَمّ: متى أوَلِّهُ الله؟

وستشعر بأحد هذين المفهومين بحسب فهمك لكلمة {يُولِج}.

متى سأشعر بهذا الفعل؟

١) إما أن يكون وقتًا لا ترى فيه التداخل بين النور والظلمة.

بمعنى أنك إن وقفت في الوسط في لحظة غروب الشمس، ونظرت إلى الغرب، ونظرت إلى الشرق: سترى أن الشرق بدأت ظلمتُهُ تَزيد، وسترى أن الغربَ لازال فيه نور، فيتداخلان ويتداخلان، ويستمر دخول الليل وانسحاب النهار وترى الشمسَ تنطفئ، وهذه اللحظة لابد أن تكون فيها عبدًا موحداً تذكر الله.

ولذلك تجد أن **الفجرَ وقتٌ من أوقات ذكر الله، ومثله وقتُ الغروب؛ لأن هذه لحظةٌ ترى فيها الإيلاج، لحظةٌ تعلمُ فيها أن الذي يُدخِل هذا في هذا، ويُغيّرُ هذا مِن هذا: هو الله الإله الذي يستحق أن تعظمه؛ ومِن ثَمّ يستحق المحبة لِمَا يورثُك من المصالح.**

٢) أو يكون في لحظة أخرى تجد فيها الشهادة بأن الله حق: وهي عندما يحين وقت الاعتدال، ولا أعني لحظة كون الساعة الثانية عشرة ليلًا في جهة، والثانية عشرة نهارًا في جهة، وإنما أعني الوقت الذي يحصل فيه تناقصٌ وتقارض.

انظري لقول الشيخ، يقول: "(يولج) أي: يَزيد في أحدهما ما يُنقِصُهُ مِن الآخر، فما يَنقصُ منه يَلجُ في الآخر، لا يذهب جملةً". فالذي نقص من الليل –وهذا غالبًا في الصيف إذْ يَقصُر الليل– يذهبُ إلى النهار، فيطول النهار ببقاء الشمس أطول، ويبقى القمر والليل فترة أقصر، فتجد أنَّ الله يُولِج هذه الساعات التي أُخِذَتْ من الليلِ لتعود إلى النهار، ثم يكون الشتاء بالعكس من ذلك، فتُؤخَذ الساعاتِ مِن النهارِ وتُعطى للَّيل، وهكذا.

وهذا كله لِتَعلمَ أنه لا الليل ولا النهار يتصرفان بإرادتهما! يومٌ يؤخذ فيه من اللَّيلِ، ويومٌ يُعطَى فيه للَّيل، فهما عبدان، لا يملكان أنْ يَمتنِعَا عَمَّا سُخِّرَا له، يُعطَى ويُؤخَذُ منهما، وإلهُهما هو الذي يُعطيهما ويأخُذ مِنهُما، فهذا مَلَكُوتُهُ يَحكُمُ فيهِ بما يُريد –سبحانه وتعالى–، وهذا الإيلاجُ –الذي هو فِعلهُ–: يُشهِدُك على أنه الإله.

هي تفاصيلٌ تنظرُ إليها وتَعيشُها، ويجب أن تثيرَك! تجدُها تتكررُ وتتكرر، وكُلَّما تكررَتْ كانَ لِزامًا على قلبكَ أنْ تتقرّر فيه العقيدةُ بأنه هوَ مالِكُها، وصاحِبُها، وسيّدُها القائمُ عليها. يأخُذُ مِن نهارِهِ الذي خَلَقَهُ ويُعطيهِ للَيلِه، وهكذا في كُل خلْقِه. خَلَقَ هذا وخَلَقَ هذا، فيُعطي هذا ما شاءَ، ويُعطي هذا ما شَاء، ولا يعترضُ أحدٌ على حكمه، تتحركُ الشمس كما يأمرُها بنفس عدد الساعات، ناهيك عن كونها في شمال الكرة الأرضية تختلف طولًا عن جنوبها، فانظر إلى العجب! الشتاءُ والصيفُ يتبادلان في الأرض، فتُصبِحُ الشمسُ التي هنا أطولَ في وقتها، وهناك تُصبِحُ أقصر، أمرٌ عَجَب!! لكنْ يَهدي اللهُ بذلك مَن يشاء إلى معرفةِ أن الأمر بيده، والتأليه له سبحانه وتعالى.

((النجوم))

كنا قد بدأنا في الحديث عن الشمس والقمر، وما يتبعهما من الليل والنهار، والآن سيأتي الكلام عن النجوم:

قال: **"ثم تأَمَّل حِكمتَه تبارك وتعالى في هذه النجوم وكثرتها، وعجيبِ خَلقِهَا، وأنها زينةٌ للسماء، وأدلةٌ يُهتدَى بها في طرق البر والبحر، وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البُعد المُفرِط، ولولا ذلك لَمَ يَحصلْ لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت.**

ثم تأمل تسخيرها، منقادةٌ لأمر ربها تبارك وتعالى، جاريةٌ على سَنَن واحد، اقتَضَتْ حِكمتُه وعلمُه أنْ لا تَخرُجَ عنه، فجعل منها البروج، والمنازل، والثوابت والسيارة، والكبار، والصغار، والمتوسط، والأبيض الأزهر، والأبيض الأحمر، ومنها ما يَخفى على الناظر فلا يُدرِكُه، وجعل منطقة البروج قسمين: مرتفعة ومنخفضة، وقَدَّرَ سَيرَها تقديراً واحداً، ونزَّلَ الشمسَ والقمرَ والسياراتِ مِنها مَنَازِلَها:

– فمنها ما يقطعها في شهر واحد وهو القمر.

– ومنها ما يقطعها في عام.

– ومنها ما يقطعها في عدة اعوام.

كل ذلك موجب الحكمة والعناية، وجعل ذلك أسبابًا لما يُحدِثهُ سبحانه في هذا العالم، فيَستدِلُّ بها الناسُ على تلك الحوادثِ التي تقارنها، كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت: من الحوادث التي تقارنها. وكذلك غيرها من المنازل والسَّيارات.

ثم تأمَّلْ جَعْلَهُ سبحانَه بناتِ نعشٍ وما قَرُبَ منها ظاهرة لا تغيب؛ لقُرْبها من المركز، ولِما في ذلك من الحكمة الإلهية، وأنها بمنزِلةِ الأعلام التي يَهتدي بها الناس في الطُّرُق المجهولة في البر والبحر، فهم يَنظرون إليها وإلى الجَدْيِ و الفَرْقَدَيْن كُلَّ وقتٍ أرادوا فيهتدون بها حيث شاءُوا".

هذه مسألة تتصل بالفَلَك.

سنبدأ أولًا بالكلام عن النجوم على وجه العموم، ثم عن النجوم التي يهتدي بها الخلق على وجه الخصوص.

ولِتفهمي هذه الهداية لابد أن تبحثي حول مسألة "الاهتداء بالنجوم"؛ لأن هذه الكلمة تُكرَّر علينا، وكثيرٌ مِنا لا يفهمها جيدًا، ولا يفهم أن هناك مجموعةٌ من النجوم اسمها (بنات نَعْش)، وهي في مكان مُعيَّن، وأن أيَّ أحد يراها يعرف مباشرةً أن هذا شرقه، وهذا غربه، وهذا شماله، وهذا جنوبه، وهكذا. وفهمك لهذا الأمر مهم جدًّا، ليس لأجل أن تهتدي للطُّرُق، وإنما لأنه سيؤثر على فهمك لهذه السماء.

ويجب أن ندرك ابتداءً: أن فَهم وتصوّر الاتجاهات تصوّرًا خرائطيًّا في الذهن: نوعُ ذكاء، لا يمكن إنكار ذلك، ولكنْ لا يعني هذا أنك لا تستطيعه! لا! بل كل الناس لديهم مبادئ الذكاء، وبإمكانهم تنميتها بإذن الله.

ما الفائدة من معرفة الاتجاهات؟

لن أكلمك عن مصلحة الدنيا، وإنما سأكلمك عن "**التفكُّر**": أنت ترى الشمس قد طلعت من جهةٍ، ولا تعرفُ أين هي جهة الشرق! وتراها تغرُبُ من جهةٍ، ولا تعرفُ أن هذه الجهة هي المغرب! وأنَّ هذا الشرقَ سُمي شرقًا؛ لأن الشمس تُشرِقُ منه، وهذا الغربُ سُمي غربًا؛ لأن الشمس تَغرُبُ فيه، إن لم تعرف ذلك: سينقطع عنك هذا النوع من التدبر والتأمل.

الجزء الأول من كلام الشيخ -رحمه الله-: حول النجوم ولمعانها. وهذا سهلٌ فَهمُهُ -إن شاء الله-.

يتبقى لنا الجزء الذي فيه الحديث عن النجوم "في السماء"، وكيف أن السائر فقط بمجرد النظر في السماء يعرفُ إلى أي جهةٍ سيتجه، بدون أي دليل! بالطبع هذا من عظيم نعمة الله! لكنْ قليلٌ مِنا مَن انتفعَ بها، قليلٌ مِنا مَن نَمَّا هذا العلم في نفسِه، قليلٌ مَن يتأمَّلُ في السماءِ فيرى مناطقها واتجاهاتها.

عل كلِّ حال، نبدأ بقوله: "**ثم تأمّل حكمته سبحانه وتعالى في هذه النجوم ...**"

(١) أول حكمة: أنها منثورة كثيرة.

ما أن تشتدَّ ظلمةُ السماءِ إلا وتَراها كالثوب الذي رُصِّعَ بالحُلِيّ الشديدةِ اللمعان. فتصوّر: هذا الثوب العظيم الذي خَلَقَهُ الله، هذه السماء التي تكسو الأرض. ثم تصور: كيف نُثِرت فيها هذه الأجرامُ والنجومُ فأصبحَتْ كالثوب الذي يَحمِلُ جواهرَ تَلْمَع!

من هنا سترى أن الله عز وجل يجعلُ لك الليلَ بهذه الصورةِ؛ ليَقَعَ لك التمَتُّع، وإذا تمتَّعتَ فتأمّلْت: تيقَّنْتَ أنْ لا يدَ للبشرِ تَصِلَ لهذا البُعدِ العظيم، لا يمكنهم ذلك! فكلَّما بَعُدَت عنك المخلوقات كلَّما زاد يقينُك بأنه لا يمكن لأحدٍ التدخّل في هذه المخلوقات العظيمة، فيزداد تأليهك لله.

(٢) ثم إن هذه النجوم جعلها الله عز وجل من جهة أخرى: أدلة يهتدي بها الخلق.

فانظر إلى آثار رحمته ورأفته وحكمته! فلو كانت هذه الأدلة في الأرض لتعطّل بعض أهل الأرض عن الاستدلال بها، بمعنى: أنها لو كانت في شرق الأرض ماذا سيَحصُل لأهل الغرب؟ لن يجدوا لهم أدلة.

ولو كانت هذه الأدلة في الأرض، والأرضُ ظلمةٌ لا نورَ فيها، لتعطّل الاستدلال بها! لكنه سبحانه جعلها في السماء، بحيث يتمكن كل مَن وقفَ على الأرضِ -أيًّا كانت جهته- من رؤيتها مادام أنه في الليل. لا يستطيع أحدٌ حجْبها عن أحد، لَمَ يجعل اللهُ عز وجل الهدايةَ في الطُّرُقِ حصرًا على بعض الخلق، وإنما جعلها حقًّا مُشاعًا لكلِّ الخلق، لا يمنعُ أحدٌ أحدًا من الانتفاع بهذه النجوم.

(٣) ثم إنه جعلها تَلمَعُ في الظلام.

وهذه هي ميزتها في الهداية فهذا "اللمعان" كأنه في حق السائر "مصباح" يدلّه ويهديه، فَهَل رأيتَ رحمةً ووُدًّا ورأفَةً مثلَ هذه الرأفة؟! طيَّب الله لخَلْقِهِ معاشهم.

ولن تستشعر هذا إلا إذا تخيلت نفسك تائهًا تبحث عن هداية، فترى كيف يهديك الله بهذا الذي في السماء، لكنْ **كُلَّما استغنى العبد عن ربه وقَلَّ تفكُّره تحوّلَتْ الآياتُ في حَقِّه إلى معدومات!** بدليل أني إذا سألتكم الآن: متى آخر مرة تأملنا في النجوم، ورأينا فيها أنها آية من آيات الله، ورأينا أنها تدل على التأليه؟ سنرى أننا متفاوتون تمام التفاوت! لدرجة أن من الناس مَن لم يفعل هذا الفعل ولا لمرةٍ في حياته! أتدري لماذا؟ لأن الله سبحانه أغناك بـ"الكهرباء"، فكان ردّك على الله: أني استغنيت عن آياتك! فإنك لو لم تكن مُستغنِيًا لكانت النجوم التي في السماء نعمةً عظيمة عليك! فعندما تلمع: ترى آثارَ إضاءتِها عليك، فيكونُ للقمر لَيْلَةَ البدر طعم في قلبك. والكهرباء بالطبع خيرٌ لكن لِمَن شَكرها، ولم يَحرِم نفسَه التدبر والتفكر، ومَن حرَمَها عُدِم الخير منها.

(٤) أيضًا سنرى أن الله سبحانه وتعالى يُظهِر قدرته في هذه النجوم.

فمع أن النجوم شديدةُ البُعد فوق ما تتصور لكن ضوءها يصل إلى أهل الأرض. ولِتُدرِكَ بُعدَها: تصور أن هذه الأرض والشمس التي معها توجدان فيما يسمونه بـ"درب التَّبَّانة"، وهذا الدرب العظيم فيه ملايينُ الشموس التي معها ملايين الملايينِ من الكواكب، وأنت يصلك ضوء هذه النجوم التي في هذه المَجَرَّة، ثم أنه يوجد في الفضاء الملايين من المَجَرَّات كهذه وأكبر! ويصلك الضوء منها كذلك! فسبحان من أعطاها هذا النور، وهذه القوة في الإضاءة! وهذه الأرقام لا يمكن لعقلٍ تصورها!

فهذا الخَلْق شاهِدٌ على أنه لا يستحق التعظيم إلا الله، ومن ثَمّ لا يستحق المحبة إلا هو.

ألا تراه تودَّدَ لك وأنت الضعيف، وهداك بهذه النجوم إلى الطريق؟ زين لك السماء، فمتَّعك برؤيتها، وأصبحْتَ في الليل ترى من النور ما يُجلي عن عينيك الظلمةَ، ويُدخِلُ إلى قلبِك الانشراح. ومَنْ جَرَّبَ عَرَف! فمن يجرّبُ النظر إلى السماء في الليل متفكرًا: يرى من آثار انشراح الصدر ما لا يُقَدَّر بثمن! وهذا من آثار: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى} [1]، فهو سبحانه الذي يشرحُ صدور الخلق في أمور، ويضيقها في أمورٍ.

(٥) أيضًا من رحمة الله عز وجل بالخَلْق: أنْ جَعَل هذه النجومَ سببًا لمعرفة المواقيت.

بمعنى: أن هذه النجوم يَحصُل بها معرفةُ فصول السنة، ومعرفةُ وقت الزارعة، ويُعرَفَ بها -كما يُعبِّرون عنه الآن- المدَّ والجَزْر بسبب قرب النجوم وبعدها، ...والخ ذلك من التأثيرات.

مَن الذي جعل للنجوم هذه التأثيرات في الأرض؟ الله عز وجل.

وكلما زاد الخَلْق معرفةً بها زادوا اهتداءً لمصالحهم، وكلَّما قلَّتْ المعرفة قَلَّ الاهتداء.

(٦) وكلها لو تأملت: مُسخَّرةٌ مُنقادةٌ بأمر ربها، جاريةٌ على السَّنَن التي سَنَّها اللهُ عز وجل واقتضتها حكمته.

ترى منها أصنافاً، منها ما جعلها الله عز وجل ثوابت: فجعل منها البروج والمنازل، ومنها السيارة: فجعل منها الصغار والكبار والمتوسط، ومنها الأزهر الذي جعل إضاءتَه بيضاء زاهرة مثل لون الفضة -وهذا هو لونُ النجومِ البعيدةِ غالبًا-، ومنها ما جعل إضاءتَه بيضاء حمراء، وهذا اللون تراه في أحيان كثيرة في أول اكتمال البدر.

على ماذا يدلّك هذا الاختلاف في ألوانها؟ يدلّك على أن لها مولًى قائمًا عليها، يجعلُها كما يريد، ويجعلُ لها السُّنَّةَ التي تسيرُ عليها كما أمَرَها سبحانه، ولا تختلف، ولا تعترض البتَّة.

كذلك من النجومِ: ما تَخْنَسُ فلا تراها، ومنها: التي تَبقى على حالها فتراها، ومنها: الذي يمرّ عليك فتَرَاه مرةً، ولن يراهُ مجدَّدًا إلا أحفادُ أحفادِك! أي: أنه يَمُرُّ فلا يُرَى إلا بعدَ أجيال!

وجَعَلَ اللهُ منطقةَ البُروجِ قسمين: مرتفعة، ومنخفضة.

---

[1] (النجم:٤٣)

*وتفاصيل هذا الموضوع إن يسَّرَ اللهُ لنا سنتكلمُ عنها بشيء من التفصيل، وإلا فسأُرشِدُكُم إلى كُتبٍ تقرؤون فيها عن ذلك.

نتابع القراءة:

قال: "**ثُم تأَمَّلْ نظامَ سَيْرِ الكواكبِ وما فيه مِن العجائب! كيف تَجِدُ بعضَها لا يَسيرُ إلا مع رِفْقَتِه، لا يُفْرِدُ عنهم سَيْرَهُ أبدًا، بل لا يَسيرونَ إلا جميعًا، بل بعضُهُم يَسيرُ مطلقًا غيرَ مُقيَّدٍ برفيقٍ ولا صاحِب، بَلْ إذا اتفَقَ لَهُ مُصاحَبَتُهُ في مَنزِلٍ: وافقَهُ فيهِ لَيْلةً وفارَقَهُ الليلةَ الأُخرى، فَبَيْنا تَراهُ ورفيقَهُ وقرينَه إذْ رأَيْتَهُما مفترقين متباعدين: كأنهما لَم يتصاحَبا قَطّ، وهذه السَّيارةُ لها في سيرها سَيْران مختلفان غاية الاختلاف: سيرٌ عامٌ يَسيرُ بها فَلَكُها، وسَيْرٌ خاصٌ تَسيرُ هيَ في فَلَكِهَا، كَمَا شَبَّهوا ذلكَ: بنملةٍ تَدُبُّ على رَحًى ذاتَ الشِّمال والرَّحَى تَأخُذُ ذاتَ اليمين، فَلِلنَّملةِ في ذلكَ حرَكتانِ مختلفتانِ إلى جِهَتَيْنِ مُتَبايِنَتَيْن، أحَدُهُما بنفْسِها، والأُخرى مُكْرَهةٌ عليها؛ فحَرَكةُ الرَّحَى تَجذبها إلى غَير مَقصَدِها، وبذلك يَجعلُ التقدمَ على كُلِّ منزلةٍ إلى جهة الشرق، ثُم يَسيرُ فَلَكُهَا وبمَنزِلَتِها إلى جهة الغرْب**".

يَصِفُ الآن الشيخ –رحمه الله– الكواكب السيارة، وأن بعضها تَكُونُ جماعةً، وبعضُها تَكُونُ منفردة، أو تصاحِبُ نجمًا بعض الوقتِ ثُم تذهَبُ عنه.

ثم بيّن: كيف تسير هذه النجوم؟ فذكر أن لها سَيْران:

- **سيرٌ عامٌ يَسيرُ بها فَلَكُها**. أي: أنها مع فَلَكٍ، تسيرُ معه.
- **وسَيْرٌ خاصٌ تَسيرُ هيَ في فَلَكِهَا**.

ووَصَفُوا هذا: بنملة تسير على رَحًى تدور، والنملةُ تَسيرُ إلى الغَرْبِ، والرحى تَسيرُ إلى الشرق، فبهذا أصبح للنملةِ مسارَيْن، مسيرها هي بنفسها غربًا، ومسير الرحى بها شرقًا، والنجوم بهذه الطريقة، تسير هي من الغرب إلى الشرق، وفَلَكُها يسير بِعَكْسِها.

والمقصد: أنك ترى عجبًا عندما تقرأُ في مثل هذا!

ماذا تحتاج الآن؟ تحتاجُ إلى زيادةِ اهتمامٍ بالتفاصيلِ التي تستطيعُ أنْ تُدرِكَها. بمعنى: أنك قد تجد أن الحديث عن النجوم ناسبَك وأعجبك، وغَيرُك ناسبَهُ الحديث عن الليل والنهار، لا بأس! جميل! فَليقرأ كُلٌّ فيما يزيده فهمًا لكمال حكمة الله تبارك وتعالى.

اللقاء السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو أسبوعنا الثاني في الدورة الصيفية لعام ١٤٣٣هـ، نسأل الله –عزَّ وجلَّ– بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممن تعرّف عليه فعظَّمه، ووقع في قلبه التعلُّق به وحده، نسأله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العلم زيادة للإيمان، وأن يكون اجتماعنا من الاجتماعات المباركة، التي لا نريد بها إلا وجهه سبحانه وتعالى.

لازلنا نتكلَّم عن هذا الاسم العظيم اسم (الحكيم)، وقد مرَّ معنا أن معنى هذا الاسم يشمل أمرين:

الأمر الأول: يشمل الحُكم لله.

الأمر الثاني: يشمل حكمة الله في كل حُكم.

فهو حكيم يضع الأشياء مواضعها، وتتجلّى حكمته –سبحانه وتعالى– في:

- خلقه.
- وأمره.
- وشرعه.
- وجزائه.

ومن أجل أن يمتلئ قلبك إيمانًا بهذه الحكمة عليك أن تتأمَّل في ما أمرك الله به، تتأمَّل في كل موطن يقول الله لك فيه: {أَلَمْ تَرَ}، {أَلَمْ تَرَوْا}، {وَمِنْ آيَاتِهِ}، يجب عليك أن تتأمَّل في النصوص التي تناقش هذه المسائل؛ ليزيد يقينك بحكمته، وتردّ ذلك على قلبك في كل وقت.

واتَّفقنا أن هذا الأمر يمكن أن يحصل بطريقين:

الطريق الأول: بطريق التأمُّل: يكون عندك علم وخبرة في مسائل فتتأمّلها أنت بنفسك؛ فيزيد إيمانك بحكمة الله –عزَّ وجلَّ – وضربنا مثالًا على ذلك: الطبيب، والفَلَكي.

الطريق الثاني: أن تقرأ لِمَن كتب في حكمة الله، فتعرف أنه حكيم في كل خلقه.

ولما أتينا إلى الحكمة في الخلق قلنا أن هناك ثلاث كلمات متّصلة بها:

ما معنى أن الله حكيم في خلقه؟ أي أنه:

١. **خلق الخلق بالحق.**

٢. **ومشتملًا على الحق.**

٣. **وكان نهايته وغايته الحق.**

ومعنى "بالحق": أي: أن كل المخلوقات تشهد باستحقاقه -سبحانه وتعالى- للألوهية.

ومعنى "مشتملًا على الحق": أي: أن تفاصيل هذه المخلوقات تُظهِر لك أن الله -عزَّ وجلِّ- يضع الأشياء في مواضعها، فلا يمكنك أن تقترح فوق خِلقته وعطائه اقتراحًا.

فمِن **أهم آثار الإيمان باسم الله الحكيم**: أن لا يتعدَّى العبد حدّ الأدب مع الله، ولا يقترح على الملك الحكيم أي اقتراح، ولا يأتي إلى شيء من أقداره فينتقدها، ويقول: لو كان هذا كذا! ولو وضع هذا كذا! ولو غيَّر الله كذا! لماذا فعل الله كذا؟ هذا ليس كلام عبدٍ آمن أن الله حكيم، فإن المؤمن الذي شهد أن لا إله إلا الله، ليس من إيمانه أن ينتقد فِعل من يعظِّمه، ومن يتعلَّق به؛ لأن **الانتقاد لفعل الله مبنيٌّ على الجهل بالله، مبنيٌّ على المفاهيم الباطلة من حرية الآراء، التي تعدَّت بالخلق فجعلتهم يتكلَّمون على فِعل الله، ويظنُّون أن هذا من آثار الحرّيات!**

لو تعبّدت الله باسمه (الحكيم) كما ينبغي، وقلَّبت هذا الاسم، وتأمَّلته، وفهمت آثاره؛ سيخرس لسانك عن أن تتكلَّم بكلمة عن الله، ستعظِّم أي انتقاد يمكن أن ينتقده أحد على الله، بل إنك ستجاهد نفسك، وسيَظهر لك ضعفك ونقصك، وستلزم جانب الأدب في معاملتك مع الله.

و-كما ذكرنا- من طرق الوصول لهذا التأمّل: أن تقرأ لِمَن كتب عن حكمة الله، وعن حكمته في مخلوقاته. ونحن سنبذل اليوم جهدنا في قراءة ما نستطيعه.

تكلمنا في اللقاء الماضي عن النجوم، وذكرنا أن هناك مجموعة منها تسمى بـ"بنات نعش"، وأنتم تعرفونها باسم "الدبّ القطبي الأكبر" و"الدبّ القطبي الأصغر"، وهم عبارة عن: نجوم في السماء، شكلها مربَّع، وله طَرَف، وهذا الشكل ثابت في السماء لا يتغيَّر أبدًا، وبه يعرفون الشمال والجنوب والشرق والغرب في الليل.

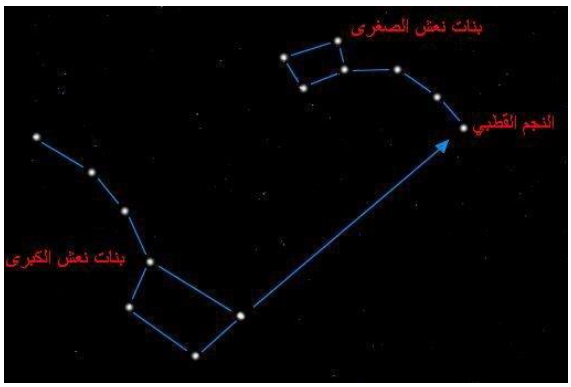

لماذا سمَّته العرب "بنات نَعْش"؟ لأنها اعتبرت أن هذا المربع -أو هذا الشكل الذي يُشبِه المستطيل- نعشًا، واعتبرت ذيله البنات. والصحيح أن تسمُّوه "بنات نعش"؛ لأن كلمة "الدب القطبي الأكبر" و"الدب القطبي الأصغر" مبنيّة على عقيدة يونانية باطلة، أما العرب فيسمُّونها "بنات نعش الكبرى" و"بنات نعش الصغرى".

كلَّما قرأت في كتاب الله أن الله -عزَّ وجلّ- جعل بالنجم الهداية لا بد أن تفهمي معنى ذلك، ثقِّفي نفسك بالمعلومة حتى لو لم تتصوَّريها، وبعد ذلك ستنكشف المسائل قليلًا قليلًا، لكن لا تهجري أبدًا المعلوم، فهذا ليس من صالحنا.

عندما تريدين أن تشرحي قوله تعالى: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}[1] ستقولين: ما خلق الله النجم إلا لهذه الثلاثة المصالح:

١. زينة للسماء.

٢. علامات.

٣. هداية للناس.

[1] (النحل:١٦)

وكما قال السلف: من تعدَّى هذه الثلاثة، فقد ظلم نفسه. وأي أحد ينظر للنجوم على أن لها علاقة بالأحداث، أو أنها تدل على شيء من علم الغيب فقد أفسد دينه!

التأمل في السماء من أنواع العبادات، قال تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} ، عندما تتأمّلين ستدخلين[1] في رَكْب المؤمنين، تدخلين في رَكْب المتعبّدين، المتفكّرين.

سنقرأ الآن كلام ابن القيم –رحمه الله–، الذي أظهر فيه حكمة الله في خَلقه للهواء بهذه الصفة:

قال: **"ثم تأمّل هذا الهواء وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان، والمُمسِك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تُباشر به من روحه، فتتغذَّى به ظاهرًا وباطنًا، وفيه تطرد هذه الأصوات، فتحملها وتؤدّيها للقريب والبعيد، كالبريد والرسول الذي شأنه حمْل الأخبار والرسائل، وهو الحامِل لهذه الروائح على اختلافها، ينقلها من موضع إلى موضع؛ فتأتي العبدَ الرائحةُ من حيث تهبّ الريح، وكذلك تأتيه الأصوات، وهو أيضًا الحامل للحرّ والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات"**.

((الهواء))

بَيَّن أن هذا الهواء يحتاج منا تأمُّل في مصالحه، ومصالحه هذه ستكون من الداخل ومن الخارج، فالهواء هو الذي عليه تعيش، جعله الله–عزَّ وجلَّ –مادة الحياة في الداخل.

وماذا يحصل في الخارج؟ سترى أن الأشياء حولك تتأثَّر بالهواء، وسنبدأ بالأصوات: سنجد أنها ما تُحمَل إلى أذنيك إلا بطريق الهواء، فهي **"كالبريد والرسول الذي شأنه حمْل الأخبار والرسائل"**.

وأيضًا ستجد أنك به تشُمّ؛ لأنك لن تشُم الروائح إلا إذا حملها الهواء، وأيضًا به تشعر بالبرد والحر؛ فالهواء هو الحامِل لهما.

إذًا: أنت تتنفَّس بالهواء من الداخل، وبه تسمع من الخارج، وبه تشُم، وبه تشعر بالحرارة والبرودة، فترى منَّة الله –عزَّ وجلَّ– عليك بهذه المادة اللطيفة التي لا تشعر بها. مصالح رأسك كلها دائرة حول هذا الهواء، السمع من جهة، والشم من جهة، والتنفُّس من جهة، ويأتيك لبدنك كله شعور بالحرارة والبرودة التي تنفعك، والتي تنفع الحيوان والنبات أيضًا.

[1] (آل عمران:١٩١)

نأتي الآن إلى الريح والسحاب:

قال: "**وتأمّل منفعة الريح، وما يجري له في البر والبحر، وما هُيّئت له من الرحمة والعذاب. وتأمّل كم سُخّر للسحاب من ريح حتى أمطر:**

١. **فسُخّرت له (المُثيرة) أولًا، فتُثيره بين السماء والأرض.**

٢. **ثم سُخّرت له (الحامِلة)، التي تحمله على مَتنِها، كالجمل الذي يحمل الراوية.**

٣. **ثم سُخّرت له (المؤلِّفة)، فتؤلِّف بين كِسَفِه وقِطَعِه، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقًا واحدًا**".

((الريح والسحاب))

سنذكر الآن العلاقة بين الرياح و السحاب:

الهواء سيتحوَّل إلى ريح، والريح ماذا ستفعل؟

قال: "**وتأمّل منفعة الريح، وما يجري له في البر والبحر، وما هُيّئت له من الرحمة والعذاب**"، أي: أن هذا الهواء سيجتمع، ويقوى، فتصبح له قوة أعلى من قوة الهواء، يجتمع فيصبح ريحًا لها قوة؛ فتجد آثارها في البر والبحر.

ومن آثار الريح على السحاب: أن الله –عَزَّ وجلَّ – يسخِّر للسحاب الريحَ، فيمرّ السحاب بمراحل، تأخذه الريح من مرحلة إلى مرحلة. قال: "**تأمّل كم سُخّر للسحاب من ريح حتى أمطر**":

١. سخِّرت له (المثيرة) التي تُثيره وتحرِّكه بين السماء والأرض.
٢. سخِّرت له (الحامِلة) التي تحمله من أرض إلى أرض، تحمله على مَتنها كالجمل.
٣. سُخِّرت له (المؤلِّفة) التي تؤلِّف بين كِسَفِه وقِطَعِه.

أي: أن السحاب الأخف سيكون في الأعلى، والأثقل سيكون في الأسفل، والريح هي التي تبدّل بينهم. وفي النظريات: أن السحابة التي يكون فيها الماء تكون هي الأثقل فتنزل، والريح الآن هي التي تحرّك، فترفع الأخف للأعلى، وتُنزِل الأثقل في الأسفل، وهذا كله بأمر الله، فيجتمع فيصبح طبقًا واحدًا.

قال:

٤. "ثم سُخِّرت له (اللاقِحة)، بمنزلة الذكر الذي يلقّح الأنثى فتلقِّحه بالماء، ولولاها لكان جِهامًا لا ماء فيه.

٥. ثم سُخِّرت له (المُزْجِيَة)، التي تُزْجِيه وتَسُوقه إلى حيث أمر، فيُفرِغ ماءه هنالك".

الريح (اللاقِحة) مثل اللقاح، تجتمع مع السحاب، فيحصل من اجتماعهما تكوُّن الماء. عندما تهبّ هذه الريح على السحاب تجعله يتحرك حركة كأنه أتته الولادة فيأتي المطر، ولذلك الناس أصحاب الخبرة يعرفون أن هذه النسمة من الريح هي نسمة المطر، فإذا هبَّت يشعرون أنها ستلقِّح السحاب فينزل المطر.

أما (المُزْجِيَة) فهي ريح تدفع السحاب إلى مكان خاص أراد الله أن ينزل به المطر.

أهل "جدة" مثلًا يشعرون بهذا الشيء، فأحيانًا جزء معين من شمالهم يُمطِر، وجنوبهم لا يُمطِر! والعكس، وأحيانًا يُمطِر شرقهم دون أن يُمطِر غربهم، والعكس، والمقصود أنه ليس مجرد رؤيتك للسحاب معناها نزول المطر، وإنما سينزل حينما تأتي لحظة الولادة؛ فترين ريح السحاب ولونه قد تغير؛ لأنه سيميل إلى السواد في تلك اللحظة، وستهبّ عليه ريح تسوقه إلى المكان الذي يريده الله، فتُنزِل المطر فيه، ومنه الحديث المعروف في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بينا رجلٌ بفلاةٍ مِن الأرض، فسَمِعَ صوتًا في سحابةٍ: اسقِ حديقةَ فُلان. فتنحّى ذلك السَّحابُ، فأفرغَ ماءه في حَرَّة، فإذا شرجةٌ من تلك الشِّراجِ قد استوعبت ذلك الماءَ كُلَّه، فتتبّع الماء، فإذا رجلٌ قائم في حديقَتِه يحوِّلُ الماءَ بِمِسحاتِه، فقال له: يا عبدَ الله، ما اسمك؟ قال: فلان. -للاسم الذي سَمِعَ في السحابة- فقال له: يا عبد الله، لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعتُ صَوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه، يقول :اسقِ حديقةَ فلان -لِاسمِك-، فما تصنع فيها؟ قال: أمَا إذ قلْتَ هذا، فإني أنظُرُ إلى ما يخرُجُ منها، فأتصَدَّقُ بثُلُثِه، وآكلُ أنا وعيالي ثلثًا، وأردُّ فيها ثلُثَه" [١].

[١] رواه مسلم في صحيحه/كتاب الزهد والرقائق/ باب الصدقة في المساكين/ (٢٩٨٤).

هذا رجل كان يسير، فسمع في السماء صوتًا يخاطب الريح والسحاب: أن اسقوا حديقة فلان —باسمه-، فتحركت السحابة بأمر الله -حرّكها هذا النوع من الريح (المُزجِية)-، فنزل مطرها على هذه الحديقة دونًا عن غيرها! وهذا كله يبين لك أنه سبحانه وتعالى هو القائم على كل شيء، هو الحكيم في تصريف كل شيء.

قال:

"٦. ثم سُخِّرت له بعد إعصاره (المُفَرِّقَة)، التي تَبُثّه وتُفَرّقه في الجو، فلا ينزل مُجتَمِعًا، ولو نزل جُملة لأهلك المساكن، والحيوان، والنبات، بل تفرّقه فتجعله قطرًا".

بعدما نزل المطر من السحاب، واعتصرته الريح العَصْرة الأولى، ولم يزل في السحاب ماء، تأتي له الريح (المفرّقة) تفرّقه عن بعضه لكي لا يهلك القوم، فيعطيهم الله -عزَّ وجلَّ- منه ما يناسبهم فقط، لا تصبّ كل ما عندها صبًّا، وإنما تأتي هذه الريح فتفرّق هذه السحب مع وجود الماء فيها من أجل ألا يهلك الخلق، فكما جمعها الله -عزَّ وجلَّ- ولُقِّحت بالريح (الملقِّحة)، يفرّقها الله —عزَّ وجلَّ- بالريح (المفرّقة)، وهو —سبحانه وتعالى — حكيم في كل شأنه.

انتهينا من الهواء وعلاقته بالإنسان، والهواء الذي تحوَّل ريحًا وعلاقته بالسحاب، والآن سنقرأ عن الرياح مع الشجر والسفُن:

قال: **"وكذلك الرياح التي تلقِّح الشجر والنبات، ولولاها لكانت عقيمًا، وكذلك الرياح التي تُسيّر السفن، ولولاها لَوَقفت على ظهر البحر".**

هل تعرفون ماذا يعني تلقيح الشجر؟ هو أمر في غاية العَجَب! تلقيح الشجر يتم بواسطة ما يسمُّونه "حبوب اللقاح"، تهبّ الرياح فتجعل هذه الحبوب تسقط على مكانها في الزهرة من الأشجار الباقية، فسبحان الله كيف تقع كل حبة لقاح في مكانها! وكيف تُثمِر في النهاية هذه الثمرات التي تراها!

كل الثمر هذا إنما هو من ريح أمرها الله، فهبَّت على حبوب اللقاح، فلقَّحت الزهر، فخرجت الثمرة! كل حبة تفاح تأكلها، وكل حبة برتقال، و كل ثمرة تأكلها أثمرت بهذه الصورة! فسبحان الله هل يمكن أن يحصل هذا كله كما اتّفق؟! لا يمكن!! إنما هي حكمته سبحانه وتعالى.

ومثله الرياح التي تسيِّر السفن، لولا تسخير الله هذه الرياح لظلَّت السفن رواكد. قد يقول قائل: السفن الآن ليست شراعية، وإنما أصبح لها محرِّكات تشغّلها. والحقيقة أن مَن يَفهم في قضية السفن ومحرِّكاتها يعرف أن أصل حركة هذه المحرِّكات لابد أن يكون بالهواء، هذه المادة المشتَعِلة تحتاج للهواء لكي تبقى مستمرة في الحركة.

قال: "**ومن منافعها أنها تبرّد الماء، وتضرم النار التي يُراد إضرامها، وتجفّف الأشياء التي يُحتاج إلى جفافها، وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح**".

بالرغم من كل هذه المنافع التي ذكرها ابن القيم –رحمه الله– سنقول: هناك منافع لم يعدُّها، ستعدّها أنت.

وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان مرتبط بالرياح، وبقي عليك أن تتأمَّل في هذا الأمر.

ثم قال: "**فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذَوَى النبات، ومات الحيوان، وفسدت المطاعم، وأَنتَن العالم وفسد**".

في حج سنة من السنوات وقعت إشاعة كبيرة: بأن "إنفلونزا الخنازير" ستقتل ٦٠ مليون شخص على وجه الأرض! وفي الحقيقة ما مات بعدها ولا أربعة آلاف شخص! لكنهم بهذه الإشاعة باعوا المصْل، وسرقوا العالم! وكان الحجاج من بين الناس المهدَّدين بالمرض، فأرسل الله في تلك السنة ريحًا شديدة في ليلة عرفة يوم ٨، والناس في مِنى، وأصبح الناس في شيء من الخوف، ثم أنزل الله –عزَّ وجلَّ – مطرًا، ثم هدأت الدنيا، وعاد الناس من الحج دون أن يُصابوا حتى بـ"الإنفلونزا العادية" –التي يرجعون بها عادةً من الحج–! والسبب: تلك الرياح في تلك الليلة، وبقي في اليوم التاسع قليلًا منها فطهرت الأجواء، ولهذا هو يقول: لو ما كانت الريح لأَنتَن العالم، فالريح تحرِّك المطر، والريح والمطر يذهبان بالأوبئة بأمر الله، ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: "لا تسبُّوا الريحَ" [1]، وكتب مَن كتب من العلماء أن كثيرًا من الأوبئة تذهب بسبب هذه الرياح.

ولكن إذا أصاب الناس ريح أرضية –مثلًا– فإن ناقصي العقول سينظرون إلى ما يحصل لهم فقط، أما العقلاء سيقولون: أن هذه الحركة للريح الأرضية التي تحرِّك التراب لابد أن فيها تنقية للهواء؛ إيمانًا به –سبحانه وتعالى–، وليس إيمانًا بأي نظريات، وإن كان عندهم مَن يُثبِت ذلك علميًّا، لكنهم مؤمنون بحكمة الله قبل سماعهم لهذا الكلام العلمي كله! فلا نتعدَّى على أمره،

[1] رواه الترمذي في سننه: كتاب الفتن/ باب ما جاء في النهي عن سب الرياح/ (٢٢٥٢) وقال: حديث حسن صحيح.

فما يسكن ساكن إلا بأمره، ولا يتحرَّك متحرِّك إلا بأمره، وإذا كنت تؤمن بهذا فلا تتكلَّم عن فِعله إلا بالرِّضا عنه —سبحانه وتعالى —.

قال: **"ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغمّ الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان وأمرض الأصحّاء، وأنهك المرضى، وأفسد الثمار، وعفن الزرع، وأحدث الوباء في الجو، فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي برَوحه، ورحمته، ولطفه، ونعمته"**.

وهذا كله من حكمته.

هذا الكلام ليس كافيًا! عليك أن تتأمَّل، وتقرأ إلى أن تُشبع نفسك، فما أن ترى ريحًا إلا وتقول: هبَّت وأتت برَوحه، ورحمته، ولطفه، ونعمته، وحكمته. فترى فيها كمال صفات الله، وهكذا تصبح مؤمنًا، عندما ترى أن أفعاله كلها دالّة على الكمال، ومن بينها ما يلامسك، ومن بينها مثلًا: الريح، والكواكب، وكل ما مرَّ معنا.

نأتي الآن للكلام عن الجبال:

قال: **"ثم تأمّل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فَضْلَة في الأرض لا حاجة إليها، وفيها من المنافع مالا يحصيه إلا خالقها وناصبها، وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي–صلى الله عليه وسلم–: بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، آلله أمرك بكذا وكذا؟ قال: "اللهم نعم" . أخرجه مسلم"**.[1]

((الجبال))

هذا أعرابي يريد أن يدخل في الإسلام، فاستحلف النبي –صلى الله عليه وسلم–، لكنه من فِقهه وفَهمه قال: "بالذي" –يعني أستحلفك– "نصب الجبال، وأودع فيها المنافع.."، فهذا الأعرابي المشرك يعلم من حكمة الله ما لا يعلمه كثير من الجهال، ولذلك ابن القيم في أول الكلام قال: **"الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فَضْلَة في الأرض"**. بمعنى: ما لها قيمة. وهذا النظر

[1] رواه مسلم في صحيحه/كتاب الإيمان/ باب السؤال عن أركان الإسلام/ (١٢) وهذا جزء من نصه: " عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللهُ»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «اللهُ»، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللهُ»، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، آللهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»...الحديث.

إلى الجبال يصل إليه مَن لم يتفكر، فأنت قد تشعر في أول الأمر أن فيها حكمة، وتقول لنفسك: لابد أن لها حكمة. ومع الأيام ومع سكوتك عن نفسك، وعدم البحث والتأمل، سيستقر في قلبك أنها " **فَضْلَة**"! ولِذا لابد من البحث!

قد يَرِد سؤال: أتريدين منّا أن نبحث بحثًا علميًّا، ونتخصَّص؟ سنقول: تعلّموا معنى قوله تعالى في أواخر سورة آل عمران: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}. هذا هو المطلوب منك: أن تتأمَّل وتبحث، ومثل هذه الأمور الآن أصبحت يسيرة، يمكنك أن تسمع وتقرأ ما يدلُّك بعلم مجرد –حتى ليس بعلم متَّصل بالآيات–، **ربنا جعل في الخلق من يهتمّ بالجبال، ومن يهتمّ بالسحاب، ومن يهتمّ بالكواكب، وأنت عليك أن تزداد إيمانًا، فهذه نعمة لا يقابلها نعمة! أن تكون مخدومًا يصل إليك ما يزيد إيمانك**، وكل الذي عليك أن تتصفَّح وتقرأ؛ فتسبِّح الله، وتكبِّره، وتهلّله؛ فيثبت في قلبك الإيمان بحكمته وعظمته سبحانه وتعالى، فكلما نظرت إلى الجبال –مثلًا– زدت إيمانًا بأنه سبحانه وتعالى حكيم في فعله.

هذه عبادة لا تهملوها! هذه العبادة أُهمِلت فتزعزع الإيمان، فوصلنا لحال يأتي فيه الواحد فيقول: أعطوني دليلًا على أن الله موجود!! ما السبب لوصولنا لهذا الحال؟ السبب هو هجْر عبادة التفكر، مع أن الشواهد حولك لا تنتهي.

ثم قال: "**فمن منافعها: أن الثلج يسقط عليها، فيبقى في قُلَلِها حاصلًا لشراب الناس إلى حين نفاذه، وجُعل فيها ليذوب أولًا فأولًا، فتجيء منه السيول الغزيرة، وتسيل منه الأنهار، والأودية، فينبت في المروج والوهاد والرُّبا ضروب النبات، والفواكه، والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل**".

تصبح الجبال مثل الإناء الكبير الذي يحفظ الماء، الذي ينزل بصورة الثلج. وأنتِ تصوري الأرض من القطب الشمالي إلى وسط الكرة الأرضية، ومن الجنوب إلى وسط الكرة الأرضية، وتصوَّريها كلها مع بعض، وكيف أن الثلج يكون هناك، ثم يذوب فينزل على أطرافها.

كل ما تسمعينه عن المياه الجوفية، وكل ما تسمعينه عن المياه التي تحت الأرض، إنما ساقها الله –عزَّ وجلَّ– من شمال الأرض إلى جنوبها، ومن جنوبها إلى شمالها، وهذا كله بقدرته، فبيّن هنا ابن القيم –رحمه الله– أن الثلج يسقط على الجبال، فتصبح كالحاضِنة له، وبعد ذلك يذوب رويدًا رويدًا.

فالماء إذا نزل على الأرض سيبقى ماءً، لكنه إذا نزل على الجبال سيصبح ثلجًا باردًا؛ لأن الجبال مرتفعة، ثم ينزل الثلج الذي في الأسفل، فماذا يحصل للذي في الأعلى؟ يذوب رويدًا رويدًا، فينزل لأهل الأرض، وينزل إلى الأودية بين الجبال، فتُسقى به، وعندما تُسقى الأودية تأتي المزروعات.

قال: "**فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحلّ جملة، وساح دفعة، فعُدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملةً: السيول التي تُهلك ما مرَّت عليه، فيضرّ بالناس ضررًا لا يمكن تلافيه، ولا دفعة لأذيته**".

لو لم يكن هناك جبال، لنزلت الثلوج على الأرض، ثم ذابت. وماذا يحصل لو ذابت الثلوج مرةً واحدةً؟ لغرِق الناس، لكن الجبال تكون حاميةً للأرض من الثلوج، فإن الثلوج تسقط على أعلى نقطة تقابلها، فتحفظها الجبال، ثم تميل مثل ما مرَّ معنا.

"**ومن منافعها: ما يكون في حصونها، وقُلَلِها من المغارات، والكهوف، والمعاقِل التي بمنزلة الحصون والقِلاع، وهي أيضًا أكنان للناس والحيوان**".

من فوائد الجبال: أن فيها مغارات وكهوف تكون بمثابة الحصون والقلاع، وهي أكنان للناس والحيوان، يستظلُّون فيها، ويستفيدون منها.

"**ومن منافعها: ما يُنحَت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها، والأَرحِيَة وغيرها**".

مرّ علينا سابقًا أن الرخام الموجود في المطاف هو عبارة عن قطع من الجبال، ومن صفته: أنه إذا تسلَّطت عليه الشمس أصبح باردًا.

وكل الرخام عبارة عن قطع أُخِذت كما هي من الجبال، فتجد في الجبال من أنواع الحجارة التي تكون أقوى وأشد في البناء، وتُستخدم أيضًا لتجميل بيوت الناس.

"**ومن منافعها: ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والرصاص، والزبرجد، والزمرّد، وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها**".

أنتم تعرفون أن الألماس عبارة عن أحجار من جبل، وأن الذهب عبارة عن استخلاص من كهوف في جبال، والفضة كذلك، وكل المعادن التي يستخدمها الخلق بدون استثناء أصل وجودها في الجبال، وللناس في التعامل مع الجبال طريقين:

- إما أن يعاملوا الجبال من الخارج، مثل ما يحصل عند استخراج الألماس.
- أو يعاملوا كهوف الجبال من الداخل، مثل ما يحصل عند استخراج الذهب، والفضة، والرصاص. وهذه الكهوف هي التي يسمّونها بالمِناجم.

"ومن منافعها: أنها تكون حُصونًا من الأعداء، يتحرّز فيها عباد الله من أعدائهم، كما يتحصّنون بالقِلاع، بل تكون أبلغ وأحصَن من كثير من القِلاع والمدن."

والمقصود: أنها تكون لأهل البلاد في الحروب بمثابة الحُصون.

"ومن منافعها: ما ذكره الله تعالى في كتابه: أن جعلها للأرض أوتادًا تثبّتها، ورواسي بمنزلة مَراسي السفن."

وهذا أمرٌ معلوم. فقد أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أن هذه الجبال عبارة عن رواسي في الأرض، أي: عبارة عن مثبّتات لها.

"هذا وإذا تأمّلت خِلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة؛ فإنها لو طالت واستدقَّت كالحائط لتعذَّر الصعود عليها والانتفاع بها، وسترت عن الناس الشمس والهواء، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها."

الآن الكلام عن الحكمة في شكلها: هي ليست كالحائط، ولو كانت طويلة واستدقَّت لحصل أمران:

- لَمَا استطاع أحد أن يرقاها، لكن بشكلها الحالي يستطيع الخلق أن يصعدوا عليها، فيجدوا منافعهم منها.
- لو كانت مثل الحائط لَسَتَرت الشمس والهواء، وحجزتهما عن الخلق، ولم ينتفعوا منها، لكنها بهذا الشكل صعودًا، وهبوطًا، وارتفاعًا، ونزولًا، أصبح الانتفاع بالهواء والشمس ممكِنًا.

"لو بُسِطَت على وجه الأرض لضيَّقت عليهم المزارع، والمساكن، ولَمَلَأَت السهُل، ولَمَا حصل لهم بها الانتفاع من التحصّن، والمَغارات، والأَكنان، ولَمَا سترت عنهم الرياح، ولَمَا حَجَبَت السيول."

لو بُسِطَت الجبال على الأرض بدلًا من ارتفاعها -بمعنى: لو أصبحت بنفس الحجم، لكن مبسوطة على الأرض مثل الهضبات- لَحَصَل أمران:

- لَضيَّقت الأرض المبسوطة على الخلق، ولَخَسِر الناس مساحات للزراعة وللمساكن.
- ولَمَا استفادوا منها في ردّ السيل عنهم، ولَمَا استفادوا منها في الحصانة؛ لأنها ستصبح مجرد أرض مرتفعة قليلًا عن أرض السهل، لا فائدة فيها.

"ولو جُعِلَت مستديرةٌ شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها، وأليقها، وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نُصبت عليه."

أنت تؤمن بحكمته سبحانه وتعالى في الفوائد التي أتت من وراء الجبال، وفي شكلها هذا. وكل هذا التأمّل والتخيُّل -"لو ماكانت كذا... ولو ماكانت كذا"- تفكيرٌ فيه إيمان بحكمة الله -عَّز وجلَّ-.

"ولقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلى النظر فيها، وفي كيفية خلقها، فقال: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} ".[1]

الشاهد: أن الله -عزَّ وجلَّ- أمرنا بالنظر {إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ}، والمقصود: أن هذه أحد العبادات التي تتقرَّب بها إلى الله، وتمتثل بها أمره. **فأنت حين نظرك إلى الجبال تعبد الله بأمور:**

- **الامتثال لأمره بالنظر.**
- **تعبده بعبادة التفكُّر التي أمرك بها.**

ثم أنك ستنتفع من النظر في شَغْل قلبك في الحق، ومن المؤكد أن مصلحة شَغْل القلب بالحق تورثك مصلحة أخرى وهي: شَغْله عن الباطل؛ فإن كل مَن انشغل قلبه بالحق، انشغل عن الباطل؛ لأن وسواس الشيطان لا يأتي إلا لشخص انشغل عن الحق، فيشغله بالباطل، ولذلك اشغل نفسك بالحق ما استطعت إليه سبيلًا!

[1] (الغاشية:١٧-١٩)

أريد أن أُشير إشارة لئلا يقع خلل هنا: أول ما تبدأ في التفكُّر وأنت لا تملك مَلَكَتَه القوية لابد أن يدخل عليك من الأسئلة والاستفهامات ما يُخشى أن يكون معه وسواس، لكن اعلم أن هذا إشارة الإيمان؛ لأن **المؤمن يتفكَّر في الكون، ويتدبَّر القرآن، فإذا وجد الشيطان منه نشاطًا أَشغَلَه بالباطل، وأَشغَلَه بالوسواس، فإذا دافع الإنسان ذلك، وبغضه، وكرِهه، وتمنَّى أن لو سقط من السماء ولم يتكلم بهذا الكلام، فإن هذا إشارة الإيمان**. ولا أقصد أن الوسواس بنفسه إشارة إلى الإيمان، وإنما بُغضك له هو الذي يشير إلى الإيمان.

لابد أن يفعل الشيطان فيك هذا الفعل، وهذا من عداوته المستديمة، ومن الإيمان: أن تدافعه، وتبغضه، وتبغض أفكاره، وتراغمه بالتدبر والتفكُّر، دون أن تستسلم!

مثلًا: تفتح القرآن وتجد أنك بدأت تتدبر، فيأتي لك الشيطان بوساوس، فتترك التدبر، وتقول: عندما كنت أقرأ –أي: بدون تدبر– كان حالي أحسن، ما كان يمرّ على خاطري مثل هذه الوساوس!

انتبه! هذه حيلة من الشيطان! افهم أن المطلوب منك وقت ما تأتيك الوساوس:

- أولاً: أن تكرهها، وتبغضها، وتتمنى أن تُلقى من السماء ولا تقولها.
- الأمر الثاني: يجب عليك مُراغَمَة الشيطان، ومدافعته، وإجبار نفسك على القيام بالطاعة.

*وأنا أتكلم هنا عن الوسواس الطارئ الذي يدخل على الإنسان، أما الوسواس القهري فله طريق آخر في العلاج.

"**فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها، وفاطرها، وعلمه، وحكمته، ووحدانيته، هذا مع أنها تسبح بحمده، وتخشع له، وتسجد، وتشقّق، وتهبط من خشيته.**"

انظر إلى هذا كله في الجبال سترى الحكمة، ثم ستعجب من أمر آخر: وهو أن هذه **الجبال لها عمل في العبادة يفوق عملك، فهي تسبح بحمد الله، وتخشع لله، وتسجد له، وتتشقَّق، وتهبط حجارتها من خشية الله**، وأنت لا تستطيع تأويل هذا إلا بقولك: أن حجرًا وقع! أن انهيارًا جليديًّا وقع! هذا الذي يقوله الخلق! ولا يعلمون أنها تسقط من خشيته –سبحانه وتعالى–

إذًا: **هناك مسارَين في التفكُّر**:

- المسار الأول: استحضار ما مُيّزت به المخلوقات في خلقتها، والمصالح العائدة منها.

تنظر إلى الجبال -مثلًا- فتقول: سبحان مَن خَلَقها بهذه الخِلقة، فانتفع الخَلق منها في كذا وكذا...!

كل يوم يقال لنا: أن الجبال فيها كذا، والسحاب فيه كذا،... لكن هذا يقال على لسان الملحدين والكافرين! فكن مؤمنًا بأن الله يخلق الخلق بحكمة، ويسوق لك الخير سَوقًا.

- المسار الثاني: أن تستظهِر الآيات التي تتكلَّم عن عبادة هذه الجمادات.

فحينما تراها تنظر لها من جهة حكمة الله في خلقها، ثم من جهة عظمة الله في كون هذه الأشياء العظيمة -التي حجمك بالنسبة لها لا شيء- تعظّم الله، وتسبّحه، وتنشقّ من خشيته، ولو نزل عليها القرآن، لرأيتها خاشعةً ومُتَصَدِّعةً من خشية الله. فهذا وجه آخر للنظر لمخلوقاته سبحانه وتعالى، فكما أن الحكمة تجري في خلقتها، كذلك العجب يكون في عبادتها، فتأمَّل هذا وتأمَّل هذا.

"هذا وأنها لَتعلم أن لها موعدًا ويومًا تُنسَف فيها نسفًا، وتصير كالعهن من هوله، وعِظمه، فهي مُشفِقَةٌ من هول ذلك الموعد، منتظرةٌ له، وكانت أم الدرداء -رضي الله عنها- إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لِمَن معها: أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟ فيقال: ما أسمعها؟ فتقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [1][2] - ".

وهذا أيضًا مما تراه في هذا المخلوق العجيب، فالجبال تعلم وأنت تعلم "**أن لها موعدًا ويومًا تُنسَف فيها نسفًا**"، وتُسَيَّر سيرًا، والجبال تؤمن بهذا الموعد المنتظَر، وهي من هوله وعظمته مُشفِقَة. ولذلك "**كانت أم الدرداء -رضي الله عنها- إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لِمَن معها: أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟ فيقال: ما أسمعها؟ فتقول:** {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ...}" الآية.

[1]

[2] (طه:١٠٥-١٠٧)

ماذا سيحصل للجبال يوم القيامة مع أنها عظيمة كل هذه العظمة؟ {يَنْسِفُهَا رَبِّي} العظيم الذي خلقها، فلا تستعظم عليه، {نَسْفًا} فيتركها قاعًا مساويًا للأرض. ما صفة هذا القاع؟ {صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} بمعنى: مستويًا، لا بروز فيه أبدًا.

الجبال عظيمة بارزة، يظن الناس من قوتها أنها لا تتحرك شبرًا، فسبحان من خلقها ووضعها هذا الوضع! وسبحان من جعلها آية! مَن آمن بأن الله هو العظيم: علِم أنه –سبحانه وتعالى– قادر على أن يجعل هذه الأشياء العظيمة لا شيء.

"فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقَّتها، وخشيتها، وتَدَكْدُكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أَنزل عليها كلامه لخشعت، ولتصدَّعت من خشية الله، فَيَا عجبًا مِن مُضغَة لحم أقسى من هذه الجبال! تسمع آيات الله تتلى عليها، ويُذكَر الرب تبارك وتعالى فلا تَلين، ولا تخشع، ولا تُنيب! فليس بِمُستَنكَر على الله – عز وجل– ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تَلِن بكلامه، وذكره، وزواجره، ومواعظه."

هذا البدن يستحق النار ما دام أنه لم يَلِن بكلام ربه.

*المطلوب منكم: قراءة سورة ص جيدًا، وفهم معانيها، وما لا تفهمونه سجلوه، وابحثوا عنه.

اللقاء السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا بفضل الله ورحمته نتكلم عن هذا الاسم العظيم اسم "الحكيم"، وقد مرَّ معنا أنه سبحانه:

١) حكيمٌ في **خَلقه** فَيَضعُ الأشياء في مواضعها، فلا تجد شيئًا من المخلوقات إلا وقد وُضِع في موضعه.

٢) وهو حكيمٌ سبحانه وتعالى في **شرعه**.

٣) وهو حكيمٌ سبحانه وتعالى في **أمره**.

٤) وفي **جزائه**.

وإذا نظرْت إلى حكمته في شرعه ستجد أن هذا الأمر يُناقَش من جهات:

أول ما يُناقش في هذا الأمر: هو حكمة الله عز وجل في إنزال الكتب وإرسال الرسل. انظر إلى حكمة الله، وكيف أنه سبحانه وتعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ ليُخرِجوا الناس من الظلمات إلى النور، وهذا الأمر سيجعلك تسلك مسالك في التفكير:

١) سيجعلُك تنظرُ من جهة حكمة الله في اختيار النبي صلى الله عليه وسلم.

٢) ومن جهة خُلُقِه صلى الله عليه وسلم.

٣) ومن جهة أن النبي صلى الله عليه وسلم عربيّ، وكيف أن الله عز وجل جعل في العرب من الميزات التي تجعلهم أهلًا لحمل الرسالة الخاتِمة، ويتحمّلون بها مسؤولية الخلقِ كلهم إلى قيام الساعة.

إذًا: **اختيار الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم اختيار حكيم**، فهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، فجعل النبيَّ صلى الله عليه وسلم علامةً على الكمال البشري، اختاره من خير الخَلق وأفضل الأجناس، وهذه الكلمة حينما تسمعينها لا تظني أن فيها تحيُّزًا، إنما مَن يدرسُ ما يسمّونه بـ"الجغرافيا البشرية" يَفهمُ هذا الأمرَ جيدًا، ويفهم أن الله عز وجل لما خَلَق الخلق جَعَل لهم

طبائع مختلفة، كما ورد في الحديث: "إن الله قَسَّمَ بينكم أخلاقكم كما قَسَّمَ بينكم أرزاقكم" [1]، والمقصود بالأخلاق هنا في الحديث: الأخلاق الطَّبْعِيَّة، يعني: قسَّم بينكم طِباعكم كما قسَّم بينكم أرزاقكم.

فإذا كانت جزيرة العرب صحراء قاحلة، قليلٌ ماؤها، كثيرةٌ جبالها، رمالها أعظم وأكثر رمالٍ في العالم، إذا كانت هذه صفاتها الجغرافية سنجد في المقابل أن لأهلها صفاتًا تناسب هذه الجغرافيا، فهم أكثر الناس شجاعةً، وأكثر الناس تحمُّلًا، وأكثر الناس دفاعًا عما يقتنعون به، وأكثرهم كرمًا، وأكثرهم حَمِيَّة من بين الخليقة، فإذا حملوا الحق دافعوا عنه، وحَموه، وبذلوا أموالهم وأرواحهم من أجله، فهم كرماء في بذل أرواحهم وأموالهم تجاه ما يعتقدون دونًا عن الخليقة -سواء كان اعتقادهم هذا باطلًا أو حقًّا-، ومن هذه النقطة أيضًا قد تصبح هذه الصفة عيبًا: لأنك لو أردت أن تفسر مثلًا حرب "داحس والغبراء" سترى أنهم يتقاتلون أربعين عامًا، ويفنى الناس، من أجل ماذا؟! من أجل ناقة!! ويتقاتلون لغير ذلك أيضًا من الأمور التافهة، لكن لماذا فعلوا هذا كله من أجل هذه الأمور التافهة؟ لأن فيهم ما يسمى بالحَمِيَّة، ولأن فيهم ما يسمى بالشجاعة، فهم لا يقبلون الدُّون، ولا أن يُداس لهم طَرَف على أي شيء حقًّا كان أو باطلًا.

فلما اختار اللهُ عز وجل النبيَّ صلى الله عليه وسلم من هؤلاء العرب اختاره وهو كامل الصفات، واختار أمته وأهله من العرب وفيهم هذه الصفات، إذا حملوا الحق بذلوا كل جهد من أجله، وإذا خابوا فتركوه بقيت فيهم الصفات لكن على الباطل. فهو الحكيم سبحانه وتعالى اختارهم من دون الخلق. ويأتي بعدهم الروم والفرس في صفاتهم.

لكن المقصود: هو أن ننظر إلى حكمة الله عز وجل في اختيار النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته، وكيف أن الله عز وجل اختاره من بين الخليقة، وكمَّل له صفاته، وكان نسبه من أشرف الأنساب، لماذا هذا كله؟ من أجل أن يكون نموذجًا عالَميًا، لا يستطيعُ أحدٌ أن يتَّهم النبي صلى الله عليه وسلم في صفة من صفاته، فهذا من حكمته سبحانه وتعالى في شرعه، أن الذي بلَّغ شرعَه عبدٌ من عباده كمَّله؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى مادحًا وصفه: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [2]، ومدْح الله عز وجل له بأنه على خلق عظيم معناه أنه سيكون حقًّا عظيمًا!

فما أتى مَن يستطيع أن يتّهم النبي صلى الله عليه وسلم في صفاته، **ولذلك نشْر صفات النبي صلى الله عليه وسلم بين الخليقة التي تحارب الإسلام سببٌ لإيمان أشخاص كثيرين**؛ فهم حينما يَعرفون مَن هو النبي؟ وما صفاته؟ وما حاله؟ وكيف هو مع أهله، وكيف أنه صلى الله عليه وسلم ما ضرب أحدًا لا صبيًّا ولا امرأةً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وكيف كرمه وجوده

[1] أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٨٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٥)، وأبو داود في الزهد (١٥٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٣)، أخرجه الإسماعيلي في معجم الشيوخ (٣/ ٧٢٦_٧٢٧).

[2] (القلم:٤)

وتعامله مع الصغير والكبير...، **كل صفات النبي صلى الله عليه وسلم هذه تحتاج إلى نشر؛ ليعرِف الناس كيف أن الله حكيم، ما اختار لرسالته إلا مَن كمَّله من الخلق.**

ومثل هذا سيزيدنا إيمانًا به صلى الله عليه وسلم، وسيزيد كلمة "الصلاة عليه" حياةً في قلوبنا. ألم تسمعوا قول النبي صلى الله عليه وسلم للرجل يوصيه لما سأله: كم أجعل لك من صلاتي؟ -بمعنى: كم أجعل لك من دعائي وقت ما أكون متوجّهًا أريد أن أدعو؟ بمعنى: كم أصلي عليك؟- ناقشها وناقشها إلى أن قال له صلى الله عليه وسلم: "اجعل لي صلاتك كلها، تُكفى همّك" [1].

من المؤكد أن هناك سؤال استفهام وهو: كيف أُكفَى همّي ويُغفَر لي ذنبي حينما أصلي على النبي صلى الله عليه وسلم في دعائي؟ سيحصل لك ذلك لأن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم دليلٌ على إيمانك أن الله حكيم، وأنه ما اختار لإبلاغ دينه إلا مَنْ هو كاملٌ من الخليقة. **فكانت الصلاة على الرسول إيمانًا بحكمة الله، وإيمانًا بالرسالة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وإيمانًا بكل الأخبار التي أتى بها الرسول، وهذا كله سيصبّ في إيمانك بالله عز وجل**؛ ولهذا مَن عَلِم مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وجد في نفسه رضًا عن الله أنه أرسل له رسولًا هذا تاريخه، رسولًا لا يستطيع أحدٌ أبدًا أن يعيب فيه.

كلكم تعلمون أن كل عظماء الدنيا لا بد أن يخفى من حياتهم خفايا، ولابد أن تكون فيهم نقاط سوداء تُطوى، أما حياته صلى الله عليه وسلم فقد نُشِرت نشرًا، فلا تجد فيها ما يعيب، لا تجد فيها إلا الكمال، وهذا سيجعلك تُثني على النبي صلى الله عليه وسلم، وتُثني على مرسِلِه الحكيم، الذي طيَّب النبي صلى الله عليه وسلم، وطيَّبَ ذِكره وحفِظ سنته، وجعل الخلق يتناقلون خُلُقه صلى الله عليه وسلم، ولذلك يُثنى عليه صلى الله عليه وسلم بالصلاة، وفي ثنايا ثنائك على النبي ثناء على الله العظيم، الرب الكريم الحكيم، الذي جعل خاتم المرسلين على هذه الصفة من الأخلاق.

إذًا: أول ما يتعلق بإيمانك أن الله حكيم في شرعه: إيمانك أن النبي الذي أرسله الله إلينا خاصة، وإلى الخليقة عامة، كمّله الله عز وجل، وأن آثار حكمة الله عز وجل تظهر في اختياره للنبي صلى الله عليه وسلم.

ومثل هذا الإيمان يجب أن يَنجَرّ على الأنبياء كلهم، فمن ضعف الإيمان أن لا تجد في قلبك حبًّا وشوقًا إلى جميع الأنبياء، من ضعف الإيمان أن لا تجد في قلبك مكانةً لإبراهيم عليه السلام وهو خليل الرحمن! من ضعف الإيمان أن لا تجد في نفسك مكانة لموسى عليه السلام وهو كليم الرحمن! **كيف لا تجد في نفسك مكانة للأنبياء جميعًا؟! كل اسم من أسماء هؤلاء العظماء يجب أن يكون له رنين خاص في قلبك، ويجب عليك عندما تسمع عنهم أن يجرّك ذلك للإيمان والتقوى.**

[1] رواه الترمذي في السنن/ صفة القيامة والرقائق والورع/ (٢٤٥٧) وقال حديث حسن صحيح، ورواه أحمد في مسند الأنصار رضي الله عنهم (١٣٦/٥)، والحاكم وصحّحه، و حسّنه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٩٥٤).

يكلم الله عزوجل موسى عليه السلام، فيقول له: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ} [1] ، اختاره الله وهو الحكيم، فمن الإيمان أن تؤمن به، وتتلمّس صفات كماله، وترى إيمانه. يقال له: {اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} [2] ، فيقول مباشرةً: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي} [3] ، مباشرةً: ما له إلا الله!

من إيمانك بحكمته سبحانه وتعالى أن تُقلّب في ذهنك سِيَرَ هؤلاء الأنبياء العظماء الذين اصطفاهم الله، من إيمانك بالحكمة أنك ما تراهم في موطن إلا وتقول: الله حكيمٌ، أرسل موسى عليه السلام إلى قومه. الله حكيمٌ، أرسل شعيبًا إلى قومه. الله حكيمٌ، أرسل إبراهيم إلى قومه، وهكذا .

تبيّن لنا إلى هنا أن الله عز وجل:

١- **حكيم في خلقه**. (وناقشنا ذلك الأسبوع الماضي)

٢- **حكيم في شرعه**. ورأس الشرع: أن نتكلم عن:

- النبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله.
- وعن الكتاب الذي أنزله الله.

فمن الإيمان بحكمة الله في شرعه: أن تؤمن بهذا الكتاب العظيم الذي حفظه الله من كل تحريف، وأظهر فيه الآيات العظيمة.

سنرى هذا في مواطن متعددة، وسنبذل جهودنا -إن شاء الله- في الانتفاع بوقفات مع القرآن، و**سأُطيل في هذا الموضوع لسبب: وهو أن شهر رمضان مُقبِل علينا**، وهذا الشهر العظيم يستلزم منّا العناية بالقرآن. فأهل العلم يقولون: "**ما فُرِض الصيام في رمضان إلا لأن الكتب نزلت فيه**" ، وأعظمها القرآن، والله عزّ وجل في سورة البقرة لما أخبرنا عن شهر رمضان قال لنا: {**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**} [4] ، دلالةً على أن هذه هي[5] ميزة الشهر، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ" [6] .

---

[1] (طه:١٣)

[2] (طه:٢٤)

[3] (طه :٢٥-٢٧)

[4] تفسير ابن كثير (٣٦٧/١)

[5] (البقرة:١٨٥)

[6] رواه البخاري في صحيحه/ كتاب الإيمان/ بَاب صَوْمُ رَمَضَانَ احْتِسَابًا مِنْ الْإِيمَانِ/ (٣٨). ورواه مسلم في صحيحه/ كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح/ (٧٦٠).

فأنتِ تريدين أن تُقبِلي على شهر القرآن بالقرآن، وتريدين أن تُقبِلي على شهر رمضان بالإيمان، وإن بذلتِ الآن جهدك في تدبر القرآن، سيظهر لكِ أمران معًا عندما نقضي هذه الأيام:

← ستظهر حكمة الله العظيمة في كتابه.

← ولن تظهر حكمة الله في كتابه إلا بالتدبر.

فسنخدم هاتين الفكرتين معًا في نفس الوقت، وسنجعل نماذج تفصيلية لذلك –إن شاء الله–.

سنبدأ بأهم مسألة:

متى ستُدرك عظمة القرآن، وحكمة الله عز وجل في إنزاله؟

ستُدرك ذلك عندما يكون لك نصيب في اللغة؛ لأن ضعف اللغة سبب عظيم لضعف التدبر، وسبب عظيم لعدم الإحساس بعظمة القرآن، وكلما مرّنت نفسك على أن تفهم ما تستطيعه من مفاهيم اللغة كلما زدت فهمًا للقرآن، ولا أعني بذلك أن تصبح "سيبويه" في اللغة! لا! ولكن اعطِ نفسك قواعد في اللغة، وليس المطلوب هو أن تحفظ القواعد وتسمِّعها، وتضرب لها أمثلة في الأخير، لا! ليس بهذه الصورة، بل قواعد تستطيع من خلالها أن تفهم القرآن.

فأول أداة يجب أن تكون معك –بعد اليقين بأن القرآن كتاب الله، وأنه كلام الله–: هي أداة اللغة.

كلما صار معك نَهَم للغة كلما بدأت تشعر بعظمة القرآن؛ لأنه ليس كأي كتاب، ولا يمكن لمثل هذا أن يقوله البشر! مستحيل! إلا أن ضعف اللغة يسبّب عدم الشعور بهذه المسألة.

سنضرب اليوم بعض الأمثلة المتفرقة:

أولًا: سورة الكافرون:

هي السورة التي كثيرًا ما يُخطئ الناس عند قراءتها وحفظها، ولحل المشكلة يقولون لِمَن يريد حفظها: عدّ بيدك عدد آياتها! يقع الخطأ في السورة بالرغم من قِصَرها! والسبب هو شيء مهم وهو عدم فهمنا لها! نحن نشعر في داخلنا أن السورة فيها تكرار، لكننا نستحي من ذلك، داخلنا هذه المشاعر، لكننا ساكتون عنها.

لن تفهم مسألة هذه السورة إلا حينما تفهم الجملة في اللغة العربية. سنذهب الآن إلى اللغة، وسنفهم فقط شيئًا بسيطًا جدًّا: الفرق بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية –بمعنى: الفرق بين الاسم والفعل–.

وهذا ليس صعبًا! فالقاعدة تقول:

كل **اسم** يدل على **الثبوت**، وكل **فعل** يدل على **الحدوث والاستمرار**.

- الله عز وجل يقول: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)} هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتبرأ من الكافرين.
- ثم يصف النبي صلى الله عليه وسلم حاله مرة أخرى: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)}.
- ويصف حالهم مرة أخرى: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)}.

ما الفرق بين وصف النبي صلى الله عليه وسلم لحاله، وبين وصفه لحال الكافرين؟

وصف النبي صلى الله عليه وسلم لحاله	وصف النبي صلى الله عليه وسلم لحال الكافرين
جملتان مختلفتان:	جملتان متطابقتان:
{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)}	{وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)}
{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)}	{وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)}

الآن السؤال: لماذا تغير وصف النبي صلى الله عليه وسلم؟ ولماذا ثبت وصفهم؟ وماذا يريد أن يخبرنا بذلك؟

النبي صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه عبادة الأصنام في الحالتين، ولكن بصيغتين مختلفتين:

← فقوله: {لَا أَعْبُدُ} فعل منفي، أي: أنه صلى الله عليه وسلم نفى استمرار ذلك الفعل.

← وقوله: {عَابِدٌ} اسم، ونفى الثبوت بقوله: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ}.

بمعنى: أنه صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه عبادة الأصنام في الحالتين: الثابتة والمتجددة، إذًا: هو نفى عن نفسه عبادة الأصنام في جميع الأزمنة.

← ولو اقتُصِر على الفعل: يمكن أن يُقال هذا أمرٌ حادثٌ وسيزول، فالفعل فيه الحدوث فقط، فكأنه يقال: لو قال: {لَا أَعْبُدُ} الأصنام الآن، إذًا يمكن أن يقال له: ستعبدها في المستقبل.

← ولو اقتُصِر على الاسم لقيل: صحيح أن هذه صفةٌ ثابتة، لكن قد يحدث غيرها، فليس ثبوت هذه الصفة معناه استمرارها على هذا الوصف؛ لأن الإنسان قد يفارق وصفَهُ.

إذًا: ماذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلن لهم؟ **أراد أن يعلن براءته بالصيغتين: الفعلية والاسمية.**

قال لهم بالصيغة الفعلية: **لن يحدث مني مثل هذا.** وبالاسمية قال: **وأنا ثابت على ذلك.** وهذا هو تفسير الآيتين في وصف حاله صلى الله عليه وسلم.

يأتي السؤال الثاني: لماذا ثبت وصف حالهم؟

نفى الله عنهم عبادته بصيغة الجملة الاسمية فقط: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} مرتين، ولم يذكر الجملة الفعلية. على أي شيء يدل هذا؟ يدل على ثبوتهم على حالهم في العبادة.

وهذا يناسب بداية السورة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، ولم يقل: "يكفرون"، فـ"الكافرون" اسم يدل على الثبوت، أي: الثابتون على كفرهم، ولأن "الكافرون" اسم دال على ثبوت الوصف كان معنى الآية: يا مَنْ وصْفُ الكفْر ثابت لهم، فناسَبَ أن تأتي الجملتين اسميتين {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)} {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)}.

نبدأ الآن من أول السورة، وكأننا نفسرها:

١- {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} أي: يا مَن ثبت في حقهم وصف الكفر.

٢- أنا بريء من أن أعبد وأن يحدث مني العبادة لغير الله.

٣- وأنتم ثابتون على كفركم على عبادة غير الله.

٤- وأنا سأستمر على أن لا أعبد إلا الله.

٥- وأنتم ثابتون على عبادة غير الله.

إذًا: تبرَّأ النبي صلى الله عليه وسلم من الدخول في الشرك، ومن مجرد حدوث هذا، وتبرَّأ من أن يفعل أو يدخل في ذلك مستقبلًا.

لابد أن ترددوا هذا الكلام على عقولكم حتى لا تخطئوا! هذه السورة وسورة الإخلاص تسميان بـ"سورتي الإخلاص"، وسورة الكافرون من أعظم السور التي فيها البراءة من الشرك، إذًا: لابد وأن لها منزلة عظيمة في الدين، فكيف تخطئ في قراءتها؟!

هل يمكن لخلقٍ أن يأتوا بمثل هذا الكلام والسَّبْك العظيم؟ مستحيل! مستحيل أن يأتوا بمثل هذا السَّبْك الذي تظهر فيه أنواع البراءة، ومناسبة الجُمَلِ لحالِه صلى الله عليه وسلم، ومناسبتها لحال الكافرين، وكل ذلك في آيات مختصرة قصيرة، معناها عظيم! ولهذا الذي لا يفهم هذا: لا يفهم إعجاز القرآن؛ فالقرآن فيه ألفاظ لا يمكن أن يأتي بها إلا حكيم عليم.

مثال آخر: أسماء مكة المكرمة

اللفظ	مكة	بَكَّة
السورة	سورة الفتح	آل عمران
الآية	قال تعالى:{وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ **مَكَّةَ** مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}	قال تعالى:{ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي **بِبَكَّةَ** مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ}
السياق	في سياق الكلام عن الفتح	في سياق الكلام عن الحج وتشريعه
دلالة الاسم في السياق	إشارة إلى أن هذه القرية المشهورة المعروفة باسمها بين العرب، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج منها، فلما أُشير إلى فتحها ما سُمِّيَتْ إلا باسمها المشهور (مكة).	أصل معنى (بكَّة): من البَكّ، وهو شدة الزحام. فأتت بهذا الاسم في سياق الأمر بالحج للإخبار بهذا المعنى اللطيف، الذي يدل على أن الحج فيه الزحام.

وهنا الإشارة إلى أن هذا لا يأتي من الخلق أبدًا، لابد أنه كلام من لَدُن حكيم عليم.

وهذه الأمثلة يسيرة جدًّا في بحر الألفاظ القرآنية، التي من واجبنا أن نتلمّسها.

مثال آخر:

سنعود إلى الجملة الاسمية والفعلية: لاحظوا أن ألفاظ (الإيمان) و(المؤمنين) تأتي دائمًا بصيغة الأسماء؛ لأن هذا دليلٌ على ثبوت الإيمان، بينما نجد أن لفظة (الإنفاق) تأتي فعلًا في كل الآيات؛ لأن فيه الدلالة على استمراره، إلا في آية واحدة وصف الله المؤمنين فيها بأنهم {المُنْفِقِينَ} ، فأتى الإنفاق هنا اسمًا: للدلالة على ثبوت هذه الصفة لهم.

الأصل هو: أن يأتي (الإنفاق) في القرآن بصورة فعل، ويأتي (الإيمان) بصورة اسم؛ لأن الإيمان: ثبات. والإنفاق: استمرار وتجدّد. وحينما آتى وصفًا للمؤمنين دلّ أيضًا على ثباتهم عليه. وسنرى من هذا عَجَبًا!

سنكتفي بهذه الأمثلة، ونبدأ الآن بالاتفاق على ما سنفعله في سورة (ص):

ما هو المطلوب منكم لتقرؤوا السورة غدًا قراءة صحيحة؟

---

[1] (الفتح:٢٤)

[2] (آل عمران :٩٦)

[3] (آل عمران:١٧)

أولًا: ستقرئين السورة في جلسة واحدة من أولها إلى آخرها دون أن تقطعي القراءة.

ثانيًا: سنحدد (موضوع السورة) عن طريق تقسيمها إلى موضوعات.

ثالثًا: ستجدين في السورة: قصصًا لبعض الأنبياء. المطلوب منكِ أن تبحثي: أين ورد الخبر عن هؤلاء الأنبياء في كتاب الله؟ فتسجّلين ذلك بعمل جدول، مع كتابة الآيات التي ورد فيها كل نبي من الأنبياء –الذين وردوا في سورة (ص) فقط–؛ لأننا سنقوم بالمقارنة بين مواطن (ص)، وبقية المواطن في القرآن.

*تذكرين في الجدول –مثلًا–: داود عليه السلام. أين ذكر في موطنٍ آخَر في القرآن؟ ذُكر في سورة كذا وسورة كذا، من آية كذا إلى آية كذا، وهكذا.

*واذهبي إلى "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن" ليسهل عليكِ الأمر –إن شاء الله–.

رابعًا: عدّي ولاحظي الألفاظ التي كُرِّرت في السورة بنفس اللفظ والمادة.

خامسًا: لاحظي بداية السورة وخاتمتها (وهذه من الملاحظات المهمة جدًّا).

سنضرب لهذه الخطوة أمثلة ليتضّح المراد:

١. سورة البقرة.

بداية السورة	خاتمة السورة
{الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...}[1]	{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...}[2]
(علاقة المقدمة بالخاتمة) **ستفسرين أول السورة بآخرها: من هم {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}؟** **فتقولين: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...}.**	

وهذا هو الإعجاز العجيب! ستجد بين بدايات وخواتيم كل السور صلة لا تنفكّ أبدًا، وهذا الأمر يحتاج إلى عِلم لتفهمه.

٢. سورة آل عمران.

بداية السورة	خاتمة السورة

[1] (البقرة:١-٣)

[2] (البقرة:٢٨٥)

{ الم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي: **لِما سبَقه** {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ}	{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا}
(علاقة المقدمة بالخاتمة) **ما موقف أهل الكتاب من القرآن؟** **ستجدين أن الله عز وجل أخبر في خِتام السورة: أن من أهل الكتاب مَن يقع منه الإيمان، قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا}.**	

سورة آل عمران نزلت في وَفْد نجران الذين أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال لهم: أسلِموا. قالوا: أسلمنا من قبل. فرَدّ الله عليهم: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} ، وقد تكرّرت كلمة (الإسلام) في السورة، **وعندما تجدين أن كلمةً تكررت في سورة ستفهمين أن هذا هو الموضوع الرئيسي لها.**

ثم خُتِمت سورة آل عمران بأن غالب هؤلاء موقفهم هو الإنكار، ولكن منهم مَن يؤمن بالله، ويؤمن بما أُنزل إليك.

سادسًا: لاحظي العلاقة بين خواتيم السورة ومطلع السورة التي بعدها.

فهذه العلاقة بين السور تدل على أن هذا القرآن لا يكون إلا من حكيم عليم، وكما تعلمون أن ترتيب المصحف توقيفي –أي: لا يمكن تغيير ترتيب سُوَره–. انظري إلى هذا التوقيف العجيب! تُختَم هذه السورة بمفهوم، فتبدأ السورة التي تليها بمفهوم يُؤيّده!

سنضرب مثالًا لتتضّح هذه الخطوة: لاحظي العلاقة بين سورتي (هود) و(يوسف)، –وهذا أغرب مثال يُضرَب!– ستجدين أن خاتمة سورة هود هي مقدِّمة لسورة يوسف، وهكذا في كل القرآن.

خاتمة سورة هود	مطلع سورة يوسف
{وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ	{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}

[1] (آل عمران:١-٣)
[2] (آل عمران:١٩٩)
[3] (آل عمران:١٩)
[4] (هود:١٢٠)
[5] (يوسف:٣)

(العلاقة بين خاتمة السورة السابقة بمطلع السورة اللاحقة)

أي: نحن نقصّ القصص من أجل تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه القصص التي نقصّها عليه هي أحسن القصص.

فلو كنت شديد التنبُّه سترى عجبًا في كتاب الله! لا يمكن أن يكون كلام بشر! فمع طول سورة البقرة يأتي أولها موافق لآخرها، ومع طول آل عمران يأتي أولها مؤيّد لآخرها، ومثله في الأعراف والأنفال، وفي كل السور، تُفتَتح السور وتُختتَم بمفاهيم متقاربة تكاد تكون كالآية الواحدة، هل يمكن أن يكون هذا كلام بشر؟! مستحيل! وسنرى أعجب من ذلك حين نتدارس سورة (ص) -إن شاء الله-.

أسأل الله أن ينفعنا بهذه الدراسة، وأن تكون سببًا لزيادة إيماننا به، وزيادة انتفاعنا بالقرآن، اللهم آمين.

اللقاء الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا زلنا بفضل الله ومنّته نتدارس هذا الاسم العظيم اسم الله (الحكيم).

وقد مرّ معنا أن هذا الاسم معناه: أن لله عز وجل وصف الحكمة والحُكم، فحُكمه كله حِكمة، والحكمة معناها: وضع الأمور في مواضعها، فلا يُعاب على واضِعها أبدًا. وهو حكيم سبحانه وتعالى في كل أمره ونهيه، وشرعه، وفي خلقه، وتصريفه للأمور، وتدبيره.

فإذا تأمّل عبد ناضج تخلّى عن هواه سيجد الحكمة في كل هذا، لكن الهوى هو الذي يجعل الخلق لا يرون حكمة الله في مخلوقاته أو في شرعه وأمره وجزائه، فما أن يوافق الشرع هوى الإنسان إلا ويعترف أن كله حكمة، أو يكون من العقلاء الذين تجرّدوا من هواهم، فرأوا شرع الله عز وجل وأمره كله حكمة.

اتفقنا على أننا سنناقش حكمته سبحانه وتعالى في شرعه، واتفقنا أن **الحكمة في الشرع تتجلّى في أمرين:**

- **تتجلّى في إرسال الرسول –صلى الله عليه وسلم–.**
- **وتتجلّى أيضًا في إنزال الكتاب.**

فالكتاب يتضمن الحكمة العظيمة، وسترى حكمته تتجلّى في الأخبار والأوامر والنواهي –كما ذكر الشيخ السعدي في النقاش الأول–، وقبل هذا كله تتجلّى في أن هذا القرآن تحدى الله أن يأتي أحد بمثله. ما المطلوب منك من أجل أن تفهم هذا التحدي؟ أن يظهر لك شيء من عظمته وبلاغته، وهذا لا يكون إلا بتدبرك لآياته.

واتفقنا أننا سنتدبّر سورة (ص)، وأخذنا نموذجًا على ذلك: سورة الكافرون، وكيف أن مَن يُهمل سورة الكافرون لا يتبين له أن فيها معانٍ عظيمة اجتمعت في كلمات مختصرة، وكيف أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أظهر براءته من الشرك في تلك اللحظة، وفي كل لحظة، وأن كل عبد عليه أن يُظهر براءته من الشرك في هذه اللحظة، وفي حياته كلها، وأن هذا المعنى إذا لم يتجلّى لك لن تكون شاهدًا به، إذا لم تفهم سورة الكافرون ستعترف بأي شيء؟ وستتبرأ من أي شيء؟ ستكون السورة بالنسبة

لك مجرّد مفهوم عام، لكن المفهوم الدقيق هذا يجعلك تقف عند كل آية، لا يجعلك تعامل القرآن كأنك تعامل عَدَّادًا، لا يجعلك تقول لأحد حتى لا يُخطئ: عُدّ جُمَل السورة! وإنما ستقول له: افهم الجُمَل! افهم ما يقوله الله عز وجل وسترى عجبًا!!

ومِن هذا العجب ما سنراه في وقفات مع:

سورة (ص)

أيُّ سورة تبتدئ بحروف مقطّعة لا بد أن يكون فيها إشارة للحديث عن الكتاب وعظمته -إما إشارة مباشرة أو غير مباشرة-، وسنرى الآن في سورة (ص) ما سيظهر من عظمة القرآن.

ما السبب في كون هذه الحروف تأتي للإشارة للقرآن؟ ليقال لك: القرآن متكوّن من الحروف، وهذه الحروف أنت تُدركها، وتستطيع أن تُركّب منها كلمات، والله يتحداك أن تأتي بمثله: فتعال إلى هذا الذي تتكلم به، وأنشئ به كلامًا بليغًا مثل القرآن!

وإذا تأمّلتم وحصرتم الحروف التي ورد فيها التحدي ستجدون أنها نصف الحروف الهجائية، أتى من كل نوع من الحروف نموذج عليه. مثلًا: الحاء، والجيم، والخاء، ماذا أتى منها؟ الحاء. الصاد، والضاد: أتى منهما: الصاد، وأتى من الحروف الحلقية حرف، ومن حروف الهمس حرف، وهكذا. فترى عجبًا في كون حتى هذه الأحرف أتت كالنموذج لباقي الحروف، فيقال لك: تكلَّم بهذا الكلام، وائتِ بمثل هذا الإعجاز!

يقول سبحانه وتعالى: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} . الله عز وجل يقسم بالقرآن؛ لأن الواو هذه تسمى: واو القسم. و{الذِّكْرِ} معروف. لكن ما معنى {ذِي}؟ هو اسم إشارة، لكن {ذِي} هنا ليست بمعنى صاحب، إذًا على ماذا تدل؟ ما المشاعر التي تقع في قلبك عندما تمرّ عليك مثل هذه الكلمات الغريبة؟ لن توقِع أي مشاعر لأنها غير مفهومة! فكل ما أفهمه من قوله تعالى: {ص * وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} أن {ص}: حرف، وبعد ذلك كلام عن القرآن، وأنه ذكر. أما {ذِي} فليس لها مكان عندي! لا محل لها من الإعراب عندي! ولا محل لها من الشعور! مع أن هذه الكلمة تُضاف إلى الأشياء الرفيعة، ويُشار بها إلى الأشياء ذات المنزلة العالية.

[1] [ص: ١]

المفترض أن يقع في قلبك وأنت تقرأ هذه الكلمة أنها إشارة لشيء عظيم، وها هي هنا تشير إلى القرآن بالعظمة: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}، أي: والقرآن **الذي له مكانة عظيمة** في الذكر. فـ{ذِي} عبارة عن حرفين! لكن السامع الذي يفهم سيعلم أن الذي سيأتي الكلام عنه هو شيء عظيم.

ثم قال تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا} في أي شيء؟ {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} .[1]

ما هذا الانتقال بين الآيتين {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}؟ ما معنى {بَلِ}؟

ما الذي يحصل عندما تقرأ القرآن؟ تفصل بين الآيات، فتقرأ هذه الآية لوحدها، وهذه الآية لوحدها، وهذه الآية لوحدها، وهكذا! فتصبح المعاني متقطّعة غير منظومة، فما يتأثر قلبك بها، ولا تثير مشاعرك.

الله عز وجل خلق في قلبك مساحة فارغة للمعرفة، وخلق فيه المشاعر. مساحة المعرفة هذه املأها معرفة قوية صلبة ذات ثقل، وهذه المعرفة ستؤثر على مشاعرك، وإذا أثّرت على مشاعرك ستعمل سريعًا، لن تجرّ بدنك للعمل جرًّا.

ودائمًا نقول: كلما قرأت القرآن زاد إيمانك، كلما قرأته زادت المساحة المعرفيّة، وامتلأ قلبك به، فزاد شعورك وتأثرك بآياته، فتصبح بمجرد أن تسمع هذه الكلمات تُثار تجاهها. لكن المشكلة هي أننا ينقصنا قراءة جُمَل القرآن باعتبار أنها منظومة متصلة.

ما دلالة {بَلِ}؟

{بَلِ} في اللغة للإضراب، بمعنى أنك لو أردت أن تفهم قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} بالمعنى الظاهر ستقول: **لكن** الذين كفروا في عزة وشقاق.

ماذا سيصبح المعنى عند الجمع بين الآيتين؟

{ص * وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} أي: يُقسم الله بالقرآن؛ لأنه عظيم، وله مكانة عظيمة، ومدائح عظيمة، وله أثر على القلوب؛ لأن فيه الذكر الذي يُصلحها، وهو يرفع صاحبه، ويجعله من المذكورين عند الله، (لكن) سبب عدم انتفاع الذين كفروا من القرآن: أن لهم صفتان:

١. أنهم {فِي عِزَّةٍ}.

[1] [ص: ٢]

٢. وأنهم في {شِقَاقٍ}.

ولذلك لم يكن للقرآن أثر عليهم، ليس لعيب في القرآن! بل لأن في قلوبهم عِزّة وشِقاق.

وسنبحث بعد ذلك عن معنى {عِزَّة} و{شِقَاق}.

عندما تأتي هذه المعاني الجزئية لابد أن تُرَكَّب على المعنى العام، بحيث يصير لكِلا الجملتين معنى واحدًا متصلًا. عندما تريدين أن تفهمي قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} وأنتِ لا تعلمين أن (بل) معناها (لكن)، لن تظهر لك علاقة الآية الثانية بالأولى.

نحن نريد أن نضع أيدينا على الثغرات! مثلًا: (ذي) عندي مشكلة فيها، (بل) عندي مشكلة فيها، ومثل هذا لا يجعلني أرى القرآن سياقًا واحدًا يوصلني إلى المراد.

ثم يقول الله عز وجل: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ} يعني هم في عزة وشقاق، وعليهم أن يعتبروا بمن قبلهم، {فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} ابحثوا عن معناها في لسان[1] العرب.

لماذا هم في {عِزَّة} و{شِقَاق}؟ لأنهم أُصيبوا بالعَجَب. {وَعَجِبُوا} أي: وقع لهم العجب من حال النبي -صلى الله عليه وسلم-. عجبوا من ماذا؟ {أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ}، سبحان الله! يعجبون أن يأتيهم منذِر منهم، ماذا يريدون إذًا؟ من أين يريدون المنذِر؟!

{وَقَالَ الْكَافِرُونَ} عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصفين: {هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} ، وسيظهر لكِ وأنتِ تقرئين الآيات: على ماذا قالوا ساحر، وعلى ماذا قالوا كذاب.

ثم جاءت أسئلة استفهام هامة من الكافرين:

- قالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا} ؟ هذا أول سؤال عندهم.[3]
- سؤالهم الثاني: {أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا} ؟[2]

[1] [ص: ٣]
[2] [ص: ٤]
[3] [ص: ٥]

هم يستعجبون من هذين الأمرين.

ما الأمر الذي يناسبه رميهم للرسول صلى الله عليه وسلم بالسحر؟ وما الأمر الذي يناسبه رميهم له بالكذب؟

قولهم: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا}؟ يناسبه السحر؛ لأنه أتاهم بما لم يكن معهودًا عندهم.

وقولهم: {أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا}؟ يناسبه الكذب؛ لأنه -في نظرهم- ادّعى شيئًا دعوةً لشرفه، وأنه يكذب في ادِّعائه ليرفع نفسه.

عندما تقرأ القرآن وتجد شيئًا من الأوصاف، أو من الدعاوى، لابد أن تبحث من أين أتى هذا الوصف؟ ما أصله؟ ما سبب قولهم هذا؟ هل وقع في عقولكم أثناء قراءتكم للسورة سؤال استفهام: لأي شيء قالوا عنه ساحر كذاب؟ إذا ما وقع السؤال فهذا يدل على نقص في القراءة؛ لأنك لابد أن تجد في السورة ما يجيبك، فلا تعتمد في الإجابة على تفكيرك، بل الجواب موجود في السياق. والمشكلة أننا عندما نقرأ لا نربط الآيات ببعضها! بحيث يكون هنا السؤال وهنا الإجابة، هنا الخبر وهنا بيانه، لا نتصور أن المسألة هكذا! لا ننظر للآيات على أنها مسبوكة على معنى واحد، ولهذا لا نشعر بإعجاز القرآن.

أتى في السياق بعد ذلك إخبار الله عز وجل عن الأنبياء، وسنعتبر هذا كله مقطعًا واحدًا إلى الآية (١٦)، ثم يبدأ من الآية (١٧) خطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- بأن يصبر، وأن يَذكُر داود عليه السلام. وسيُذكَر أيضًا سليمان و أيوب -عليهما السلام-. والمعنى: اذكرْ هؤلاء من أجل أن تعلم أن **النبوة فيها بلاءات، وأن البلاءات ترفع من شأن المُبتَلى**.

لكننا سنرى الآن عجبًا:

- **((داود عليه السلام))**

وردت قصة داود -عليه السلام- في أربعة مواطن من القرآن:

١. في سورة الأنبياء.

٢. وفي سورة النمل.

---

[١] [ص: ٨]

٣. وفي سورة ص.

٤. وفي سورة سبأ.

وأنتم قارنتم بين ورودها هنا في سورة (ص)، وبين ورودها في باقي السور. هل القصة متشابهة في كل المواطن؟ لا. قصة داود عليه السلام في سورة (ص): ورد فيها ذكر "الخصم" و"يختصمان"، فانظري للتوافق بين "ص" و"خصم"، وتكرُّر حرف الصاد في قصة داود عليه السلام في سورة (ص)، مع العلم أنه لم يَرِد ذكر الخصم في قصته إلا في هذه السورة.

تكرَّر ذِكر داود عليه السلام في القرآن، وفي كل موطن تُذكر قصته مناسبة للسورة، ففي سورة (ص) وجدنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يُؤمر بالصبر، وأن يَذكر ابتلاء داود عليه السلام، وصبره على هذا الابتلاء، وأن الله رفع مكانه. وبلاء داود عليه السلام كله كان في اختبار الله عز وجل له في الخصم، فأتى ذِكر: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ} [١].

- **((أيوب عليه السلام))**

مما اشتهر في وصف أيوب -عليه السلام- أنه صابر. وردت قصته في موضعين من القرآن:

١. في سورة الأنبياء.

٢. وفي سورة (ص).

في الأنبياء وردت قصته من جهة وقوع البلاء عليه، ومن جهة دعائِه، واستغاثته بربه، لكن لم يُوصف فيها بأنه "صابر"، وإنما وُصف بذلك في (ص).

هل التوافق اللفظي هذا متبيّن؟! أتى في سورة (ص) من وصوفات للأنبياء ولأحوالهم فيها حرف "الصاد"، ومع موافقة القصة للحال، لكن لما ذُكرت ملابساتها وأوصافها أتى وبرز فيها حرف "الصاد"، ومثل هذا تَعجَز عن الإتيان بمثله، تعجز أن تستشهد بقصة مناسبة في المكان المناسب ثم تكون بهذه الصورة.

مُدح الأنبياء في هذه السورة بأنهم {أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} [٢] ، مع العلم أنهم لم يُمدَحوا بهذا الوصف إلا في (ص).

---

[١] [ص:٢١]

[٢] [ص:٤٥]

المسألة تحتاج إلى شيء من التركيز! وحتى نزيد الأمر بيانًا ولتتصوروا هذه المسألة، كيف أن الله عز وجل عندما يُقسِم بالقرآن، فإنه يقسم على شرف القرآن ومكانته، ويبدأ بحروف يُظهِر لك بها أنك لو تريد أن تأتي بمثل هذا القرآن في الحبْك وفي إنزال الأشياء منازلها، ولو قضيت عمرك كله في ذلك، واجتمعت مع مَن اجتمعت فإنك لن تستطيع!

لم ننتهِ من سورة (ص)، لكننا أظهرنا سريعًا كيف برز في هذه السورة عجْز الإنسان أن يأتي بمثل هذا القرآن، من كونه يأتي موافقًا للحكمة، ويُرشد الإنسان للحق، ثم يأتي بألفاظ مناسبة لِمَا ابتدأت به السورة.

سورة (ق)

سنأتي الآن بمثال من سورة (ق)، وسنبدأ من عند آية: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ}[1].

وصوفات الآخرة والموقف كله مناسب لمشهد القيامة، وقد لا تلحظ حرف "القاف"، وتسير مع المعنى، لكن تأتي ألفاظ فيها ما أقسم الله عليه، ليقال لك: أليس هذا حرفًا من الحروف؟ انظر كيف سيوصَف المشهد كله بغاية من الإتقان والإظهار، وستأتي الكلمات فيها هذا الحرف الذي أنت تتقنه.

[1] [ق:١٦-٣٣]

سورة القلم

مثل هذا سيكون ظاهرًا جدًّا في سورة القلم: سنجد في السورة هذه الألفاظ: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ...} إلى آخر السورة.[1]

أنت لو ما لاحظت النون ستلاحظ سبكًا، ومعنًى مفهومًا واضحًا، ما فيه أيّ إشكال، لكن ما أن تضع عينك على النون ستجد عجبًا، ستجد أن هذا المعنى المسبوك الواضح الذي أتى في مكانه، أتى فيه هذا الحرف بدون تكرار للألفاظ، بألفاظ وضِعت في مكانها، والمعاني ظاهرة فيها.

مَن يأتي بمثل هذا؟ {لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[2] .

ادرس سورة كسورة القلم دراسة بعيدة عن حرف النون، ادرسها وانظر إلى سبْكِها وانتقالاتها، ثم ستعجب لو لاحظت أن غالب الآيات تُختم بالحرف الذي أقسم الله به. ومع أن هذا الحرف هو مما تدركه، ومما تستطيع أن تكوّن به كلامًا، لكنك لن تستطيع أن تكوّن به كلامًا بليغًا، فيه جمل ذات معاني تامّة الاستقامة، دون أن تُكرِّر الألفاظ.

مما يلاحَظ في القرآن أيضًا –غير مسألة القَسَم والحروف–: البدايات والخواتيم. وهذا مما يجب عليك أن تلاحظه، وتجعله أمام عينيك.

نرجع إلى سورة (ص):

لو لم تلاحظ الحرف ستجد معنىً مسبوكًا، وقصص أتى شاهِدُها مناسب لحال النبي صلى الله عليه وسلم، لكنك ستُفَاجَأ – مثلًا– بأن أيوب عليه السلام ما وُصف بأنه "صابر" إلا في سورة (ص)، وما أتى ذكر "الخصمان" إلا في (ص). وأنتِ عندما تراجعين سورة (ص) بهذه النظرة ستتبين لك غير هذه المواطن التي يبرز فيها هذا الحرف.

وهذا يظهر خاصة في هذه الثلاث السور التي بدأت بحرف واحد. وفي سور الحروف المقطعة الأخرى –مثل: (طه) (طسم)– سيظهر بالطبع نوع آخر من عظمة القرآن، لكن هذا يحتاج إلى أن تتقدموا في علم البيان والبلاغة؛ لتتصوروا المسألتين معًا.

---

[1] [القلم:١-٧]

[2] [الإسراء:٨٨]

من أدلة صِدق هذا القرآن: ورود أخبار الأولين فيه. وعندما تنظرين في سورة (ص) ستجدين الشاهد على ذلك، فالأخبار التي أتت عن داود وعن سليمان وعن أيوب عليهم السلام، هل هي أخبار خاصة بنا؟ أم أنها موجودة في كتب اليهود والنصارى؟ الجواب: أنها موجودة في كتب اليهود والنصارى. يبقى الآن موقفي وأنا أنظر إلى حكمة الله مثلًا في قصة داود عليه السلام :[1]

عندما تقرئين قوله سبحانه وتعالى على لسان داود: {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ} -أي: تيقّن- {دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ} ، ماذا تفهم من هذه الجملة الأخيرة؟ تفهم أن داود عليه السلام فُتِن. لكن ما حال هذه الفتنة؟ لم يُذكر لك في القرآن تفاصيلها.

تصوّروا كيف تكلم اليهود عن فتنة نبيهم! أليس داود من أنبياء بني إسرائيل المعظَّمين عندهم؟ وهم يحاربون في فلسطين – أزالهم الله– يبحثون عن هيكل سليمان؟! ويرونه من ملوكهم العظماء. ومع ذلك قالوا في حق نبيهم: أنه رأى امرأة فأُعجِب بها، ثم عَلِم أنها زوجة لأحد جنوده، فجيّش جيشًا؛ ليَخرُج فيه هذا الجندي، فيُقتَل فيه، لكنه لم يُقتل، فأرسله مرة أخرى، فلم يُقتل، فأرسله مرة أخرى إلى أن قُتِل!! يعني داود عليه السلام يضحّي بكل هؤلاء من أجل هذا!! هكذا يتكلمون عن الأنبياء! ثم بعد أن يحصل هذا كله ويتزوجها، يأتيانه الملَكان فيتسوّران محرابه –على أنها ملَكان، لا على أنهما خصمان– فيختصمان، فيَفهم داود عليه السلام في ذلك الوقت أنه أخطأ لما أخذ زوجة الرجل! والله هذا الكلام يستحي الواحد أن يقوله على عامة الناس! فكيف يُقال على نبي؟! كيف يُقال على نبي أنه يفعل هذا كله من أجل أن يَصل إلى شهوته؟! كيف يمكن أن يُتَّهم الأنبياء بهذا؟! وهذا الخبر مسجل عندهم بحروفه في التوراة المحرَّفة.

أما في القرآن فيقال لك: انظر للخبر: الله عز وجل فتن داود عليه السلام، إما تكون فتنته: أنه سمع من طرف واحد، وإما أن تكون غير ذلك، الله أعلم بها! لكنك لا تستطيع أن تستقبح من داود عليه السلام أي فعل، فأنت عندما تقرأ هذه القصة هل يقع في قلبك تجاه داود عليه السلام أي شعور غير أنه نبي، وأن الله يُخبر بأنه فُتِن، ثم الأهم من ذلك أنه استغفر، وخرّ راكعًا، وأناب؟ وأنك تسجد في موطن سجوده، وأنه من بين الذكر الذي يقال في سجود التلاوة: "اللهم تقبّلها مني كما تقبلتها من داود"، هل تَفهم شيئًا من القصة غير شرف الأنبياء؟ انظر لهذا الإعجاز! الله عز وجل لم يخبرنا حتى عن تفاصيل الفتنة التي فُتِن بها؛ ليبقى هؤلاء العظماء عظماء في نفسك، ولم تُكلَّف أن تبحث عن الفتنة، وإنما أخبرك القرآن عن النتيجة المطلوبة منك.

[1] قصة داود والفتنة التي حصلت له من القصص التي انقسم الناس أمامها إلى أقسام.

[2] [ص: ٢٤]

ما هي تلك النتيجة المطلوبة منك؟ مطلوب منك عندما تأتيك الفتن أن تَستبصِر؛ فقد وُصف الأنبياء في نهاية القصص بأنهم {أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}، أي: لهم بصيرة في قلوبهم يلاحظون بها الحال. فقيل لك: ماذا تفعل عندما تُفتن وتقع في أي خطأ؟ أسرِع إلى الله، استغفِر كما يستغفر الأنبياء، وخُرّ راكعًا، وأنِبْ إلى الله عز وجل، واستسلِم له، وكُن مثل هؤلاء العظماء الذين مدحهم الله. ومثل هذه الأخبار لا تأتي إلا من عند الله، وانظر ماذا فعل الخلق في وصفها وتأويلها وتفسيرها لما أتت من عندهم!

استفدنا أشياء كثيرة مما أخبرنا الله به عن داود عليه السلام في سورة (ص)، منها: قاعدة في الفقه: {إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ}. ومعنى ذلك: أن الخُلطة في الأموال تحتاج إلى قوانين.

وأنتم لا تتصورون كم من الأحكام سنخرج بها من قصة داود عليه السلام، لكن أن تترك الأحكام، وتترك النتائج، وتترك الاعتقاد، وتبحث عن حال فتنة داود عليه السلام، ثم تجد إسرائيليات فتدخل إلى قلبك فتشوّه صورة هذا النبي، تكون بذلك قد خسرت قيمة القرآن في قلبك؛ لأن من دلائل عظمة القرآن وحكمة الله فيه: أن يبقى هؤلاء العظماء في مكانهم عظماء، وحتى عندما تأتي أخبار عن بعض ما حصل معهم، فإن حالهم لا يتحرك، وتبقى لهم نفس المكانة.

من الخطأ ونحن نقرأ القصص القرآني ألّا نتلمّس حكمة الله؛ وذلك بسبب حرصنا على أن نفهم تفاصيل في القصة لا تعنينا، تفاصيل ما ذكرها الله لنا، أو نكون قد تلوّثنا في بداية أعمارنا بقراءة شيء من هذه القصص والإسرائيليات، أو بمشاهدة ومتابعة شيء من الأفلام التي يصفون فيها مثل هذا القصص، ونأتي بفكرنا الملوّث هذا على القرآن، فينتفي عنّا ظهور حكمة الله في ذكر مثل هذه القصص والفوائد التي تتبع ذلك.

لا تلوّث عقلك بإسرائيليات، ولا بكلام ليس له أصول، ولا تلوّث عقلك بأفلام عرضوا فيها الباطل، وإنما اقرأ كلام الله، واعتقِد ما يقوله الله لك.

لذلك نحتاج أن نعمل تجربة على قصة من القصص –سواء قصة داود، أو قصة سليمان عليهما السلام–ونمرّ على كل كلمة من القصة، ونذكر منها فائدة، ونخرج منها بنتيجة. **فمن حكمة الله أن تُروى لك قصة في أقل من عشرة آيات، ثم تكون منهجًا لحياتك.** سبحان الله!

إذًا مررنا بـ: **ثلاث وقفات تُظهِر حكمة الله في هذا القرآن:**

- **الوقفة الأولى:**

من أجل أن تظهر لك حكمة الله في القرآن: اقرأ القرآن على أنه متتابع في فَهمه، وليس جملًا متقطّعة منفصلة، فالآيات لا تُفصل عن بعضها حال فهمها، بل لابد من تكوين روابط بينها، لابد أن يكون عندك هذا السؤال: ما الحكمة في ذِكر هذه الآية بعد هذه الآية؟

مثلًا: لا بد أن تسأل عند قراءتك لسورة (ص) هذه الأسئلة: لماذا أخبر الله في سورة (ص) أنهم قالوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم: أنه ساحر كذاب؟ ما الذي جعلهم يعتقدون أنه ساحر؟ وما الذي جعلهم يعتقدون أنه كذاب؟ ما دلالة ذكر قصة داود وسليمان وأيوب عليهم السلام هنا؟

وهذا مثل ما مرّ معنا في قوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[1]، وأتت الآية التي بعدها تذكر خلق السماوات والأرض بالحق: {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ}[2]، ثم أتت آية: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ}[3]. فأنت لو لم تسأل عن الرّابط بين الآيات الثلاثة لن تفهم المعنى!! ستظن أن هذا مقطوع عن هذا، وهذا أعظم عيب يجعلك لا ترى حكمة الله في القرآن.

- **الوقفة الثانية:**

ألفاظ القرآن تُختار باعتناء، فكلام الله عز وجل كله حق وحكمة. ورأينا ذلك في تتبّعنا في سورة (ص)، وفي سورة (ق)، وفي سورة (القلم).

- **الوقفة الثالثة:**

وقفنا على شيء من حكمة الله في القصص القرآني، وذكرنا أن **الله عز وجل يقصّ علينا قصص الأنبياء لتكون سير هؤلاء العظماء بالنسبة لنا منهج حياة، فنسير في حياتنا على سيرهم.**

---

[1] [الجاثية: ٢١]
[2] [الجاثية: ٢٢]
[3] [الجاثية: ٢٣]

أنت ستقابلك الفتن، وستقابلك المصائب، وسيقابلك المال، ...والخ، فكن في سيرتك مع الفتنة كداود، ولتكن سيرتك مع المال كسليمان، ولتكن سيرتك مع البلاء كأيوب، وهكذا.

اللقاء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا –بفضل الله ومنّته– نناقش هذا الاسم العظيم: اسم (الحكيم).

وقد مرَّ معنا في النِّقاش: أن آثار حكمة الله –عزَّ وجلَّ– تظهر في:

- أمره.
- وشرعه.
- وخلقه.
- وجزائه.

وما زلنا نناقش حكمته سبحانه وتعالى في **شرعه**، وشرع الله يتمثَّل في:

- إرساله الرسول.
- وفي إنزاله الكتاب.

وقفنا بين يديّ الكتاب، وظهر لنا أن هذا القرآن نزل من لَدُن حكيم عليم سبحانه وتعالى، وأن **آثار حكمته في القرآن تظهر في**:

- مواضيعه.
- وفي ألفاظه.
- وفي بدايات السّور وخواتيمها.
- وفي اتِّصال آياته كالسلسلة الواحدة.

فهو كتابٌ متشابه لا يتناقض، يظهر تشابهه في حسنه وكماله، ويدلَّ من أوَّله إلى آخره على أنه كتاب منزَّل من عند الله.

وقفنا أمام سورة (ص) نتأمَّل فيها، وظهر لنا شيء من حُسنِها، وكنا قد اتَّفقنا على أن تقسّموها؛ ليظهر لكم موضوعها، واتِّصالها ببعضها، ولنرى كيف يظهر فيها الحُسن، والكمال، والتشابه -الذي هو ضد التناقض-؛ ومن ثم نرى نموذجًا على حكمة الله في هذا الكتاب.

بدأنا من الآية الأولى إلى الآية الحادية عشر، وهذا هو الجزء الأول من صدْر السورة: قال تعالى: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}[1]، وفيه:

- الكلام عن القرآن ومكانته.
- وسبب عدم انتفاع الكفار به.

أولًا: اتَّفقنا أن {ص} هذا الحرف الذي هو من حروف التهجّي، يدل على تحدي الله -عزَّ وجلَّ- لقارئ القرآن: أن القرآن من هذه الحروف التي تعرفها، لكن أين أنت من بلاغته؟ لماذا لم تأتِ بمثله؟

ثم أقسم الله- عزَّ وجلَّ- بالقرآن؛ لأن الواو للقسم في قوله: {وَالْقُرْآنِ}.

وأنه: {ذِي الذِّكْرِ} أي: ذو المكانة والشرف العظيم، ومن {الذِّكْرِ}: تذكير الناس بما يغفلون عنه.

ما دام أن القرآن {ذِي الذِّكْرِ}، وهو سبب لتذكير الناس، ما سبب كفر الكافرين؟ {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} "بل" أتت هنا بمعنى: "لكن". أي: لكن الذين كفروا فيهم صفتان: {عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}:

١. {عِزَّةٍ} بمعنى: غرور.
٢. و{شِقَاقٍ} بمعنى: عِناد.

ما جزاؤهم بسبب أنهم عاملوا القرآن بهذه المعاملة؟ الجواب: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ}، فماذا فعلوا ؟ {فَنَادَوا}، وماذا قالوا؟ {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ}[2].

← {وَلَاتَ} مكوّنة من:

---

[1] ( ) (ص:١-٢)
[2] (ص: ٣)

١. "الواو"، وتسمى: واو الحال.

٢. و"لات" من أخوات "ليس"، التي هي "لا النافية"، وزِيد عليها التاء، لكنها خاصة بنفي الزمن.

← {حِينَ} ظرف زمان. أي: فنادوا والحال ليس وقت مناص.

← {مَنَاص} أي: نجاة، فَوْت، خروج من الأزمة.

لماذا {مَنَاص} وليس أي كلمة أخرى؟ ليظهر هنا حرف "الصاد".

ثم انظر لهذه التركيبة العجيبة: {فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ}، أي: نادوا والحال ليس وقتًا للهروب أو الفَوْت.

من المؤكد أننا نُلام على حالنا في التعامل مع مثل هذه الكلمات المهمة التي وردت في القرآن، التي يرد في ذهني سؤال استفهام عنها، ثم أجعلها معنى مجملًا! بهذه الطريقة لن تصل لظهور حكمة القرآن وجماله، لن تصل إلا إذا كان عندك قوة في وضع السؤال المناسب في المكان المناسب. وقد لا تجد إجابة، لا بأس، هذه ليست مشكلة، لكن المشكلة هي ألّا تظهر لك أسئلة!

ما الرابط بين الآية الأولى والثانية؟ الله –عزَّ وجلَّ– أقسم بالقرآن، وأنه {ذِي الذِّكْرِ}، أي: يذكِّر الناس بما هم عنه غافلون، ثم تأتي الآية الثانية تبيّن: أن سبب كفر الكافرين، وعدم انتفاعهم بالتذكير بالقرآن: أنهم {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، ثم ماذا سيحصل لهم؟ سيحصل لهم كما حصل لِمَن قبلهم، {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا} والحال أنه ليس وقتًا للفَوْت والنجاة.

ما سبب كون الكافرين {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}؟ قال تعالى: {وَعَجِبُوا} –أي: وقع لهم العجب– {أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [١].

لماذا وصفوه صلى الله عليه وسلم بساحر؟ لأنه أتى لهم بكلام ما سبق لهم أن سمعوه، ولم يألفوه. وبتعبير آخر: أتى لهم بـ"هَرْطَقَة". ماهي هذه "الهرطقة" في نظرهم؟ أنه جعل {الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا} [٢].

[١] (ص:٤)

[٢] (ص: ٥)

ماذا فعلوا تجاه هذا المعتقد؟ جيَّشوا جيوشهم: {وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} أي: أنه يريد تشويه عقيدتكم.

{مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} : هذا كلامهم تجاه دعوة الرسول -صلى الله عليه وسلم-: أنه جعل {الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا} .

{أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا}؟!

الكافرون اتّهموا النبي صلى الله عليه وسلم بالسحر والكذب، وذلك لسببين:

- وصفوه بأنه ساحر لأنه جعل {الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا} .
- وصفوه بأنه كذّاب لأنه يقول: أنه أُنزِل عليه الذِّكر من بينهم.

فردَّ الله عليهم، {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} . إذًا هذا أوّل الرَّد: أن الذّي[3] جعلهم يشكِّكون في أمر النبي صلى الله عليه وسلم: أنهم في شك من ذكر الله، بل الحقيقة: أن هذا حالهم بسبب أن الله عاملهم بحِلمه.

ثم قال تعالى: {أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} ؟! أي: هل عندهم خزائنُ[4] رحمة الله —عزَّ وجلَّ- من أجل أن يمنعوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم النُّبوَّة؟!

ثم وصف الله —عزَّ وجلَّ- نفسه بأنه: {الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ}؛ لأن العزَّة معناها: أنه لا يُغالِبه أحد، و{الْوَهَّابِ} معناه: المُعطي. فهو عزيزٌ يَهَب مَن يشاء ما يشاء، ولا يستطيع أحد أن يتعدَّى على أمره.

ثم قال تعالى: {أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} . أي: إذا كان لهم المُلك[5] ويحجبون ما يريدون {فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ}!

---

[1] (ص: ٦)
[2] (ص: ٧)
[3] (ص: ٨)
[4] (ص: ٩)
[5] (ص: ١٠)

ثم يقول لهم سبحانه وتعالى: {جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ}[1]. الله —عزَّ وجلَّ— يقول لنبيّه: هؤلاء الجند سيجتمعون في مكان ما، وسيصبحون أحزابًا، ثم سيُهزَمون. وسورة (ص) مكّية، أي: أن هذا الخبر أتى في مكة، ثم تحقَّق في المدينة —سواء كما قال قتادة: في بدر. أو كما قال غيره: في غزوة الخندق في الأحزاب—.

أين تظهر حكمة الله، وما يدل على صدق هذا القرآن؟ أن الله يخبر باجتماعهم أحزابًا، وبهزيمتهم التي ستقع، بالرغم من أن النبي —صلى الله عليه وسلم— في مكة، وفي حالة ضعف! وهذا دليل على أن هذا القرآن أتى من لَدُن حكيمٍ عليم، وأنه سبحانه وتعالى يجعل في قلب نبيّه الثِّقة اليقينيَّة بانتصار هذا الدين، مهما كان في الظاهر ضعيفًا، وبعيدًا عن النُّصرة.

إذًا: رأينا كيف أن آيات الصفحة الأولى —من أول آية إلى آخرها— متتابعة، ومرتبطة ببعضها تمام الارتباط. وعندما تقرأ وتجد أن عندك فجوة في القراءة فإنك لن تصل —بسبب هذه الفجوة— إلى ما يريده الله. **لابد أن تحرص على فهم التَّرابط بين الآيات**؛ لأن القرآن ما أتى متقطِّعًا أبدًا، وإنما هو وصلة واحدة، لدرجة أنك كلَّما زِدت علمًا وفهمًا ستجد أن القرآن من سورة الفاتحة إلى سورة الناس عبارة عن قطعة واحدة.

الآن أسألكم: ما هي الكلمات الصعبة عليكم في كل هذه الصفحة؟ سنقول: كل تركيبة {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} تحتاج لبيان، لكن باقي الآيات كلها واضحة. إذًا: المشكلة كانت في عدم ظهور ارتباط الآيات ببعضها فقط! ثم أننا لم نحتَج لفهمها إلى تفسير، فقط فهمنا آية آية، ثم ربطنا بين الآيات، وهكذا. لكن متى حصل لنا هذا الفهم؟ عندما أثرنا أنفسنا بأسئلة استفهام.

لو قرأت التفسير دون أن تضع أسئلة، فإن صاحب التفسير سيجيب، لكنك لن تفهم كلامه، لن تفهم أن هذا هو المعنى الذي ينقصك. ولذلك كثيرًا ممن لا يستعمل هذه الطريقة تجده يقرأ مثلًا في "تفسير السعدي" —وهو ما ننصح باقتنائه خاصة في بداية التدبُّر—، ثم يقول: لم أفهم منه شيئًا! بالطبع لن تفهم منه شيئًا؛ لأنك أصلًا لم تظهر لك أسئلة عند قراءتك للقرآن، وبالتالي تبحث عن إجابتها في التفسير. التفسير لن يفكِّر بدلًا منك، التفسير يجاوب على تفكيرك فقط.

نأتي للآيات التالية: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ}[2].

[1] (ص: ١١)
[2] (ص:١٢-١٣)

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ} أي: قبل قريش {قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ} بماذا وُصف فرعون؟ {ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ}. يعني: كل جماعة من هؤلاء كانت حزبًا، وكلهم كذَّبوا رسلهم، فماذا فعل الله بهم؟ أوقع بهم العذاب. وهذا كان قبل مشركي العرب.

هنا عندي شاهد مهم على صحة القرآن: وهو أن فرعون وُصف بأنه {ذُو الْأَوْتَادِ}، والوتد: هو شيء من خشب أو حجارة، وُضع وثُبِّت في الأرض بقوَّة، بحيث أن الذي يراه يرى ثباتًا في الأرض. وأنت الآن ترى هذه الأوتاد. انظروا إلى الأهرام، تُرى كأنها ثابتةً في الأرض، كأنها وتد.

وُصف فرعون في القرآن بأنه {ذُو الْأَوْتَادِ}، وغالب العرب ما رأوا أوتاده؛ لأنهم كانوا ذوي رحلة إلى الشام واليمن، وليس إلى مصر. ووُصف بذلك أيضًا للدلالة على عظمة مُلكه، وسلطانه في الأرض، وكثرة بناياته الثابتة التي لا تحرِّكها الرِّياح. فهل يمكن أن يعرف الرسول-صلى الله عليه وسلم- أو مَن كان معه هذا الخبر إلا أن يأتي من عند الله -عزَّ وجلَّ-؟! إذًا {ذُو الْأَوْتَادِ} خبر من السماء، من عند الله.

على أي شيء اجتمع {قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ}؟ اجتمعوا على: {إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ}. كلهم كذَّبوا الرُّسل؛ فاستحقوا العقاب. وهذا تهديد لقريش.

ثم قال تعالى: {وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ}[٢].

ما معنى {فَوَاق}؟ هو اسم للزمن الذي يفصل ما بين حَلبتيّ الناقة. فالناقة عندما تلد يأتي حليبها في الضرع، لكنه لا ينزل إلا إذا أتى مولودها؛ فإذا أتى رضع منها، ويتركونه يرضع، ثم يدفعونه ويضعون آنيتهم فيحلبوها، ثم يبدأ نتاجها يقل، فيعيدوا لها وليدها فترة من الزمن، ثم يعودون مرَّةً أخرى فيحلبوها.

والعرب تسمِّي هذه الفترة الزمنية بين الحلبتين: "الفواق". فتصوَّري عندما تأتي هذه الكلمة لشخص عربيّ، يفهم معناها، ويفهم أن هذا وقت ضيِّق جدًّا، كأنه: لا وقت! فتأتي هذه الكلمة في أذنه، فيتصوَّر أن العذاب سيأتي صيحةً واحدةً، وأنه لن يكون هناك وقت ليأخذوا أي استراحة، بل سيذهبون فينتهون.

---

[١] (ص:١٤)

[٢] (ص:١٥)

ومن هذا المعنى أصبحنا نستعمل كلمة "الإفاقة".

نحن الآن نقوم بتجربة: ننظر نظرات إلى كمال القرآن، فنرى أن **القرآن أتى بكل مُعجِز، ولا يفهم إعجازه وحلاوته وطلاوته إلا الذي يعرف اللغة العربية، فضعفك في اللغة جعلك محدود الإثارة.**

{وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} . "القِطُّ" بمعنى: القِسط من الشيء الحسن. والمعنى أنهم قالوا: يا ربنا عجِّل لنا قِسطنا من الشيء الحسن قبل يوم الحساب! بمعنى أنهم: يستهزؤون بكلام النبي –صلى الله عليه وسلم–، فكأنهم يقولون: أنت تقول: أننا سنُعَذَّب. فعجِّل لنا قسطنا من هذا! فيجعلون العذاب "قِطًّا" لهم –أي: شيئًا حسنًا–.

كلما زدتِ علمًا زدتِ عُمقًا في فَهم النصوص. فمن أجل أن تفهمي أنهم يستهزؤون، لم تحتاجي إلا لفهم كلمة {قِطَّنَا}، والبلاغة تظهر في كوننا فهمنا من هذه الكلمة الواحدة أن كلامهم فيه تكذيب واستهزاء بالنبي –صلى الله عليه وسلم–. والمقصود: أن **اللفظ الواحد من الألفاظ القرآنية ينقل مشاعرك إلى مفهومٍ جديد، وعندما يضعف فهمك للَّفظ سيضعف تحريك النص لمشاعرك.**

رأينا الآن أن قريشًا استقبلت النبي صلى الله عليه وسلم بالاستهزاء به. فأنت لو كنتِ في مجال دعوة عائلتك، وقلتِ لهم –مثلًا–: لا تختلطوا، لا تستعجلوا في إفساد بيوتكم، "الْحَمُو الموتُ" . فقالوا لك: نحن نختلط ببعضنا من عشر سنوات ولم يُصِبنا شيء! ...إلى آخر هذا الكلام. لا تظني أن هذا الأمر حصل لك وحدك، لا تظني أنك الوحيدة التي أُستُهزئ بها! اقرئي في سورة (ص)، وسترين أن العرب كانوا يكذبون ويستهزؤون، ويقولون لله –عزّ وجلَّ– {عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا}، **فإذا أُستُهزئ بك، فاعلمي أن لك سلف سابق قد أُستُهزئ به،** ألا ترين أن قريشًا استهزأت بالنبي صلى الله عليه وسلم في كذا وكذا!!

العلم يبدأ بخطوة. **افترضي أنه بقي لي يومان فقط في هذه الحياة، فلنقضِ هذين اليومين في فَهم آية من كتاب الله، ولي الشرف أن أُقبض على فهم الكتاب،** فمن خرج مهاجرًا في سبيل الله، فقُبض في طريقه، كُتب عند الله مهاجرًا، حتى لو لم يبلغ مَهجَره. والمراد: أن الأجر يقع بالنِّية والشروع في العمل، لا أن تجلسي أمام القرآن، وتنوي أن تفهميه! لا يكفي هذا!

نعود مرةً أخرى إلى التقسيم: مررنا في مطلع السورة على نوعين من إعجاز القرآن:

---

[1] (ص:١٦)

[2] رواه البخاري في صحيحه/ كتاب النكاح/ باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة/ (٤٩٣٤). ورواه مسلم في صحيحه/ كتاب السلام/ باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها/ (٢١٧٢).

١- إعجاز في ألفاظه.

٢- وإعجاز في أخباره.

ورأينا خبرين:

الخبر الأول: أن الأحزاب ستُغلَب. وهم في مكة يسمعون هذا الخبر.

الخبر الثاني: أن يقال عن فرعون -الذي لا يعرفونه، وإنما هم يسمعون خبره فقط-: أنه {ذُو الْأَوْتَادِ}، فيخبرهم الله عن حاله في بلده، وهم بعيدون عنها.

وكل هذا دالٌّ على عظمة القرآن، وصدقه، وعلى حكمة الله في الأخبار.

سنعتبر الآيات من آية (١) إلى آية (١٦) جزءًا واحدًا، وأن هذه الصفحة الأولى كلها تتكلَّم عن:

- عظمة القرآن.
- وحال المكذِّبين له.
- وتهديدهم.

بعدها سيأتي المقطع من آية (١٧) إلى آية (٢٦): قال تعالى: {اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

سنقف وقفات عند قصة:

- **((داود عليه السلام))**

وردت قصة داود -عليه السلام- في أربعة مواطن من القرآن:

٥. في سورة الأنبياء.

٦. وفي سورة النمل.

٧. وفي سورة ص.

٨. وفي سورة سبأ.

وُصف داوود -عليه السلام- في سورة (ص) أنه: {ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} إلى أن أصل إلى قوله: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}. سنلاحظ:

- أن داوود -عليه السلام- ما وُصف بأن له {فَصْلَ الْخِطَابِ} إلا في سورة (ص).
- وأن قصة "الخصم" لم تأتِ إلا في سورة (ص).

الآن سنرى التقسيمات، ونعرف الرَّوابط بين الآيات؛ لأننا إذا فقدنا الروابط فقدنا التسلسل المنطقي للنص في عقولنا. فلو سألنا:

- انتهت القصة بالتحذير من الهوى في قوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ}. فماذا يفعل بك الهوى؟

أتى الجواب في هذا التقرير: {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

- ما الرابط بين قصة داوود -عليه السلام- (٢٦-١٧)، وبين الآيات (٢٩-٢٧)؟

المفترض أن يكون الرابط ظاهرًا، وذلك بالنظر لآخر آية (٢٦): {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} ما جزاؤهم؟ {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} لماذا؟ {بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}. فكأنه يقال: كيف تنسى يوم الحساب؟! يجب عليك ألّا تنساه. إذًا ما الذي سيذكّرك به؟ الجواب: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} [١].

يجب عليك أن تذكر يوم الحساب؛ لأن الله حكيم، لا يمكن أن يخلق الله الخلق، فيعمل هذا العبد سوءًا، ويعمل هذا خيرًا، ثم يموتون ولا يُجازَون! هذا مستحيل! ومستحيل ألّا يكون هناك يوم قيامة؛ لأن هذا معناه أن السماوات والأرض خُلِقتا باطلًا! والله –عزَّ وجلَّ– ما خلقهما باطلًا.

إذا رأيت أن السماء والأرض وُضعتا في مكانهما، وكل شيء وُضع في مكانه، فاعلم أن الله سيضع أهل الحق في مكانهم، وأهل الباطل في مكانهم، لكن متى؟ يوم الحساب. فكيف تنسى يوم الحساب؟! لابد أن يبقى هذا اليوم على بالك. (سنجد أن هذا السِّياق يشبه سياق سورة الجاثية)

ثم قال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [٢].

لاحظي أن المفسدين في الأرض هنا: هم أنفسهم: {الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، وداوود –عليه السلام– نموذج لـ{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وأمره الله بقوله: {فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ} لكي لا يكون {كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ}.

إذًا معنى ذلك: أن الآيات من آية (١٧) في قصة داوود إلى آية (٢٨) كلها سياق واحد؛ لأن الله في آخر قصة داوود يقول: {بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}، فكيف ينُسى يوم الحساب والسماوات والأرض كلها تدل على حكمة الله؟! {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا}. لابد أن يأتي يوم الحساب، فكما جعل الله السماوات والأرض في مكانهما؛ سيجعل المتَّقين في مكانهم، والفجَّار في مكانهم.

آية (٢٩) سنؤجّلها إلى أن نرى ما بعدها.

- **((سليمان عليه السلام))**

---

[١] (ص:٢٧)

[٢] (ص:٢٨)

قال تعالى بعد ذلك: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} . الصلة واضحة بين الآيات[1].

سنلاحظ هنا: {وَهَبْنَا}، وفي بداية السورة: {الْوَهَّاب}. سليمان هبة لداوود –عليهم السلام– من جهتين:

الجهة الأولى: أن الأولاد بنفسهم هبة.

الجهة الثانية: أن النُّبوة هبة.

فالله –عزَّ وجلَّ– جمع لداوود في سليمان نوعين من الهبات: هبة البُنوَّة، وهبة النبوَّة.

وردت قصة سليمان –عليه السلام– في أربعة مواطن من القرآن:

١. في سورة الأنبياء.

٢. وفي سورة النمل.

٣. وفي سورة ص.

٤. وفي سورة سبأ.

لم يَرِد الكلام عن {الصَّافِنَات}[2] إلا في سورة (ص).

وذُكرت الريح في سورتي الأنبياء وسبأ، لكن لم يُذكر لفظ: {حَيْثُ أَصَاب} إلا في سورة (ص).[3]

لم يُذكر أن الله سخر له {الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} إلا في سورة (ص).[4]

عندما تحفظ مثل هذه السورة، وتبدأ تقارن بين مواطن ذِكر سليمان –عليه السلام–، سترى من الإعجاز في الألفاظ: أن أوصافه تأتي في كل سورة بما يناسب السورة، وفي نفس الوقت بما يناسب في المعنى، ثم تُختار له الألفاظ التي تُناسب السورة، حتى

[1] (ص:٣٠)
[2] (ص:٣١)
[3] (ص:٣٦)
[4] (ص:٣٧-٣٨)

تصل لدرجة أن الحروف مناسبة للسورة أيضًا! وهذا كله دليل على أنه لا يمكن أن يكون هذا القرآن من عند الخلق، لابد أن يكون من لَدُن حكيمٍ خبير. **مهما كان عند الخلق من قدرة وبلاغة، فإنهم لا يمكنهم أن يأتوا بمثل هذا، ومن جرَّب عرف!**

مثلًا: أريد أن أكتب قطعة لطلاب في الصف الثاني الإبتدائي، وأريد أن أُبرز لهم حرفًا، وفي نفس الوقت أطبِّق قاعدة نحوية، وأقول لهم معلومات صحيحة. قد أفكِّر فيها شهرًا حتى آتي بها، ثم بعد ذلك أجد أن أول مَن سيراجعها بعدي سيقول: ماهذا الكلام! هذا كلامٌ غير مرتَّب. فمَن جرَّب إنشاء جُمل من أجل إيصال شيء، سيفهم أنه يعجز عن ذلك عند أول تجربة.

مثلًا: يوجد مفهوم في التعليم اسمه: "التَّكامل التعليمي"، يحتاج إلى عشرين لجنة من أجل أن يتم، وتُبذل لأجله الجهود والمراجعات، وفي النهاية يستحيل أن يأتوا بهذا التكامل كما ينبغي. بعكس كلام الحكيم الخبير سبحانه وتعالى.

والمقصود: أن مثل هذا النظر في القرآن نوع من أنواع التعبّد. من العبادة أن تكرر القراءة، ثم تخرج فتقول: سبحان الله! لكن جمال هذا الكلام لن يظهر إلا لمَن تعبَّد، وتأمَّل، وفهم.

ننتقل الآن إلى:

- **((أيوب عليه السلام))**

قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} نلاحظ هنا لفظة: "نُصْب"[1] {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} وهنا لفظة: "صابر". وتسمع طوال السورة لفظة: {وَاذْكُرْ}. وكنا قد اتفقنا أننا لابد أن ننتبه للكلمة المتكررة، ولابد أن تفهم: ما سبب هذا التكرار؟ ولمَن الخطاب؟ وما فائدته؟ كل هذه الأسئلة لابد أن تجيبوا عليها.

ثم قال تعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}[2] .[3]

لا زالوا يوصَفون بصفاتٍ متقاربة، وأنت تحتاج أن تجمع: بماذا وُصف داوود -عليه السلام-؟ بماذا وُصف سليمان -عليه السلام-؟ بماذا وُصف أيوب -عليه السلام-؟ بماذا وُصف -إبراهيم وإسحاق ويعقوب -عليهم السلام-؟

---

[1] (ص:٤١)
[2] (ص:٤٤)
[3] (ص:٤٥)

وُصف إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب بأنهم: {أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}، ولم يوصَفوا بهذا الوصف إلا في سورة (ص)، ثم وُصِفوا بوصف آخر: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} ، وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذُكرت فيه هذه الصفة في حقِّهم.

{إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ} أي: إنا خصصناهم بصفة: {ذِكْرَى الدَّارِ}. يعني: خُصُّوا بخصيصة أنهم يذكرون الدار الآخرة دائمًا أمام أعينهم، لا يغفلون عنها. ومن المؤكد أن هذه الصفة العظيمة لها علاقة بأول السورة، وأيضًا لها علاقة بقصة كل مِن داوود، وسليمان، وأيوب –عليهم السلام–. فلابد أن تعرفي أن الكلام عن الدار الآخرة من عند المشركين إلى هنا هو كلام متَّصل، بينه علاقة تحتاجين أن تتنبَّهي لها.

سنعود مرة أخرى للآيات لنرى علاقتها بالكلام عن الآخرة:

ماذا كان **موقف المشركين؟** {قَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}. يعني: يوم الحساب عندهم منكَر، وهم يستهزؤون به.

و**داوود** –عليه السلام– يأمره الله –عزّ وجلَّ–: {فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ} ماذا يفعل بك الهوى؟ {فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} أي: كل مَن ينسى يوم الحساب له عذابٌ شديد.

و**سليمان** –عليه السلام– ما حاله؟ {وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ} ، لازال ذكر الآخرة؛ فسليمان –عليه السلام– سيكون له زلفى وقُربى، وسيكون مآله إلى خير.

ماذا تجدون في وصف **أيوب** –عليه السلام–؟ {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}، أي: كثير الرجوع إلى الله –عزَّ وجلَّ– من استذكاره لليوم الآخر.

وسيظهر هذا المعنى من قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}، فالعبد يكون شديد التوبة والأَوبة في حال تذكُّره لليوم الآخر. **والأنبياء أُخلِصوا بهذه الخالصة: أن ذكرى الدار أمام أعينهم.**

فكأنه يقال لك:

---

[1] (ص:٤٦)

[2] (ص:٢٥)

لا تكن كالمشركين الذين استهانوا باليوم الآخر، واستهزؤوا به.

واعلم أن من يَضل أو يُضل غيره له عذابٌ شديدٌ يوم القيامة.

واعلم أن هؤلاء الأنبياء الذين أُمرت أن تذكرهم، كلهم عندهم صفة واحدة مهمة، وهي: أن ذكرى الدار أمام أعينهم، لا تنفكّ عنهم.

ولذلك {اذْكُرْ...} تكررت في هذه السورة؛ دليل على أن المطلوب منك أن تبقى ذاكرًا، وعندما تقرأ السورة مرة أخرى سيتبيَّن لك ما هو الشيء الذي ستبقى ذاكرًا له، وهذا هو معنى {أَوَّابٌ}، ومعنى الإنابة، كلها تدور حول نفس المعاني.

ثم قال تعالى: {هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ} . {ذِكْرٌ} لأي شيء؟ {ذِكْرٌ} للأنبياء.

فأنت بإمكانك أن تبدئي من الآية (١٧) -من قصة داوود- إلى الآية (٤٨)، وتجعليها جزءًا واحدًا؛ لأن كل هذه الآيات تدور حول: (ذِكر الكُمَّل الذين أُخلِصوا بخالصة ذكرى الدار).

في آية (٤٩) يقال لك: هذه الآخرة، وهذا ما سيحصل فيها، فابقَ ذاكرًا لها؛ لأن صفة الأنبياء أنهم ذكروا الآخرة أمام أعينهم، وأنت لكي تكون كهؤلاء الكُمَّل يجب أن تكون ذاكرًا للآخرة أمام عينيك.

ما هي الآخرة؟ ومَن هم المتَّقين؟ ومن هم الفجَّار؟ كل هذا وُصف لك، إلى أن تصل إلى قصة آدم -عليه السلام-.

ماذا ستقولين عن آية {مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} ؟ [٢]

المقصود {بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ}: الملائكة، ومعنى {يَخْتَصِمُونَ} سيبقى سؤال استفهام.

أتت قصة آدم خاتمةً للسورة، ونحن اتفقنا أن السور كلها كالسبْك الواحد، أولها يشير إلى آخرها، وسنجد في سورة (ص) خاتمةً من أعجب الخواتيم! بحيث أنك تستطيعين أن تختمي الصفحة الأولى كلها بالصفحة الأخيرة.

قال تعالى في أول السورة: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}، وخُتمت السورة بقوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} . [١]

---

[١] (ص:٤٩)

[٢] (ص:٦٩)

وقال تعالى عن الكافرين: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، ما الذي أصابهم بالعزَّة والشقاق؟ قولهم: لماذا يُفَضَّل علينا بالنُّبوة؟ ولماذا يدعونا إلى إله واحد؟ وكل هذا الذي قالوه إنما هو من وحي الشيطان الذي {اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} .

ثم إنك ستلاحظين أيضًا شيئًا عجيبًا في قصة آدم في سورة (ص): ستلاحظين أن كل القصة دائرة حول الشيطان.

قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)}.

لم يُذكر آدم –عليه السلام– في الآيات إلا عن طريق الإشارة إليه فقط في قوله تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ}، وكل الوصف الذي ذكر إنما هو للشيطان.

إذًا: كل الذي سمعته عن الكافرين في أول السورة إنما هو من هذا الذي استكبر، وأقسم: {لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}، وغيُّه لهم هو ما سمعته في أول السورة.

ولذلك قصة آدم في سورة (ص) لا يمكن أن تماثلها قصة في موطن آخر، فما أتت قصة آدم بهذه الطريقة إلا في سورة (ص)، وما أتت بهذه الطريقة إلا لتناسب أولها.

---

[1] (ص:٨٧-٨٨)

[2] (ص:٧٤)

اللقاء العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا نتكلم عن اسم الله (الحكيم)، وكنا قد تكلمنا خصوصًا عن سورة (ص).

فهمنا أن لاسم الحكيم علاقة بصفة الحكم لله، وبصفة الحكمة.

بدأنا نتناقش عن **الحكمة**:

وجدنا أن الشيخ –حفظه الله– أشار إلى أن أهل السنة يعتقدون أن حكمة الله –عزَّ وجلَّ– تظهر في:

- أمره.
- وشرعه.
- وخلقه.
- وجزائه.

ثم بدأ يشرح كل نقطة، وذكر عن **حكمة الله في خلقه**: أن الله خلق جميع المخلوقات بالحق، مشتملة على الحق.

وقلنا أن الشيخ –حفظه الله– لم يقل هذا الكلام إلا بسند من الكتاب والسنة؛ لأننا نعلم أن أهل السنة حتى تعبيرهم عن الحقائق يكون باستدلالهم بالنصوص.

فذهبنا إلى القرآن، وبحثنا عن كل دلالات "الحق"، ورأينا عجبًا من هذا الكلام! فهمنا أنه سبحانه وتعالى حكيم، ومن دلالات حكمته: أنه يخبرنا في القرآن أنه خلق السموات والأرض بالحق، وخلق المخلوقات كلها بالحق، وأن هذه الكلمة – "بالحق"– عندما تتصل بخلق الله فإنها تدل على أنه هو الحكيم سبحانه وتعالى، رغم أن نفس لفظة "حكيم" غير موجودة.

وعلمنا أن المخلوقات خُلقَت مشتملةً على الحق، وهذا تفهمه حينما تقرأ في كتاب الله عن آياته، فإنك ستجد في آيات الله عز وجل ما يدلّك على أن مخلوقاته مشتملة على الشهادة له بأنه كامل الصفات، ستجد أن مخلوقاته تقول لك: الذي خلقني كامل الصفات، كامل الحكمة، يضع كل شيء في موضعه.

وكان من الممكن أن نتبع في ذلك أحد الطريقتين:

- الطريقة الأولى:

أن نأخذ كل الآيات، ونقوم بأبحاث عنها.

مثلًا: نذهب لسورة الروم -السورة التي أجرينا عليها تجربتنا- ونجد أن الله أخبرنا فيها عن آياته، فقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...} {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ...} ...إلى آخر الآيات[1] التي ذكرها الله في هذه السورة. فنبحث عن الألوان، ودرجاتها، والاختلاف بين الناس، فنرى كيف أن كل شيء يشهد بأن الله حكيم.

- الطريقة الثانية:

أن تبحثي عمن كتب في الحكمة التي تظهر في المخلوقات.

ونحن أخذنا هذا الطريق —الثاني-. وجدنا من علماء أهل السنة مَن كتب في ذلك، مثل: ابن القيم —رحمه الله-، وقرأنا جزءًا من كلامه. لكن الشيخ -رحمه الله- تكلم عن تفاصيل أخرى. تكلم -مثلًا- عن موضع عيني الإنسان، وعن موضع الفم، وعن موضع اللسان، وعن موضع الأذن، وعن موضع الأصابع الخمس. فتقرئي كلامه هذا، وتتأمّلي فيه، وتري حكمة الله، وأن مخلوقاته مشتملة على الحكمة، وأنه ما مِن شيء إلا وقد وُضع في موضعه.

أتينا بعد ذلك **لحكمة الله في شرعه**. الشرع هو:

- إرسال الرسل.
- وإنزال الكتب.

وناقشنا بكلمات مختصرة: حكمته في إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم، أما الحكمة في القرآن فهذا باب واسع. سنبحث عن الإعجاز في القرآن من عدة جهات:

- من جهة ألفاظه.
- ومن جهة أخباره.
- ومن جهة تشابهه.

[1] (الروم:٢١-٢٢)

القرآن متشابه. أي: ليس بشاذ، ولا تجد فيه أخبار كاذبة. قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [1] ، فهو من جهة الأحكام عدل، ومن جهة الأخبار صدق، ومن جهة الألفاظ متشابه في الحُسن والكمال، وكذلك نجد في جهة اختيار الألفاظ ودلالاتها أعلى أنواع البلاغة التي لا يستطيعها الخلق.

وقمنا ببعض التطبيقات على ذلك، كالتطبيق على سورة الكافرون، ورأينا فيها الدلالة البلاغية العالية، ثم ناقشنا سريعًا بعض الأمثلة على العلاقات بين بدايات السور وخواتيمها، ثم جمعنا قوتنا على أن نتدارس سورة يظهر فيها صِدق أخبار القرآن، وعدل أحكامه، وأن ألفاظه غاية في التشابه والإحكام والإتقان، فاخترنا سورة (ص).

كان بإمكاننا أن نمرّ سريعًا على النماذج فقط، لكن هناك مصلحة أخرى جعلتنا نقف أمام سورة، ونُناقشها، وهي أننا مُقبِلون على رمضان الذي هو شهر القرآن، ومَن وُفّق لدخول رمضان ومعه إيمان فقد حقّق شرط حصوله على المغفرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ" [2] .

و(**العلم**) **مِن أهم أسباب زيادة الإيمان، وأهمّ العلم: تدبر القرآن**. ولذلك نسمع عجبًا من كلام السلف في الدلالة على أن **الذي يصبّ الإيمان في القلب صبًّا هو القرآن**، وقد ورد عن بعض الصحابة ما يدل على ذلك، مثل قول أحدهم: لو أعلم رجلًا ينفق في ليلة دينارًا دينارًا، ويحمل على خيله، فيجاهد في سبيل الله، وأعلم أنه أصبح مُتقبّلًا منه، وأبات أقرأ القرآن، لا أحب أن يكون لي ما فعل . بمعنى: هو يفترض افتراضًا، فيقول: لو أنه يقرأ القرآن، وشخص يجاهد وينفق، وكلاهما أصبحا متقبلًا منهما –لأن شرط الانتفاع بالعمل: أن يقبله الله–، فلو هذه كفّتان: كفّة إنفاق وجهاد، وكفّة تلاوة وفهم للقرآن، يقول: لا أحُب أن يكون لي عمله؛ لأن قراءة القرآن من أعظم أسباب زيادة الإيمان.

وليس المراد أن مجرد قراءة الآيات هي من أعظم أسباب زيادة الإيمان، وإنما التلاوة التي صاحبها يفهم ما يقرأ، وهذا هو التدبر. الذي يتدبر يأتي بالكلام من أوله إلى آخره، ومن آخره إلى أوله، ويعيد ذلك مرارًا إلى أن يتبيّن له شيء جديد، إلى أن يقرأ السورة كأنها جملة واحدة. وهذا طبعًا يحتاج إلى مراحل من التمرين.

أول وأهم مرحلة لتمرين النفس على تدبر القرآن: أن تقرأ بتركيز.

---

[1] (الأنعام:١١٥)

[2] رواه البخاري في صحيحه/ كتاب الإيمان/ باب: صَوْمُ رَمَضَانَ احْتِسَابًا مِنَ الإِيمَانِ/ (٣٨). ورواه مسلم في صحيحه/ كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا/ بَابُ التَّرْغِيبِ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ، وَهُوَ التَّرَاوِيحُ/ (٧٦٠)

[3]

ومن الخطأ أن تفتح كتاب التفسير قبل أن تحدد ما أشكل عليك فهمه! لأن من لا يفهم ما يقرأ فإنه لن يستفيد من كلام المفسرين.

ما الذي يجعلنا لا نسأل؟ أننا نقتنع ونرضى بفهمنا العام!

وفي أول سورة (ص) شاهد على ذلك، قال تعالى: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} . كُنا نحسب أن {وَلَاتَ} كلمة واحدة (الواو+لات). ولم يتبين لنا من أول قراءة معنى الجملة، وعندما لا تتمكّن من فهم آية، وتتجاوزها دون أن تتساءل عن معناها، فإن ذلك سيحجزك عن التسلسل في الفهم، فتأتي الآية التي بعدها، وتفعل نفس الشيء، ثم لا تفهم شيئًا من السورة بعد ذلك! فهذا من الأخطاء التي تحصل أثناء القراءة.

إذًا ماذا سنفعل؟ نحتاج إلى تغيير نفس طريقة التلاوة؛ لكي يحصل لنا أمرين:

الأمر الأول: لكي تظهر لنا حكمة الله عز وجل في هذا القرآن العظيم، ويظهر لنا كيف {تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}.

الأمر الثاني: أن هذا التدبر والتقليب سبب لزيادة الإيمان، فكأنك بجلوسك وتفكيرك في القرآن: قائم صائم. وأنت **لو تستغلّ قوتك في التفكير في القرآن وتقليبه سيستقيم القلب، والخواطر، والإرادات.**

نعود الآن لسورة (ص):

بدأت بـ{ص}. وحروف التهجي عندما تأتي في بدايات السور فإنه يُقصد بها التحدي.

{وَالْقُرْآنِ} ثم يقسم الله سبحانه وتعالى هنا بالقرآن، لأن الواو للقسم.

ما وصف القرآن؟ {ذِي الذِّكْرِ} . وقلنا أن هذا يقابل قوله تعالى في نهاية السورة: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} .

ما الذي منع الكافرين من التذكر بالقرآن؟ أن {الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} ، لكن الله يقول لهم في ختام السورة: ستعلمون نبأ هذا القرآن بعد حين {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} .[1]

---

[1] (ص:٣)
[2] (ص:١)
[3] (ص:٨٧)
[4] (ص:٢)

ثم يخبرهم الله عز وجل أنه أهلك أقوامًا قبلهم: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} [٢] .

من أي شيء يعجبون؟ {وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [٣] ، ...إلى آخر أقوالهم.

نهاية السورة ستنطبق تمامًا على بدايتها؛ ففي قصة آدم –عليه السلام– سنلاحظ أمورًا كثيرة، منها:

أن قصة آدم ذُكرت في مواطن متعددة من كتاب الله، وقد ذُكر اسم آدم صريحًا في خمسة مواطن، ولم يُذكر صريحًا في موطنين: في سورة (ص)، وفي سورة الحجر.

لماذا لم يُذكر اسم آدم عليه السلام في سورة (ص)؟ لأن المقصود بإيراد القصة هو إبليس.

والكافرون سيشابهون مَنْ في عزّتهم وشقاقهم؟ سيشابهون إبليس.

سنلاحظ عدة ملاحظات في القصة تنطبق على حال الكافرين تمامًا:

سنبدأ من أول آية في السياق: {مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [٤] . لأهل العلم قولان في الآيَة: الأول: أن المراد هو تخاصم أهل النار. والثاني: أن المراد بذلك قصة آدم.

و"الملأ الأعلى" هم الملائكة، وهذا يجعلنا نميل إلى أن القصة تبدأ من هذه الآية.

سنلاحظ أن كلمة "يختصمون" و"الخصم" تكررت في السورة، ولا يوجد موطن من مواطن قصة آدم وردت فيه كلمة "يختصمون" إلا هنا في سورة (ص)؛ والسبب أننا سنجد في سورة (ص) نقاشًا طويلًا حول الاختصام:

الموطن الأول: ورد الاختصام في أول السورة، في قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}؛ لأن "الشقاق" معناه: العناد والخصومة.

الموطن الثاني: في قصة داود عليه السلام، لما ذُكر "الخصم" و"خصمان".

---

[١] (ص:٨٨)
[٢] (ص:٣)
[٣] (ص:٤)
[٤] (ص:٦٩)

الموطن الثالث: في قصة أيوب عليه السلام: في الخصومة التي حصلت بينه وبين زوجته. لا توجد كلمة "خصومة" هنا، ولكن يوجد ما يدل على معناها، ولذلك أمره الله عز وجل: {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ} . حلف أيوب في هذه [1] الخصومة على زوجته، فخرج من هذا الحلف بهذه الطريقة التي أخبره الله عز وجل بها إنهاءً للخصومة.

الموطن الرابع: تخاصم أهل النار.

إذًا: كان الكلام في السورة كلها حول الخصومة.

قال تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} . ماذا فعل إبليس؟ استكبر[2]. وسنجد في سورة الحجر أن الله عز وجل أخبر أن {إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}؛ لأن هذا الوصف –"أبى"– يناسب سورة الحجر، فقد ذُكر فيها الكلام عن الذين لم ينقادوا، أما الكلام في سورة (ص) فعن القوم الذين استكبروا، ولهذا وصف الله عز وجل إبليس بالاستكبار.

ما الفرق بين الإباء والاستكبار؟

الإباء: عدم الانقياد، والرفض.

الاستكبار: هو أن يرى المتكبر نفسه أحسن من غيره.

وفي الآيات شاهد على ذلك من قول إبليس: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} . [3]

إذًا: الذي منع إبليس من السجود هو الاستكبار.

كيف خرجنا بهذه النتيجة؟ لأن قوله هذا معناه أنه يرى نفسه خيرًا من آدم، وهذا هو معنى الاستكبار.

وفي آيات تخاصم أهل النار: ماذا قال أهل النار بعدما تشاتموا؟ أين تجدين الاستكبار صراحةً في كلام أهل النار؟ يظهر الاستكبار في آية: {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ} . ومعنى الآية: أنهم لما دخلوا النار بحثوا عن أشخاص كانوا يرون أنفسهم أحسن منهم، يرونهم أشرارًا، ويرون أنفسهم أخيارًا، فهم قد عاشوا في الدنيا مستكبرين على أهل الإيمان.

---

[1] (ص:٤٤)

[2] (ص:٧٣-٧٤)

[3] (ص:٧٦)

ومن المؤكد أنك تشعر بهذا، فهم يشعرونك دائمًا أن غير المستقيمين خير حال من المستقيمين، وأن المستقيمين أشرار لكونهم منعوا أنفسهم من الدنيا، وصدقوا أن هناك قيامة، وأن هناك جزاء! وأنهم أخيار لأنهم تمتعوا بالدنيا! وذلك لأن في قلوبهم استكبار وعزة وشقاق.

وكون الكافرين يرون أنفسهم أخيارًا، ويرون غيرهم من الأشرار فإنهم بذلك يشابهون إبليس في استكباره. فالسورة ذكرت أشخاصًا منعتهم عزتهم وشقاقهم واستكبارهم وعنادهم وخصومتهم أن يؤمنوا، وإبليس استكبر، فصار يخاصم ويدافع عن حق ليس من حقه، وإنما فعل ذلك استكبارًا؛ فهو يرى نفسه خيرًا من آدم.

يسأله الله عز وجل: {يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ} ؟ وفي هذا الإشارة إلى تكريم وشرف آدم عليه السلام؛ فالله يذكر لإبليس أن من مميزات آدم عليه السلام أنه خلقه بيديه، فالمفترض أن تظهر لإبليس هذه الحقيقة، فيسجد كما أمره الله، لكنه خدع نفسه بأنه أحسن من آدم، وقال: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}!

هل النار خير من الطين؟! هذه الخيريّة التي يدّعيها إبليس: خيرية باطلة فيها خداع! فالنار أشد طَيشًا، وأكثر أذيّة، في مقابل أن الطين أكثر هدوءًا، وأكثر نفعًا، وفيها تَنبُت الأشجار... الخ.

(مقابلة بين الكافرين وإبليس)

الصفة المشتركة	الكافرون في عزة وشقاق	إبليس في استكبار
الدعوى الباطلة	الكافرون يدّعون: أنهم خير من النبي صلى الله عليه وسلم. {أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا}	إبليس يدّعي: أنه خير من آدم –عليه السلام–. {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}

[1] (ص:٦٢)
[2] (ص:٧٥)
[3] (ص:٨)

مشاعرهم	يشعرون أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس ذاك العظيم الذي ينتظرونه. {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}	وإبليس له نفس المشاعر تجاه آدم عليه السلام: كيف يُعظَّم آدم، ويؤمَر بالسجود له؟!

إذا كان حال الإنسان الاستكبار عن الحق، فلابد أنه سيستشهد على استكباره بدعوى باطلة، يشعر مَن أمامه أنها صحيحة. فدعوى إبليس -{أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}- ما ادّعاها إلا لمجرد أنه قرر أن النار خير من الطين! لكن أنت حينما تسمع مثل هذه الدعاوى عليك أن تبحث عن الخيرية فيها؛ لأنه قد يقع في قلبك تصديقها. والكافرون كذلك انطلقوا وتآمروا أن يصبروا على آلهتهم، وقالوا: {إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [1]، وهذا جعل الناس يغترّونّ بدعواهم. وهكذا الباطل، يرفع صوته بدعوى، فيصدقها مَن يصدقها، ولو لم يحقق نفس الدعوى، ولو لم يعلم صحتها من بطلانها.

والمقصود: أن الله عز وجل لما أخبرنا في آخر سورة (ص) عن قصة إبليس بيّن لنا: أن هناك مَن سار على هذا المنهج: استكبر عن الحق، وكان في شقاق وخصومة للحق، وادّعى ادّعاءات باطلة، واقتنع بها مَن اقتنع. وأن هذا لن يخرجه عن الجُرم؛ ففي نهاية الأمر سنجد أن الشيطان هو الذي لقّاه هذه الدعوة. فكل مَن يأتي له الحق، فلا يقبله، بل ويخاصمه، ويردّ الحق لهواه، لكن يردّه بدعوى يصدقها الناس، ستفهمين أن الذي لقّنه هذه الدعوى الباطلة هو إبليس.

إذًا: يظهر من أول السورة وآخرها: منهج الناس الذي يسيرون فيه إذا وقعوا في الهوى.

فهذا القرآن فيه الذكر، ومَن سمعه انكشفت عنه الغُمّة، لكن لماذا لم ينتفع الكافرون به؟! ومثله بالضبط: حال إبليس: لماذا لم ينتفع بمجاورته للملائكة؟! السبب هو: الاستكبار، والعِزة، والشقاق، والخصومة. وهذه هي صفات أهل الباطل.

و"العِزة" هنا بمعنى: الاعتزاز عن الحق، والاستكبار عليه.

---

[1] (الزخرف: ٣١)

[2] (ص:٦)

و"الخصومة" معناها: أن **أهل الباطل لا يردّون الحق فقط، بل لابد أن يشوّهوا الحق في قلوب الخلق؛ ليستووا معهم في عدم قبول الحق، ويشتركوا في الباطل.**

فمن الطبائع النفسية: أنها تتحاسد في الخير، وتحب أن تتشارك في الشر.

الإنسان لا يريد أن يشاركه غيره في الخير، ولكنه يحُب أن يشاركه غيره في الباطل والفِسق والشر؛ لأنه لا يريد أن يكون هو وحده من أهل الباطل. وهذه طبيعة لابد من معالجتها؛ لأن إبليس في المقابل يزكّي ويحسّن للإنسان كل الطبائع الباطلة في نفسه، وهو الذي يجُري على لسان الناس دعواهم. فهذا الصوت العالي، والقوة في الباطل، والجري وراءه، والنداء في كل مكان، في الإذاعات وغيرها، إنما يأتي من الشيطان، هو مَن يعطيهم هذه الكلمات، ويركّبها لهم، ويُجري على ألسنة الشعراء الباطل، فتسمعين الشاعر يقول في قصيدته الإلحادية:

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت *** ولقد أبصرت أمامي طريقًا فمشيت

تصور أن هذه القصيدة أصبحت أغنية يردّدها الشباب! تقرأ قصة آدم في أول المصحف، ولا تعرف من أين أتيت! هذا لا يكون إلا مِن فِعل الشيطان، هو الذي يُلقي على ألسنة الخلق الشك، ويجعل له صوتًا عاليًا.

لماذا للباطل صوت عالٍ يدخل في القلوب بهذه الصورة الإبليسية؟! هذا كله بسبب الاستكبار.

النبي صلى الله عليه وسلم من قريش، ولو ارتفع شأنه لارتفع شأنهم أيضًا، وهذا الذكر أُنزل للنبي صلى الله عليه وسلم ولهم، لكن الاستكبار هو الذي يجعل الإنسان أعمى، لا يرى المصالح.

الاستكبار يجعل الإنسان يركب كل صعب من أجل أن يظهر فقط، ولذلك نجد المستكبرين يلوون عنق النصوص، ويخرجون بكلام من تحت الأرض، ليظهروا ويرتفع شأنهم.

وأنتم تعلمون أن إبليس كان مع الملائكة، ثم لما أتى هذا الأمر من الله عز وجل ظهرت حقيقته. وهذا معناه: أن الإنسان قد يكون له ظاهر طيب، موافق للحق، مُهيَّأ له، فيأتي الاختبار من الله، فيرتفع عليه غيره، أو يصل غيره لشأن هو لم يصل إليه، فيقع في قلبه الاستكبار على الحق.

فقريش رفضت بقوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم ليسوا هم الذين أُنزل عليهم الوحي، وإبليس رفض السجود لآدم لأنه لم يكن هو المقرَّب الذي سُجِد له. فقد يدّعي الإنسان حب الحق، والميل إليه، والدفاع عنه، لكن ما أن يأتي المحك، ويظهر الحق على غيره، إلا وتظهر حقيقة أنه ليس متَّبِعًا للحق، وإنما أحب الحق لأنه أظهره، فلما ظهر عليه غيره رفض الحق، واستكبر. وهذا الخُبث النفسي شيء خطير جدًّا، يدل على أن الاستكبار قد يكون مخبوءًا في النفس، ولا يظهر إلا بالاختبار.

مثلًا: أنا الوحيدة المستقيمة في العائلة، وأنا التي آمرهم بالمعروف دائمًا، ثم تزوج أخي بامرأة مستقيمة، وبدأت تأمر بالمعروف، وعائلتي تستجيب لها، فبدأت أقول: لا! ليس كل ما قالته صحيحًا. هذه المسألة التي ذكرتها فيها خلاف. وهكذا! هذا اسمه استكبار عن الحق، سببه الحسد، وهو الذي كان في قريش، وهو الذي كان في إبليس، وهو نموذج يتكرر في الحياة، لا ينتهي.

يمرّ الناس باختبارات تُظهر لهم هل هم يحبون الحق؟ أم يحبون أنفسهم؟ كل واحد فينا يأتيه هذا الاختبار: هل أنت تتكلم عن الحق وتدافع عنه لأنه الحق؟ أو لكي تُظهِر نفسك؟ سيأتيك بلاء يكشف هذه الحقيقة، وإن كنت مخلصًا تريد وجه الله، سينزل عليك البلاء، ويوفقك الله.

هؤلاء الكفار الذين هم في عزة وشقاق، واستكبروا عن الحق، وتواصوا، وادّعوا الادّعاءات، وصورتهم هي الصورة الإبليسية، كانوا يُظهِرون حب الحق، ويُظهِرون الشرف؛ فقد كانوا هم الملأ الذين إذا نظر إليهم الشخص امتلأت عينه بهيبتهم، وطموحهم، ومكانتهم، لكنهم لما جاءهم الحق رفضوه استكبارًا! وهكذا فعل إبليس لما لم يكن هو المسجود له عصى، وردّ أمر الله.

ولذلك يستحق هؤلاء المستكبرون على الحق: النار، ويستحق مَن كان ذليلًا منكسرًا خاضعًا قانِعًا لأمر الله: الجنة، فلا يعل الله عز وجل للمتقين ما للفجار.

المطلوب منكم الآن: ضبط الكلمات المتكررة في السورة. (مثل: واذكر – ذِكر...)

جزاكم الله خيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اللقاء الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا زلنا بمنّة الله ورحمته نناقش هذا الاسم العظيم: اسم (الحكيم).

وقد مرّ معنا أن هذا الاسم من الأسماء التي تحتوي على معانٍ عظيمة، وأن الإنسان يحتاج أن يتأمّل فيه، ويتدبّره، ويقلّبه كثيرًا في حياته، **فالإيمان بأن الله سبحانه وتعالى حكيم في شرعه وأمره وتدبيره وفي كل شأنه من الأسباب التي تورثك اليقين بهذا الدين.**

عليك أن تشغل فؤادك بالتفكّر في آثار حكمته سبحانه وتعالى، فمَن لم يشغل فؤاده بآثار حكمة الله فإن فؤاده سيُشغَل بِرَدّ أمر الله!

نفسك لن تطيعك إن لم تملأها بالحق، ولذا يجب عليك أن تستعمل القدرة العقلية التي وهبك الله إياها بالتأمل في آثار أسمائه وصفاته، ومن أعظم الأسماء التي نحتاج أن نتأمل فيها: اسم الحكيم، وقد مرّ معنا أنه تكرر في كتاب الله مائة مرة بلفظه، غير أنه تكرر كثيرًا من جهة المعنى، فكل مرة تجد ذكر خلق السماوات والأرض بالحق، أو تجد نفي أن تُخلق السماوات والأرض بالباطل، فاعلم أن المقصود بذلك هو الحكمة، وكل مرة يقال لك: {وَمِنْ آيَاتِهِ...}، {أَفَلَا تَتَفَكَّرُون...}، {أَفَلَا تَعْقِلُون...} فإنه يُراد منك أن تتأمّل الحكمة في ذلك.

من قواعد الدين المهمة التي تسبّب للإنسان اليقين: هو أن يُعمِل عقله في ظهور آثار اسم (الحكيم) في كل شيء، ومن ثَمّ سترى القلوب المطمئنة لهذا الاسم وبهذا الاسم آثار حكمة الله في كل شيء، وسيكون الناتج المهم على الإطلاق هو: أن يصل العبد إلى الطمأنينة للدين، والرضا عن الله. فإنك لن ترضَ عن الله كما ينبغي، وتطمئن للدين، وتصبح متيقّنًا إلا إذا فكّر قلبك، وتدبّر، وكرّر النظر في مسألة ظهور الحكمة.

ولا يُقصد بذلك أن تعرف الحكمة من الأشياء، وإنما المقصود هو أن تعلم أن الله حكيم في كل فعله. وقد بقي لنا جزءًا في مناقشة سورة (ص) يقرّر هذا المعنى بوضوح.

ما هو التسلسل المنطقي الذي نقلنا إلى سورة (ص)؟

مرّ معنا أن حكمة الله عز وجل تتجلّى في:

- خلقه.
- وفي شرعه.
- وفي أمره.
- وفي جزائه.

وقد تناقشنا في حكمته سبحانه وتعالى في خلقه، وبقي لنا حكمته في شرعه:

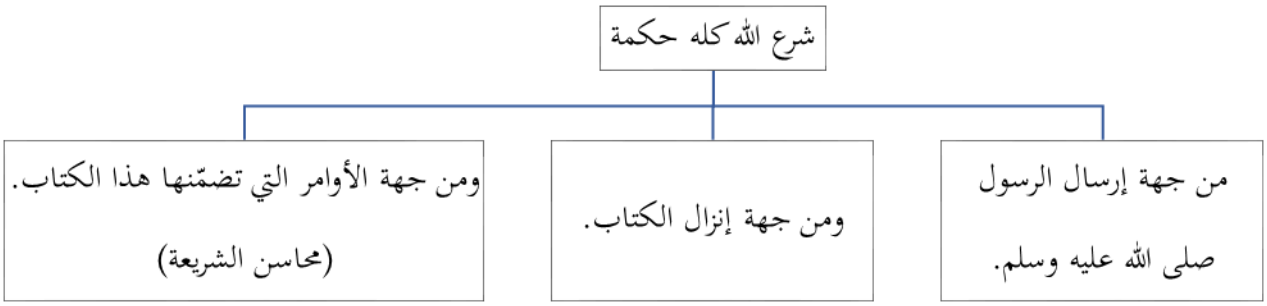

لا زلنا نتناقش في النقطة الثانية وهي: عظمة القرآن. وكيف يشهد القرآن على أنه كلام من لَدُن حكيم عليم، وليس من كلام الخلق، وتبيّن لنا هذا الأمر من جهة ألفاظ القرآن ومعانيه، وكيف أن له الحكمة الكاملة، والبلاغة التامة، وكيف أنك تجد السورة الواحدة كأنها جملة واحدة، تخبرك عن معنى واضح، وتتنقّل مع طول آياتها حول محور واحد. وأنت تستطيع فهم ذلك بشيء من التدبر.

وضربنا مثالًا على ذلك: سورة (ص). وبدأ يظهر لنا شيء من المميزات:

- ظهر لنا أن الله أقسم بالقرآن، وأظْهر فضله.
- وأن الحروف المقطعة لها أثر في نفس السورة.
- وأن الألفاظ تُنتَقى انتقاءً.

وهذا سيظهر لك أكثر وأنت تنظر للآيات وتقسيمها، وتلاحظ بداية السورة وخاتمتها، وتلاحظ المواضيع التي في داخلها.

مرّ معنا تقسيم السورة من أولها إلى آخرها، وبقي لنا جزء في وسط السورة علينا فهمه؛ حتى نعرف بأي شيء سنلحقه.

لكن قبل أن أذهب لهذا الجزء: ما العلاقة بين أول السورة وآخرها؟

أول السورة: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} . تبيّن لنا أن الكافرين {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}[1]، وأن هذا جعلهم ينكرون ثلاثة أمور: (كلها ظهرت في الصفحة الأولى)

١. أنكروا ألوهية الله.

٢. أنكروا رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣. أنكروا البعث.

إنكارهم للبعث يظهر في قولهم: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} . فهم يستهترون بالنبي صلّى الله عليه وسلم، ويستهترون بالخبر عن البعث.

إذًا سنقرأ الصفحة الأولى متصلة، وسنقول:

قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم: {سَاحِرٌ كَذَّابٌ} . ساحر في أي شيء؟ أنه[3]جعل {الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} . كذاب في أي شيء؟ في أنه أُنزل عليه الذكر من بينهم.

ثم أتوا إلى ما يدعو إليه من أن الحساب سيقوم، وعاملوا النبي صلى الله عليه وسلم باستهزاء، وقالوا أمامه وأمام المؤمنين الذين يعظّمون الله، ويعلمون حقًّا صِدق هذه الرسالة: {رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}. ما أتت لفظة السخرية، وإنما أتى لفظ يدل عليها؛ فنحن لمّا فهمنا {قِطَّنَا} عرفنا أن هذه الكلمة لا تقال إلا فيما يُكتب من الشيء الحسن.

---

[1] (ص:١-٢)
[2] (ص:١٦)
[3] (ص:٤)
[4] (ص:٥)

وعندما نذهب لأوصاف أهل النار في نفس السورة –وهذه من الأشياء التي سنلاحظها–: نجد أنهم يسألون: {مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ} ؟ ماذا حصل؟ {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا}[1]؟ ومعناه: أنهم كانوا على حق، ونحن سخرنا بهم؟ {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ} ؟ أم أنهم حقًّا أهل شر، ولكن زاغت عنهم الأبصار؟! فهم يرون أن واحدًا من هذين السببين جعل هؤلاء غير موجودين. وفي هذا إشارة أيضًا إلى أن وصف أهل النار هؤلاء أنهم أصحاب سخرية.

تصوّروا أنهم حتى بعد دخولهم النار يبحثون عمن كانوا يستهزؤون بهم! وهذا معناه أن **أهل النار من أهل الكفر صفتهم مع أهل الإيمان دائمًا: الاستهزاء، هذه صفة لا تنفك عنهم، والاستهزاء نوع من أنواع الحرب النفسية التي تهزّ الناس**، فمن لم يكن إيمانه ثابتًا ستهزّه مثل هذه الأمور.

وفي آخر السورة: سمعنا خبرًا عن الشيطان:

ما سبب وصول الشيطان لما وصل إليه؟ الاستكبار.

(العلاقة بين أول السورة وخاتمتها)

أول السورة	خاتمة السورة
الكفار	الشيطان (سَلَف الكفار)
في عزة وشقاق. فاستكبروا عن الحق. قالوا: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} .	استكبر على آدم. ورأى نفسه أحسن منه. {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} .

إذًا: فهمنا من أول السورة وآخرها أن **داء الاستكبار لو أصاب أحدًا منعه من قبول الحق**.

[1] (ص:٦٢)
[2] (ص:٦٣)
[3] (ص:٨)
[4] (ص:٧٦)

وفهمنا أن من إعجاز القرآن أنك تجد أول السورة مرتبط بآخرها.

وهذا سيجعلنا نشير إلى:

(القصص القرآني)

كثير ممن يقرأ القرآن وهو لا يعرف حكمة الله يظنّ أن القصص تتكرر في القرآن، والحقيقة: أن القصة لا تَرِد في سورة إلا وهي مناسبة لها، فما يأتي من القصة إلا الجزء الذي يناسب السورة.

ومن أمثلة هذا: ورود قصة آدم في سورة (ص).

فإنها ما وردت فيها إلا للإشارة إلى سَلَف هؤلاء الكفار، ولذلك لم يُذكر آدم باسمه، ولم يُذكر تفاصيل خلقه، وإنما كان كل التركيز في تلك الآيات على إبليس، وقصّته، واستكباره، وعدم قبوله، فما أتى من قصة آدم إلا الجزء الذي يوافق أول السورة، فكأنه يقال: هؤلاء المشركون خَلَفٌ لهذا السَلَف.

وإذا أردت أن تتتبّع كل السور ستجد أن القصة لا تأتي إلا مناسبة للسورة.

مثال آخر: في سورة طه: لما أخبر الله عز وجل عن قصة موسى عليه السلام، وأخبر عن السامري، وكيف أنه نسي لما صنع العجل، خُتمت السورة بقصة آدم عليه السلام، قال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [1]، فجاء الخبر في طه عن قصة آدم موافقًا لقصة السامري.

في طرفي سورة (ص): ذُكر المشركون وإبليس.

وفي وسطها: ذُكر أهل الإيمان (داود وسليمان وأيوب، ثم إبراهيم، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام) -وهذه هي الآيات التي تركنا شرحها-، ثم ذُكر في وصفهم شيء مهم: قال تعالى: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} [2]. وهذه الخالصة التي وُصفوا بها هي الخالصة التي افتقدها أهل الشرك.

---

[1] (طه:١١٥)

[2] (ص:٤٦)

وكذلك إبليس، ما منزلة الدار الآخرة عنده؟ ماذا يعرف عنها؟ ماذا قال؟ {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[1] إذًا هو مؤمن بالدار الآخرة؛ لأنه يعرف أن الخلق سيجتمعون، وسيحاسَبون، لكن **استكباره منعه من الانتفاع بما يعلم، فأصبح بمنزلة مَن لا يعلم!** وهذه المعلومة مهمة جدًّا.

السورة كلها ستجتمع في الكلام عن {ذِكْرَى الدَّارِ}:

- ما هي مشكلة أهل الشرك ؟ الاستهتار بيوم القيامة. قالوا: {رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}.
- وإبليس قال: {رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}.

هذان طرفان للموقف من يوم القيامة.

- وذُكر في وسط السورة صفة الأنبياء والمرسلين: أن الله أخلصهم بخالصة، وهي ذكرى الدار.

فيصبح الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم: أن ابقَ ذاكرًا داود وأيوب وإبراهيم عليهم السلام. ابقَ ذاكرًا لمَن بقي ذاكرًا للدار الآخرة.

وسنرى في الوسط كيف أتت آيات من قصة داود وقصة سليمان عليهما السلام تشير إلى هذا المعنى أيضًا.

أُشير كثيرًا إلى يوم الحساب في السورة؛ إشارة إلى أن **صلاح المرء يدور حول ذكراه ليوم القيامة**.

سنقرأ الآن من آخر آية في قصة داود عليه السلام مع ثلاث آيات بعدها:

قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

كان الكلام عن داود، ثم أتى بعده مباشرة: أن الله وهب لداود سليمان عليهما السلام.

[1] (ص:٧٩)

السؤال الآن: ما علاقة هذه الآيات بهذا السياق؟

انظري لآخر آية (٢٦): سيعذب الله الذين يضلون عن سبيله عذابًا شديدًا؛ بسبب نسيانهم ليوم الحساب.

إذًا: **المنهي عنه في الآيات هو نسيان يوم الحساب**، وليس الكفر به.

ما معنى أن الإنسان ينسى يوم الحساب؟ أي: يغفل عنه، لا يبقى ذاكرًا له، لا يتعامل مع الأشياء على أنه سيحاسَب.

ما سبب نسيان يوم الحساب؟ يقول الله عز وجل: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا}. أي: **مَن نسي يوم الحساب وغفل عنه هو عبد اتّهم الله بعدم الحكمة!** لأن الله الحكيم الذي خلق السماوات والأرض، وجعل كل شيء في موضعه، كيف يُظنّ به أنه لا يجعل المتقين في موضعهم والكفار في موضعهم؟!

كل شيء في الدنيا يسير على حكمة الله، وكل شيء في موضعه يشهد بحكمة الله، إلا الإنسان فإنه يسير ضمن الاختبار، بمعنى أن الإنسان إما أن يكون من الأخيار أو من الفُجار، فهو الذي يختار.

متى سيشهد الإنسان بحكمة الله؟ عندما يأتي المصير، عندما يضع الله المتقين في مكانهم، والفجار في مكانهم.

ولذلك يقول الله عز وجل: {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}. ما هو ظنّ الذين كفروا؟ ظنّوا أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا! هم لا يقولون ذلك، ولكنهم إن اعتقدوا أنه لا يوجد يوم قيامة وحساب، وإن اعتقدوا أن الله سيجعل المتقين كالفجار، فإنهم بذلك قد اعتقدوا أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا، ولذلك قال الله في حقهم: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}. سيكون جزاؤهم النار؛ لأنهم ظنوا في حكمة الحكيم أنه سيجعل المتقين كالفجار!

هذه الآية تخصّنا، لا تظنوا أن المخاطَب بها غيرنا!

وعليها راجِع نفسك: هل أنت ممن نسي يوم الحساب؟

بصورة أخرى: هل أنت ممن يعتقد أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا؟

بصورة أخرى: عندما ترى شخصًا مستقيمًا، وشخصًا غير مستقيم، وترى أن هذا غير المستقيم متمتع في الدنيا، والمستقيم حرم نفسه من أمور الدنيا، هل تستحسن حال غير المستقيم؟

إذا استحسنت حال غير المستقيم، ورأيت أنه في حال أخير من المستقيم الذي حرم نفسه شيئًا من الدنيا، فإنك قد اعتقدتَ وظننت أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا.

مثال: صيادِلَة يشتغلون في صيدلية، واحد منهم يستفيد من عروض الشركات، بمعنى أن الشركة تقول له: خُذ هذا المنتج، وبِعه، ونحن نعطيك عمولة أو هدية ...الخ، والثاني يقول: أنا لا آخذ، المال هذا في نظري حرام، والاثنان زميلان في صيدلية واحدة، ويسكنون في عمارة واحدة لهذه الشركة، فالأول أدخل أولاده في مدارس ودفع لهم، والآخر تراكم عليه إيجار البيت.

أنت الآن ماذا تعتقد في هذا المشهد؟

نحن نادرًا ما نقول لأنفسنا أن هذا مال حرام، بل لابد أن نحتال على هذا الكلام، ونقول: لا هذا تشدّد! لكن ليُعلم أن أي بدن نَبَت من سُحْت فالنار أولى به. والمشكلة الآن في ظنك، لو كنت تظن أن هذا الذي يتمتع بالدنيا، أو في رغد من عيشه، ويمشي في حياته، وليس له ديون بسبب أخذه للمال الحرام، لو كنت تظن أن هذا خير من الذي اتقى فدخل في أزمة، فمعناه أنك تظن أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا. أو كنت لا تؤمن بأن الأمر سيعتدل، وأن المتقي سيرتفع، وأن الفاجر سيحلّ مكانه، بمعنى أنك لا تؤمن أن هذا زمن وسيمرّ، ثم يضع الله كل شخص في مكانه المناسب، فمعناه أنك تظن أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا.

وهذا يؤيّد الكلام الذي ذكرناه في اللقاء الماضي: أن مشكلتنا تكمُن في أفكارنا!

أنت ترين منظر هذا الذي اختار الحلال، والآخر الذي اختار الحرام، لو وجدت في قلبك رضًا عن صاحب الحرام، واعتقدتِ أنه أحسن في حياته، وفي معيشة أبنائه، وأنه خير من هذا الذي ضيّق على نفسه، فإن ذلك معناه أنك تعتقدين أن السماوات والأرض خُلقتا باطلًا!

وهذا هو نسيان البعث؛ لأن الله عز وجلّ يقول في الآية بعدها: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ}؟! أتظن هذا؟! أتظن أنه سيستقرّ الأمر، فيبقى هذا صاحب ديون، وهذا صاحب سعة؟! أتظن في ربك هذا؟! لو ظننت هذا معناه أن تظن أنه خلق السماوات والأرض باطلًا، وأنه شرع شرعًا مَن استقام عليه هلك! إذًا أنت بذلك تتّهم الله في حكمته!

وهذا الذي يحصل إنما هو اختبار، ولابد من الاختبار، فالدنيا بُنيت على الاختبار والبلاء. كل شيء في الدنيا يمشي في صراطه المستقيم، والإنسان هو الوحيد الذي عنده اختيارات، لكن هذا الاختبار سينتهي، ويوضَع كل شخص في مكانه المناسب.

{أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}؟! هل تتصور أن يوم القيامة سيأتي ويكون هذا المتقي مثل هذا الفاجر؟! الجواب: لا! لابد أن تحرّر هذا المعنى في كل موقف، فتقول: **هذا التقي الذي خاف الله، ومنع نفسه من الحرام، مهما ظهرت عليه علامات النقص هنا، فهو يوم القيامة في مكانه المناسب لو كان صادقًا**، وهذا الذي فَجَر سيأتي يوم القيامة ويوضَع في مكانه المناسب ما دام مات على ذلك.

ما حال الذين نسوا يوم الحساب؟ يعتقدون أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا، والله ينفي هذا الاعتقاد، ويقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}. هم ما قالوا أن الله خلقهما باطلًا، لكن مادام أنهم أنكروا أن الله يضع الذين آمنوا في مكانهم، والذين كفروا في مكانهم، فهذا يتبع أنهم ظنوا هذا الظن.

بمعنى: أن **مَن لم يتدبر الظاهر فيصل به إلى الباطن فقد فسد فكره**.

و(الظاهر) هو: أن السماوات والأرض وكل ما فيهما يشهد لك أن الله يضع كل شيء في موطنه. وهذا سيرشدك إلى (الباطن) وهو: أن يوم القيامة سيأتي، وسيضع الله الذين آمنوا في مكانهم، والذين كفروا في مكانهم.

ألا ترين أن الله وضع النجوم في السماء؛ ليراها كل أحد، ويهتدي بها الطريق، ولا يستطيع أحد أن يحجبها عن أحد؟ ألا ترين أنه وضع الأنهار على الأرض لئلا يحجب أحد عن أحد الماء؟ ألا ترين أن الله عز وجل وضع الجبال في موضعها ليسدّ عن الناس الريح والسيل؟ ألا ترين أن الله جعل الثمار ممدودة في الأرض؟

هذا كله وُضع في مكانه! الجبال في الأرض في مكانها المناسب، والأنهار في الأرض في مكانها المناسب، والسهول في الأرض في مكانها المناسب، والنجوم في السماء في مكانها المناسب، والرياح تأتي في وقتها المناسب.

إذًا: هل تشهدين لله أنه وضع كل شيء في موضعه؟ نعم. هل يوجد شيء وُضع باطلًا؟ لا أبدًا!

وتأمّلي في كل الأمور حولك! فمن تمام رحمته بالخلق أن هذا الهواء الذي يحتاجه كل الخلق ما جعله الله مُلكًا لأحد. من تمام رحمته أن الماء –الذي يأتي بعد الهواء أهمية– سيّله الله في الأرض، وجعل كل أحد يستطيع أن يتحسّسه، فيحفر في الأرض ويُخْرِجه، ولا يصير مُلكًا للخلق.

الهواء الأعلى أهمية لا يمكن لكل الخلق أن يتحكّموا فيه، ثم الماء أقل منه، ثم الأكل أقل منه، وهكذا.

انظري لأمر الله العظيم: تصوّري لو (زمزم) غير موجودة في الحرم، ماذا سيحصل؟ ماذا كانت الدولة ستفعل؟ أرض صحراء، وادٍ حوله جبال، إذا لم يوجد به ماء لن يأتيه الخلق! ولن يَتَوارَدوا على الحرم. ثم أن هذا الماء ليس أي ماء، وإنما ماء لو شربه الإنسان بنية الإشباع يُشبِع حتى من الطعام! تأتي وتسكن الحرم، تُطعَم وتُسقَى من ماء زمزم، ثم لا تحتاج لأي أمر آخر. لو ما وجد ماء زمزم ماذا سيحصل؟! مهما كانت الدول غنية مِن أين ستشرب هذه الملايين التي تأتي؟! ومن سيرتحل لهم بالماء؟ إذًا هذا دليل على أن الله يضع الأمور في موضعها، ونحن نشهد لله بذلك.

مادام أن الله عز وجل يضع كل الأمور في موضعها إذًا لا يوجد شيء باطل في الأرض أبدًا. وإذا رأينا أن هؤلاء المتقين ينقص مالهم، وينقص حالهم، وهم في ضيق يد، وهذا الفاجر يستمتع بالمال ويستمتع بكذا وكذا، سنقول: نحن نشهد لله أنه وضع كل شيء في السماوات والأرض في موضعه، ومن هذا الظاهر نشهد أنه لابد أن يكون مآل المتقين إلى المكان المناسب، ومآل الفجار إلى المكان المناسب.

يأتي سؤال: متى سيوضَعون في المكان المناسب؟ فتستنبط من هذا أنه لابد أن هناك يوم القيامة، **فمن تدبَّر ظاهر السماوات والأرض، تيقَّن بباطن الأمر، وهو يوم القيامة.**

كل واحد عنده عقل ويستطيع أن يفهم، ومَن كان له عقل واجتهد في فَهم هذا: رُقِّيَ من هذا النوع من التدبر في الظاهر، ووصل إلى الباطن.

يقول عز وجل: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}. كأنه يقال لك: الله عز وجل أعرَضَ عن الكافرين الذين ظنوا أن السماوات والأرض خُلقتا باطلًا، وصار الخطاب لأولي الألباب –الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين– الذين تدبّروا في ظاهر السماوات والأرض، فتبيّن لهم أن هذا الظاهر يدلّ على الباطن وهو يوم القيامة، وأن يوم القيامة لن يكون المتقين فيه كالفجار.

ثم رقّاهم الله عز وجل إلى أن أنزل إليهم كتابًا مباركًا يزيدهم علمًا ويزيدهم رُقِيًّا لو تدبّروه.

فهذا الكتاب أُنزل إليكم، ووصفه: أنه مبارك، كثير الخيرات، فتدبّروه وتذكّروه، واعلموا أن التدبّر والتذكّر صِفَتَا أولي الألباب الذين رأوا أن السماوات والأرض ما خُلقتا باطلًا.

نقطة البداية في الإيمان هي أن تؤمن أن الله حكيم له كمال الحكمة، ولذلك قلنا في بداية اللقاء أن **هذا الاسم وهذه الصفة من أعظم الأسماء والصفات التي تسبّب اليقين في القلب**، ولهذا يقول الأعرابي: البَعْرة تدل على البعير، والأثَر يدل على المسير، ثم سماء ذات أبراج، وأرض ذات فِجاج، ألا تدلّك أن لها ملك كامل الصفات؟! فهؤلاء رأوا أن السماوات والأرض ما خُلقتا باطلًا، وهذا التفكير دلّهم أنه لابد من يوم حساب. ثم أن هؤلاء الذين أقبَلوا بهذه النفوس رُبُّوا، وأُعطوا نعمة، وهبهم الله كتابًا، وصفه أنه مبارك. فهم مع نظرهم إلى السماء والأرض، أنزل عليهم الكتاب، فأخبرهم عن الأوائل وعن الأواخر، وعن القصص الحق، وأخبرهم عن الجنة وما فيها، فعقولهم بعد أن وصلت إلى المعنى العام، جاء القرآن المبارك فأعطاهم التفاصيل التي بها يثبت اليقين في قلوبهم.

ولذلك لابد أن تشعر أن الإيمان بحكمة الله يورث الإنسان اليقين. الإيمان بحكمة الله يجعلك تقول: مستحيل أن يكون كل شيء في موضعه، ثم لا يعتدل موضع الناس! هل يمكن أن يبقى الكفار طوال العمر خيرًا من المسلمين؟! لا أبدًا! وإنما هذه الدنيا دول، فعندما يتراجع الناس عن دينهم يكون الجزاء أن الكفار سيرتفعون عليهم، وعندما ترتفع بدينك سيكون الجزاء أن هذه الأمة سترتفع، ثم في يوم القيامة لا يمكن أن يجعل الله المتقين كالفجار.

الآن بعدما فهمت هذا الفاصل بين قصة داود وقصة سليمان عليهما السلام، كيف ستحفظ الآيات؟ كيف ستنظر لتتابعها؟

عندما تسأل عن العلاقة لابد أن يرزقك الله الإجابة، وبما أنك تفهم أن هذا الكلام أتى من حكيم عليم إذًا لابد أن يكون الكلام متتابعًا، لا يمكن أن تكون هناك فجوة أو انتقالة مفاجئة بين الآيات أبدًا، وعدم اليقين بهذا هو الذي أضعف في النفوس قوة التدبر، وجعلنا نقرأ القرآن دون أن نسأل عن العلاقة بين الآيات!

هذا العلم رزق، وقلبك إناء هذا الرزق، والله سيسخر لك العلم أينما كان، لكنه سيسخّره لمن يبحث عنه، وليس للمُعرض عنه. لا تكتفِ بالإيمان الإجمالي، وأن هذا القرآن كله حكمة، بل لابد من الإيمان التفصيلي، والإيمان التفصيلي معناه أن تُشغل

نفسك بالتفكير: ما وجه ورود هذه القصة هنا؟ لماذا يذكّر اللهُ الرسولَ صلى الله عليه وسلم بداود وسليمان وأيوب وإبراهيم عليهم السلام جميعًا؟ ما الصفة المميزة لهم؟ ماذا أعطاهم الله؟ تسأل نفسك كل هذه الأسئلة، ثم يأتيك الرزق.

كلكم تؤمنون أن الله قال: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} . أنت ستُقبِل على ربك،[1]وتقول: يا رب أعطيتني كتابًا ميسّرًا للذكر. هل ينكر أحد أن الله يسّر القرآن للذكر؟ لا. مادام أنك تعتقد ذلك إذًا أين عنايتك بالذكر؟ أين الاشتغال به؟! الحمدلله أنك عربي لست بأعجمي، تفهم الخطاب، وتردّ الجواب، ولك قدرة على القراءة، وعندك أمن وأمان، هذا كله خير كثير! -نسأل الله أن يزيده، ويثبّته، ويدفع عن البلاد والعباد كل شر، ويدفع عن بلاد المسلمين-. **أنت تتمتّع بالنعم التي لا يتمتّع بها غيرك مِن وجود العلم، ووَفرته، ووَفرة أهل العلم، لكن أين طلبك وانكسارك بين يدي الله من أجل أن تُرزق علمًا؟!**

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: "يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ"[2]، لا تظن العلم حصرًا على أحد، ولا حكرًا لأحد، ولا تستصعب طُرُقه، ولا تقل: مِن أين أجد مَن يُفهمني؟ فقط **أظهِر صدق إرادتك في طلب العلم، ووالله لا يخذل الله عباده! مَن آوى إلى الله آواه الله، ومَن أعرَض أعرَض الله عنه.**

نعود لسورة (ص)، ونرى أكثر الكلمات التي تكرّرت فيها:

- أكثر ما تكرّر في السورة الكلام حول "الذكر".
- كُرّر أيضًا وصف "أوّاب".
- وصف "الحساب".
- "الخصومة".
- "مآب".

نشرح مثالًا لأكثر كلمة ذُكرت: (كلمة الذكر):

---

[1] (القمر:١٧)

[2] رواه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلة والآداب/ باب تَحْرِيمِ الظُّلْمِ/ (٦٧٣٧).

- أول موطن: وُصف القرآن أنه {ذِي الذِّكْرِ}.
- ووُصف بذلك أيضًا في الآية الثامنة: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي}.

يقول الله عز وجل هنا عن الناس أنهم {فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي}، وهذا هو الذي جعلهم يُنكِرون، فهم في شك من إنزال القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم.

هم يقولون: {أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي}؟! والمقصود: أنهم يشكّون في ذكر الله، أي: في استحقاقه سبحانه وتعالى للانفراد بالألوهية.

- في آية (١٧): خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. يقول الله له: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.
- في الموطن التالي مباشرة: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}.
- وفي آية (٤٥) أمره أن يذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.
- وفي (٤٨) إسماعيل واليَسَع عليهما السلام.

إذًا: القرآن ذي الذكر، وهم أنكروا الذكر، والله يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر، ويذكر الأنبياء.

- ثم يقول تعالى في نهاية السورة في آية (٤٩): {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ}.

نجمع المعنى في الآيات، فنقول:

يخبر الله رسوله في أول السورة أن هذا القرآن ذو الذكر، أي: ذو المكانة العالية، الذي إذا ذكره صاحبه يرتفع إلى المكانة العظيمة من جهة، وتنكشف عنه غُمّة الغفلة من جهة أخرى. فالمطلوب من أجل أن يبقى هذا القرآن في قلبك أن تذكره، وتذكر الصالحين الذين انتفعوا به عبر العصور، ومنهم: داود وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ... الخ الأنبياء المذكورين عليهم السلام.

واعلم أن العبد من أجل أن يبقى على ذِكر من الخير لابد أن يذكر أهل الخير، ويتمثّلهم، ويتمثّل قصصهم، ويردّها على نفسه، ولذلك يقول الله عز وجل: {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} ، فإن تقوى العبد باتّباعه الذكر لا تكون إلا بذكر مَن صدق، فمِن دعائم الدين: أن تذكر الأنبياء والمرسلين وأصحاب الدين، سواء كانوا معاصرين أو سابقين؛ لأن الله يقول: {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، فلا تكفيك مجرد تقوى الله، وإنما لابد أن تكون مع الصادقين.

بمعنى أن العبد قد يتعلم الحق، لكن إذا لم يصحب أهله ما تبيّن له الحق. ويُضْرَب مثال لهذا فيقال: لو أن عبدًا أراد أن يتعلّم فنًّا من الفنون –خياطة، سباحة ...الخ–، فقرأ في هذا الفن، ثم أتى ليطبّقه، هل سيقدر على تطبيقه بمجرد القراءة؟ لا! بل لابد أن يكون معه مَن يرشده لكي ينفّذ، ويُصلِح له خَطأه، ويُرْشِده. ولهذا أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن اصْبِر، واذكر هذا وهذا من الصالحين الكُمَّل من الخلق؛ لترى منهجهم فتسير عليه.

وبالنسبة لنا نحن: هذا القرآن ذو الذكر، يكشف عنك الغفلة، ويجعلك مع الصادقين، فماذا تفعل؟ ترى أيوب عليه السلام وحاله في الصبر، ترى داود عليه السلام وحاله في الفتنة، ترى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وترى كل الأنبياء وحالهم فيما كانوا فيه، فتجد نفسك في حال تشبه أيوب عليه السلام، وفي حال تشبه سليمان عليه السلام، وفي حال تشبه داود عليه السلام، وفي حال تشبه إبراهيم عليه السلام. {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}.

فمِن هجْر القرآن أن لا تذكر الكُمَّل الذين وصفهم الله في كتابه؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كُرّر عليه أن اذكر واذكر واذكر، بمعنى: ابقَ على ذكراهم، فهم الصادقون الذين أُمرت أن تتقي الله وتكون معهم.

والمقصود: أن **التأمل في كتاب الله يُظهر لك أن الله حكيم، خاطب الخلق بالكمال، فالمحروم هو مَن حَرَم نفسه من التأمل في كتاب الله.**

---

[1] (التوبة:١١٩)

اللقاء الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا زلنا بفضل الله ومنّته نتدارس هذا الاسم العظيم: اسم الله (الحكيم).

وهذا الاسم العظيم يستحق مِنّا أن نعيش أيامًا أكثر في مناقشته وتتبّع معناه، وفي الحقيقة لو بذل الإنسان جهده وهو يتلو كتاب الله من أوله إلى آخره للبحث في آثار حكمة الله في كل شيء فإنه سيجد أن هذا الموضوع لا ينفضّ، بل كلما زاد تدبرًا للقرآن كلما زاد فهمًا لحكمة الله.

وقد مرّ معنا أن معنى هذا الاسم العظيم: أنه سبحانه وتعالى حكيمٌ:

- في خلقه.
- وفي شرعه.
- وفي أمره.
- وفي جزائه.

أما حكمته سبحانه وتعالى في خلقه فقد تبيّنت لنا من خلال النقاش في ذلك.

وأما **حكمته في شرعه** فقد ذكرنا هذا المفهوم من جهات:

- **من جهة حكمته في إرسال الرسل**، وبالذات في إرسال النبي صلى الله عليه وسلم.
- ومن جهة أن الله حكيم في شرعه، **وأن هذا الشرع يتمثّل في القرآن**.

فتوقفنا وقفة مع كتاب الله عز وجل، ورأينا كيف أن هذا الكتاب عظيم يدل على حكمة الله، وكيف أنه يحمل الإعجاز من كل معانيه، وأن مَن قرأه سيجد أن الله عز وجل حكيم، فلم تَرِد هنا صفة إلا لحكمة، ولم تَرِد هنا قصة إلا لمغزى ومقصد، وهكذا. وتدارسنا في ذلك سورة ص.

لا زلنا نتكلم عن حكمة الله عز وجل في شرعه، وسننتقل الآن إلى حكمته في الأوامر والنواهي.

*تنبيه: لا تخلطوا بين هذا وبين ما سيأتينا بعد ذلك من حكمته سبحانه وتعالى في أمره! فالله حكيم في أمره بمعنى أنه حكيم في تدبيره لشؤون الخلق، وكأن المقصود هو أمره الكوني، بمعنى القضاء والقدر.

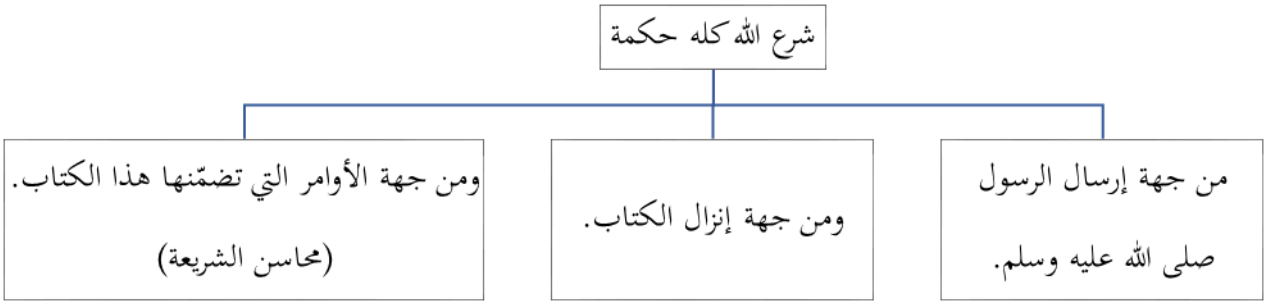

يُناقَش موضوع (حكمة الله في أمره ونهيه) بعنوان آخر هو: (محاسن الشريعة) أو (محاسِن الدين الإسلامي)، بمعنى أنك تنظر لمحاسِن الدين، وتتأمّل فيها، وتقلّبها، وتفهمها، فتتعبّد الله بعبادة الإيمان بأنه حكيم، وأنه ما شرع شيئًا إلا وفيه الحُسن التام، فلو أتى مَن يزخرف لك القول فأنت تملك في عقيدتك أن هذا الدين كله محاسن.

كل شرع الله فيه حكمة ← وأنت تتعبّد الله باليقين بأن الشرع كله محاسن

وسيقدّم الشيخ السعدي –رحمه الله– في كتابه "الدرّة المختصرة في محاسن الدين" مقدمة تُظهر لنا كيف أن **دراسة محاسن الدين قُربة إلى الله.**

سنقرأ أول الرسالة، ثم سننتقي ما نستطيع من المحاسن أثناء النقاش:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

"الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهده الله فلا مُضِل له، ومن يُضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أكملُ الأديان وأفضلها، وأعلاها وأجلّها، وقد حَوَى من المحاسن والكمال والصلاح والرحمة والعدل والحكمة ما يَشهد لله تعالى بالكمال المطلَق، وسعة العلم والحكمة، ويشهد لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله حقًّا، وأنه الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} ".[1]

إذًا محاسن الشريعة تشهد بأي شيء؟

١- تشهد لله بالكمال المطلق، وسعة العلم والحكمة.

٢- وتشهد للنبي صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله حقًّا، وأنه الصادق والمصدوق.

لماذا ندرس محاسن الشريعة؟

لأن محاسن الشريعة من الشواهد على علم الله وحكمته.

فنحن نتدارس اسم الله الحكيم، ونريد أن تظهر لنا حكمة الله، ومما يدل على حكمة الله ما سندرسه من محاسن الشريعة.

"فهذا الدين الإسلامي أعظم برهان، وأجلّ شاهد لله بالتفرد بالكمال المطلق كله، ولنبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة والصدق .

وغرضي من هذا التعليق إبداء ما وصل إليه علمي من بيان أصول محاسن هذا الدين العظيم؛ فإني وإن كان علمي ومعرفتي تَقصُر كل القصور عن إبداء بعض ما احتوى عليه هذا الدين من الجلال والجمال والكمال، وعبارتي تضعف عن شرحه على وجه الإجمال، فضلًا عن التفصيل في المقال، وكان ما لا يُدْرَك جميعه ولا يوصَل إلى غايته ومعظمه، فلا ينبغي أن يُترك منه ما يعرفه الإنسان لعجزه عما لا يعرفه، فلا يُكلف الله نفسًا إلا وسعها {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} .

وذلك أن في معرفة هذا العلم فوائد متعددة:

---

[1] (النجم :٤)

[2] (التغابن :١٦)

١- منها: أن الاشتغال في هذا الموضوع الذي هو أشرف الموضوعات وأجلّها من أفضل الأعمال الصالحة. فمعرفته والبحث عنه والتفكير فيه وسلوك كل طريق يحصل إلى معرفته خير ما شغل العبد به نفسه، والوقت الذي تُنفقه في ذلك هو الوقت الذي لك لا عليك".

تفكيرك في محاسن الشرع عبادة وقربى، كأنك تسبح وتكبر وتهلل؛ لأن ناتجها أن تعتقد تنزيه الله عز وجل عن النقص، وأن له الكمال المطلق، وأن له الحكمة المطلقة، فمن ثَم كان الوقت الذي تقضيه فيه لك لا عليك.

"٢- ومنها: أن معرفة النعم والتحدّث بها قد أمر الله بها ورسوله؛ وهو من أكبر الأعمال الصالحة؛ ولا شك أن البحث في هذا اعتراف وتحدّث وتفكّر في أجلّ نعمه سبحانه على عباده. وهو الدين الإسلامي الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، فيكون هذا التحدث شكرًا لله، واستدعاءً للمزيد من هذه النعمة.

٣- ومنها: أن الناس يتفاوتون في الإيمان وكماله تفاوتًا عظيمًا، وكلما كان العبد أعرف بهذا الدين وأشد تعظيمًا له وسرورًا به وابتهاجًا كان أكمل إيمانًا وأصحّ يقينًا، فإنه برهان على جميع أصول الإيمان وقواعده".

عبادة (الفرح بالدين) عبادة من العبادات التي يغفل عنها الناس، قال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}[1] ، بمعنى أنك عندما تقرأ محاسنْ الدين سيقع في قلبك فرح وانشراح بأن هذا الدين هو الدين الذي تدين به، وأنه عظيم، وأنه كامل، ففرحك به نوع من أنواع العبادة، والذي سيدخل لك الفرح أن تتعلم محاسنه (المحاسن ستورثك فرحًا، والفرح عبادة وقربة إلى الله).

"٤- ومنها : أن من أكبر الدعوة إلى دين الإسلام شرح ما احتوى عليه من المحاسن التي يقبلها ويتقبّلها كل صاحب عقل وفطرة سليمة.

فلو تصدّى للدعوة إلى هذا الدين رجال يشرحون حقائقه ويبينون للخلق مصالحه، لكان ذلك كافيًا كفايةً تامةً في جذب الخلق إليه".

[1] (يونس : ٥٨).

هذا الكلام موجّه لأهل الدعوة، سواء الدعوة المباشرة أو الدعوة عن طريق الوسائل، فلو عرف الناس المحاسن، ثم بذلوا جهدهم في شرحها لغيرهم، لجذبوا بذلك القلوب للاستقامة.

سننتقل إلى بعض الأمثلة التي ضربها الشيخ –رحمه الله– ليظهر فيها محاسن الدين:

قال: **"المثال السابع: ما جاءت به الشريعة من إباحة البيوع، والإجارات، والشركات، وأنواع المعاملات التي تتبادل فيها المعاوضات بين الناس في الأعيان، والديون، والمنافع، وغيرها.**

فقد جاءت الشريعة الكاملة بحِلّ هذا النوع وإطلاقه للعباد؛ لاشتماله على المصالح في الضروريات والحاجيات والكماليات، وفَسَحَت للعباد فَسْحًا صلحت به أمورهم وأحوالهم، واستقامت معايشهم.

وشَرَطَت الشريعة في حِلّ هذه الأشياء: الرضا من الطرفين، واشتمال العقود على العلم، ومعرفة المعقود عليه، وموضوع العقد، ومعرفة ما يترتب عليه من الشروط.

ومنعت من كل ما فيه ضرر وظلم من أقسام الميسر، والربا، والجهالة.

فمَن تأمّل المعاملات الشرعية رأى ارتباطها بصلاح الدين والدنيا، وشهد لله بسعة الرحمة، وتمام الحكمة، حيث أباح سبحانه لعباده جميع الطيبات، من مكاسب ومطاعم ومشارب، وطرق المنافع المنظمة المحكمة."

من المحاسن التي تظهر في الشريعة: ما جات به الشريعة من إباحة البيوع، والإجارات، والشركات، وأنواع المبيعات التي فيها معاوضات.

ما الحُسْن في هذا؟ الحُسْن يظهر في كون الإنسان بحاجة إلى المعاوضة، ويظهر في كونك تعلم أن الله خلق الإنسان لا يستطيع الاكتفاء، فلا بد أن تحصل حالة من المعاوضة، وحالات المعاوضة هذه إذا لم تكن مضبوطة فإن مصالح الناس ستذهب، فالشيوعية منعت المعاوضة، ومنعت البيع، والرأسمالية جعلت بدل المعاوضة الربا، فيربو هذا على هذا، أما الدين الإسلامي فقد أباح البيع وحرّم الربا، أباح المعاوضات لتستقيم حياة الناس، ثم أن هذه المعاوضات غالبًا ستسبّب إشكالات في العلاقات، فقد يشعر الإنسان أنه مظلوم، أو قد يُعتدى عليه، فيتعاوض هذا أرضًا بِدَار، ويتعاوض مثلًا تمرًا ببر، فيظهر هنا من محاسن الشريعة أنها سمحت بالمعاوضات ولكن حكمت فيها، بحيث يكون للمعاوضات نظامًا واحدًا.

فمثلًا: يُمنع أن يعاوض بين تمر رديء كثير وتمر جيد قليل؛ لأن الإنسان سيغترّ في أول هذه المعاوضة بأن هذا نافع؛ لأن هذا جيد وهذا قديم، لكن لابد أن يمرّ في خواطر الخلق بعد هذه المعاوضة أن هذا ظُلم، فمن الظلم أن يعطي الكثير مقابل القليل، وإن كان القليل أجود من الكثير، فلا تحصل معاوضة من نفس النوع بين رديء وجيد.

مثال آخر: لا تحصل معاوضة في بيع الذهب بالذهب إلا بعد أن يكون لك تمام الحرية في البيع والمقابضة، ثم تشتري ما تريد. بمعنى أنه لا يصلح أن تأخذ ذهبك القديم، وتذهب إلى المحل الذي تريد أن تشتري منه ذهبًا جديدًا، فتعطيه الذهب القديم، ويعطيك مقابله الذهب الجديد، بل يجب أن تبيع وتقبض وتأخذ مالك في يدك، ثم تشتري بمالك الذي بيدك ما تريد منه، من أجل فضّ النزاعات، فتكون حرًّا تمام الحرية في شرائك للذهب الجديد، ولا يحصل لك غش. فأنت لو بعت الذهب بالذهب، فإنك ستندم على القديم بعدما تنتهي لذة الجديد، وستقول: ذاك كان أثقل، وأجود، وأفضل. ولذا نقول: بِع، واقبض ثمنه، ثم اشترِ ما تريد.

المعاوضات باب خطير من أبواب الخلاف، ولاحظ هذا عندما يتعاوض الإخوان في البيت الواحد، فهم يتعاوضون إلى أن ينتهي مرادهم، ثم بعد ذلك تشتعل بينهم الحرب، فيقول الأخ لأخيه: أنت أخذت حقي! فيرد الآخر عليه: لكن أنت من أعطيتني إياه! وهكذا.

هذا النموذج هو النموذج الكبير الذي أتت الشريعة فحكمت به.

لو قال أحدهم: لماذا علي أن أتقابض، ثم أرجع مرة أخرى وأشتري منه؟! لا داعي لهذا، وإنما أعطيه ويعطيني، وينتهي الموضوع! نقول: لا! أنت لابد أن تمتثل أمر الشريعة؛ لِما في ذلك من حُسن، فأنت بنفسك لا تعرف نفسك، وهذه الشريعة شرعها لك الحكيم العليم الذي يعلم مَن أنت، ويعلم أنك لو قبضت المال ستذهب من قلبك حرارة الفقد، ثم تأتي بعد ذلك حلاوة الاقتناع. جرِّب هذا وستفهم، فإن للفقد حرارة وللاقتناء حلاوة لا تعوّض.

أنت عندما تأخذ الفلوس ستذهب حرارة الفقد، وعندما تشتري أنت بنفسك بكامل حريتك ستأتيك حلاوة الاقتناع، ثم أنك هكذا ستصبح حرًّا، لك أن تبيع هنا وتشتري هناك. هذا بالإضافة إلى ما يحدث في معاوضات الذهب بالذهب من الغش في ذلك.

والمقصود أن مِن محاسن الشريعة أن الله عز وجل يعلم بحاجة الناس إلى المعاوضات، وشرع لهم في دينهم ما يحملهم على المعاوضة بأقل مشاكل ممكنة، بحيث يستفيدون ولا يتضرّرون من حصول المعاوضات المُفسِدة لمالهم.

ثم ضرب الشيخ مثالًا آخر، وهو: **"ما جاءت به الشريعة من إباحة الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وغيرها.**

فكل طيب نافع فقد أباحه الشارع من أصناف الحبوب والثمار، ولحوم الحيوانات البحرية مطلقًا، والحيوانات البرية، ولم يمنع من هذا إلا كل خبيثٍ ضارٍّ على الدين أو العقل أو البدن أو المال.

فما أباحه فإنه من إحسانه سبحانه، ومحاسن دينه. وما منعه فإنه من إحسانه، حيث منعهم مما يضرّهم، ومن محاسن دينه، حيث إن الحُسن تابع للحكمة والمصلحة، ومراعاة المضار. "

من محاسن الدين: ما جات به الشريعة من إباحة الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، ويقابل ذلك أنها لم تحرم إلا الخبيث -أي: ما يضرّ-.

فأنت تجد أن باب الإباحة واسع، وباب التحريم ضيق، فلم يحرم إلا كل ما يضر الدين أو العقل أو البدن أو المال، وهذا الأمر معلوم مفهوم، بمعنى أن الشرع حرّم في المال: الربا؛ لما فيه من ضرر، وحرّم في العلاقات الجنسية ما فيه ضرر، وحرّم في الأكل والشرب ما فيه ضرر على العقل وعلى البدن، فكل ما أسكَرَ أصبح حرامًا؛ لأن العقل محفوظ، وكل ما أهلك البدن مثل السموم وما يقترب منها أصبح حرامًا؛ لأن هذا يؤدي إلى هلاك البدن الذي هو أمانة عندك.

إذًا **من محاسن الشريعة أنها ما حرمت إلا الخبيث، وأحلّت كل طيب. والحمدلله ما أكثر الطيب، وما أقلّ الخبيث!**

ولهذا عندما يتفلسف أحدهم فيقول: لماذا إذا ذبحنا الذبيحة بأنفسنا، وسمّينا عليها، أصبحت طيبة؟ وإذا تردّت ووقعت فماتت أصبحت خبيثة؟ سنقول: حتى لو لم نعلم الكلام المعاصر -الذي يدل على أن هنا يجتمع الدم الخبيث ...والخ-، وتركنا هذا كله، فإننا نعتقد حكمة الله، فما ذُبح وسُمّي عليه فأُنهر دمه فإن هذا هو الحلال الطيب، وخلافه خبيث، وإن لم أطّلع على خبثه، فكل ما لم يُسمّ عليه -أي: لم يقال عليه عند الذبح: بسم الله- فهو خبيث، سواء تبين لك خبثه أو لم يتبين.

الشريعة بيّنت لك أن ما سُمي عليه فهو طيب، وما لم يُسمّ عليه فهو خبيث، ثم تأتي الاكتشافات المعاصرة فتقول: أن هذا الذي لم يُنهَر دمه ولم يُسمّ عليه يكون فيه من الخُبث في دمه ما الله به عليم، لكن هل أنت ستنتظر أن يقول لك هؤلاء: هذا خبيث وهذا طيب؟ أم أنك مؤمن بالغيب؟!

إذًا من محاسن الشريعة أنها أباحت كل طيب، وحرّمت كل خبيث، وإن آمنت بأن الله عز وجل حكيم فإنه سيُظهر لك الطيب في ما أحلّه، والخبث في ما حرّمه، فالعبد محفوظ في دينه، وفي بدنه، وفي عِرضه، وفي عقله، وفي ماله، وما حُرِّم شيء إلا لحِفظ هذه الكليات الخمس.

ثم قال: **"وكذلك ما أباحه من الأنكحة، وأن للعبد أن ينكح ما طاب له من النساء مثنى وثلاث ورباع؛ لما في ذلك من مصلحة الطرفين، ودفع ضرر الجانبين.**

ولم يبح للعبد الجمع بين أكثر من أربع حرائر؛ لما يترتب على ذلك من الظلم وترك العدل.

مع أنه حثّه عند خوف الظلم، وعدم القدرة على إقامة حدود الله في الزوجية على الاقتصار على واحدة؛ حرصًا على نيل هذا المقصود.

وكما أن الزواج من أكبر النعم ومن الضروريات، فإباحة الطلاق كذلك؛ خشية عيشة الإنسان مع مَن لا تلائمه ولا توافقه، واضطراره للبقاء في ضنك الحال وشدة العسر: {إِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ} ".[1]

هذه النقطة تابعة لما مضى، وهي أن الله عز وجل أباح الطيبات من كل شيء، وحرّم الخبائث من كل شيء، سواء كان في المطاعم والمشارب، أو حتى في المناكح والزواج والطلاق، فأباح الزواج، وأباح الطلاق، في مقابل أن القوانين الوضعية تمنع الطلاق وتسمح بالعشيق!!

ومن ذلك أيضًا: **"ما شرعه الله ورسوله بين الخلق من الحقوق التي هي صلاح وخير وإحسان وعدل وقسط وترك للظلم.**

---

١ (النساء : ١٣٠).

وذلك كالحقوق التي أوجبها وشرعها للوالدين، والأولاد، والأقارب، والجيران، والأصحاب، والمعاملين، ولكل واحد من الزوجين على الآخر.

وكلها حقوق ضروريات وكماليات، تستحسنها الفطر والعقول الزاكية، وتتم بها المخالطة، وتتبادل فيها المصالح والمنافع، بحسب حال صاحب الحق ومرتبته.

وكلما تفكّرت فيها رأيت فيها من الخير وزوال الشر، ووجدت فيها من المنافع العامة والخاصة، والإلفة وتمام العشرة: ما يشهدك أن هذه الشريعة كفيلة بسعادة الدارين.

ترى فيها هذه الحقوق تجري مع الزمان والمكان والأحوال والعُرف، وتراها مُحصِّلة للمصالح، حاصلًا فيها التعاون التام على أمور الدين والدنيا، جالِبة للخواطر، مزيلة للبغضاء والشحناء.

وهذه الجمل تعرف بالاستقراء والتتبّع لها في مصادرها وموارِدها."

من محاسن الشريعة أيضًا: ما شرعه الله ورسوله بين الخلق من الحقوق التي فيها صلاح وخير وإحسان وعدل وقسط. والحقوق معلومة، رتّب الشرع الحقوق ترتيبًا منطقيًّا، فبدأ بحق الله سبحانه وتعالى، ثم بحق الوالدين، وهكذا، فهذا الترتيب المنطقي يجعل الحياة في حالة من التوازن، بحيث أنه لا يُقدّم صاحب حق أدنى على صاحب حق أعلى.

وقد رأينا من ضعف الشريعة في قلوب الخلق أنهم لا يتوازنون في مسألة الحقوق، فهم يسيرون في إعطاء الحقوق على هواهم، ويطالبون الخلق في إعطاء الحقوق على هواهم!

أضرب في ذلك مثالًا: (الخلط بين حق الوالدين وحق الصحبة).

يكون لك أحيانًا زملاء أو صحبة فيها خير وصلاح، لكنها تكون سببًا في تقصيرك في حقوق الوالدين، وإذا قصّرت في حق هؤلاء الزملاء هاجموك! والمؤسف أنهم مستقيمون، فالمفترض أن المستقيم إذا اجتمع مع مستقيم فإنه يعينه على أداء الحقوق، لا أن يسبّب له أزمة في الحقوق!! وهكذا الزميلات يجتمعن على العلم والطلب، وتكون الزميلة سبب لتقصير الأولى مع زوجها، أو مع والديها! ويظهر هذا أيضًا في الأعمال، فتكون الموظفة ملتزمة بوظيفتها، لكن لها زميلة تضغط عليها حتى وهما في الدوام، مع أنهما مستقيمتان! فتكلمها في الهاتف، وأحيانًا تقول لها: نتدارس. لكن كل شيء له حقوقه، فأنا الآن عندي وظيفة لابد أن أقوم بها، أنا الآن عندي بر لوالدي، ويجب أن أقوم بهما، عندي حق للزوج يجب أن أقوم به، فتقول لها: أتؤنسين زوجك، أم

تتدارسين معي؟! نعم، إيناس الزوج رغم أنه ليس طلب للعلم لكنه واجب وحق من حقوقه، فاختلط الأمر على الناس، والمشكلة الأكبر عندما يختلط الأمر على المستقيمين! فلو اختلط الأمر على عامة الناس لكان الأمر أهون، أما عندما يختلط على المستقيمين فهذا دليل على أنهم لم يروا محاسن الشريعة، ولم يتدارسوها.

فمن محاسن الشريعة أن يُقدّم صاحب الحق الأعلى على صاحب الحق الأدنى، وإذا تزاحمت الحقوق فإنه يبدأ بالأعلى على الأدنى، وأنت معذور في إسقاط الأدنى إذا تزاحم مع الأعلى، معذور أن لا ترد على هاتفك إذا كنت الآن تقوم بعمل، حتى إذا حصل للأدنى نوع ضرر في مقابل أن الأعلى محفوظ حقه.

إلى أن نصل إلى تَدَنٍّ غير مستوعب في الحقوق عند الناس الذين ليس لهم دين، وهذا مثل ما تسمع في الهندوسية، أو ديانة السِّيخ الذين يعظّمون البقرة، فإن هؤلاء الذين يعظّمون البقرة لهم مقالة، أولها يبدأ بأن يقال: أمّنا البقرة!! ثم يعدّد المصالح، فيقول: أمّنا الحقيقية ترضعنا سنتين، وبعد ذلك تكلّفنا من الأشغال ما يقضي عمرنا كله، لكن أمّنا البقرة ترضعنا باللبن عمرها كله، ولا تطلب منّا شيئًا، أمّنا الحقيقية إذا ماتت ستحتاج جنازة، وأن نعمل لها كذا وكذا، أما أمّنا البقرة عندما تموت فإننا سنستفيد منها كلها! وبعد هذا الاستنتاج العقلي الفاسد يقال: إذًا مَن ستكون حقوقه أعلى؟

كلامهم هذا موجود بالضبط بالترجمة الحرفية، وهو يُعدّ عندهم أكبر رأس في الإصلاح الاجتماعي.

انظروا لهذا الانقلاب في الحقوق الذي هو دليل على عدم استقامة الدين! لكن عندما تترتّب الحقوق والأولويات فإن هذا دليل على محاسن الدين.

ثم ضرب الشيخ –رحمه الله– مثالًا آخر تظهر فيه محاسن الدين وهو: **"ما جاءت به الشريعة من انتقال المال والتركات بعد الموت، وكيفية توزيع المال على الورثة.**

وقد أشار تعالى إلى حكمة ذلك بقوله: {لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً} ، فوضعها الله بنفسه بحسب[1] ما يعلمه من قرب النفع، وما يحب العبد عادة أن يصل إليه ماله، وما هو أولى ببرّه وفضله، مرتِّبًا ذلك ترتيبًا تشهد العقول الصحيحة بحُسنه، وأنه لو وكل الأمر إلى آراء الناس وأهوائهم وإراداتهم لحصل بسبب ذلك من الخلل والاختلال وزوال الانتظام وسوء الاختيار ما يشبه الفوضى.

---

[1] (النساء ١١)

وجعل الشارع للعبد أن يوصي في جهات البر والتقوى بشيء من ماله فيما ينفعه لآخرته، وقيَّد ذلك بالثلث فأقل لغير وارث؛ لئلا تصير الأمور التي جعلها الله قيامًا للناس ملعبةً يتلاعب بها قاصرو العقول والديانة عند انتقالهم من الدنيا. أما حالهم في حالة صحة الأجسام والعقول، فيما يخشونه من الفقر والإفلاس مانعٌ لهم من صرفه فيما يضرهم غالبًا."

من محاسن الشريعة أيضًا مسألة انتقال الأموال والتركات، فإن الأموال قُسّمت ووُزّعت بصورة توافق ما تقبله النفس الإنسانية، فيكون الأقرب فالأقرب له نصيب من هذا المال، وإنما شُرّع هذا لفضّ النزاعات، أما إذا قُسّم المال على الهوى فسيكون الأمر شبيهًا بالفوضى!

ولذلك جعل الله عز وجل لصاحب المال أن يوصي في جهات البر والتقوى بشيء من ماله بما ينفعه في آخرته وقيَّده بالثلث؛ لكي لا يحكم عليه هواه لحظة الموت، فيَحرِم من له حقوق. وإذا قال قائل: لكن صاحب المال في الدنيا وهو على قيد الحياة يكتب كذا وكذا لمن شاء؟! سنقول: نعم، لكن شُحَّه سيمنعه من دفع كل المال وهو في تمام صحته، وحينما يوشك على الموت، ويرى أن نفسه ستذهب، ويكون له هوى يتخطّفه، فإنه سيمنع هؤلاء الورثة حقوقهم، والله عز وجل هو مالك الملك وهو الذي يؤتي الملك من يشاء.

إذا فهم العبد أنه على المال مجرد خازن لَتَصَوَّر كيف تصرّفت الشريعة بهذا المخزون. والمقصود أن هذا المال خَزْنة أنت تقف عليها حارسًا، وابتُليت كيف ستتصرف في هذا المال المخزون؟ فإذا انقضت حياتك انتهت سلطتك على هذه الخزنة، وانتقلت إلى غيرك ليُبتلى بها، ويُرى ماذا يفعل.

فعدم تصوّر المال على أنه عارِية، وأنك فيه مختَبَر مُبتلى، تُرى كيف ستفعل فيه، يجعل الإنسان يظن أنه مالك له، فيتصرّف فيه كما يشاء، ولهذا أتت الشريعة تحجزه عن ذلك، فلا يقول أحد: هذا مالي! أنا حر فيه! نقول: لا أنت مجرد خازن على المال، حارس له، والمُلك مُلك الله عز وجل.

ومن الأمثلة أيضًا: **"ما جاءت به الشريعة الإسلامية من الحدود وتنوّعها بحسب الجرائم.**

وهذا لأن الجرائم والتعدي على حقوق الله وحقوق عباده من أعظم الظلم الذي يُخلّ بالنظام، ويختلّ به الدين والدنيا. فوضع الشارع للجرائم والتجرّءات حدودًا تردع عن مواقعتها، وتخفّف من وطأتها، من القتل، والقطع، والجَلْد، وأنواع التعزيرات.

وكلها فيها من المنافع والمصالح الخاصة والعامة ما يعرف به العاقل حُسن الشريعة، وأن الشرور لا يمكن أن تُقاوَم وتُدفَع دفعًا كاملاً إلا بالحدود الشرعية التي رتّبها الشارع بحسب الجرائم قلةً وكثرةً، وشدةً وضعفًا."

سنرى هذا الحُسن العظيم في الشريعة، الذي هو نوع من الحُسن لا يُجاريه شرع في الأرض أبدًا.

لو نظرنا إلى مسألة الحدود والعقوبات وما أتى في الشريعة منها، سنجد أنها أتت في موطنها الصحيح، ولن نمثّل عليها، وإنما سنمثّل على ما يسمّونه بأحكام الديمقراطية، أو الديمقراطية في التحكيم.

ما معنى "الديمقراطية"؟ معناها: شعب يحكم نفسه بممثّلين له، لكن المقصود في الأصل هو أن يحكم الشعب نفسه.

فمثلًا: هذه جريمة سرقة حصلت في هذه العمارة من هذا الحي، لو سُئل أصحاب المال نفسهم -الذين حصلت لهم جريمة السرقة-: بِمَ تحكمون على السارق لو وجدناه؟ سيتمّنون لو أنهم قتلوه؛ لأنهم هُم الذين أُخِذ مالهم، ووقع لهم الرعب، وحصل لهم الخوف، فحالهم سيكون على أشدّه من جهة المشاعر. وحتى جيرانهم القريبون سيكون عندهم أثر خوف من هذه السرقة، لأن هذا معناه أن اللص يدور في الحي، ولهذا سيقولون: لو وجدناه سنقطع يده، سنسجنه، سنفعل كذا وكذا. لكن جماعة الحي الآخر البعيد الذين سمعوا عن هذا الخبر، لو سُئلوا: ماذا نفعل بالسارق؟ أصحاب المال المسروق يريدون أن يقطعوا يده، وجماعة يريدون أن يسجنوه أبدًا، ما رأيكم؟ سيجيبون: حرام! هذا كلام مَن لا قلب له! قد يكون اللص محتاجًا! فَهُم أشخاص في طرف المدينة البعيد، لم يشعروا بأي مشاعر، ولا حصل لهم أي تأثّر من وقوع السرقة، وإنما سمعوه خبرًا طفيفًا.

سنأتي بهذه الأقوال كلها، ونقول: ماذا سنفعل الآن؟ بعقل مَن سنحكم؟ هل سنحكم بعقل مَن تأثّر وتضرّر؟ أم بعقل الذي جاوره؟ أم بعقل الذي بَعُد عنه قليلًا؟ أم بعقل الذي لم يصله شيء من الضرر؟ من المؤكد أن هذه العقول كلها ستختلف بحسب هواها، فنحن لو أَدَرْنا الدائرة، وجعلنا البعيد -الذي عارَض ورفض القصاص- هو الذي وقعت له السرقة فإن الدائرة ستتحوّل، وسيصبح هو مَن يُطالب بالقتل.

والمقصود: أن مسألة الحدود هذه لا يمكن أن تكون تحت تفكير الخلق؛ لأنهم لابد أن يتأثروا بهواهم، فالأحكام التي فيها منع، وفيها نوع زَجْر وحَبْس للناس عن الإثم والمنكر لا تستطيعها النفوس؛ لأنها تضع نفسها مكان مرتكب الجريمة، أو يعصف بها الهوى فيجعلها تمامًا ضده، فالنفس لا تستوي أبدًا لمثل هذا.

ولذلك كانت أحكام الله عز وجل هي أحسن أحكام وُضِعَت للخلق، بل كما مرّ معنا أن في القصاص حياة، فأنت ترى شخصًا قد ذهب، لكن في المقابل: حُفِظَت حياة الخلق لِما لله عز وجل من حكمة في هذا، فهو العليم الخبير الذي يعلم نفوس الخلق، فالحدّ إذا وقع على الإنسان خاف، ومَن أَمِن العقوبة أساء الأدب، وهذا كله في نفسيات الناس، فلا يُطالَب الناس بالمثالية! الناس لو ما وُضِعَت لهم الحدود تمادوا، وإذا ما خافوا فإنهم لن يبتعدوا عن الخطأ، ولن يتوقفوا عن فعله.

ولذلك مما تراه في أحكام الشريعة: ما ورد في سورة النساء، قال تعالى: {لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ}[1] ، مع أن الآية التي بعدها: {إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}[2] . يقول أهل العلم: الأصلُ في الشرع: أن الله عز وجل لا يحب الجهر بالسوء، وأن تتكلم على أحد إلا لو ظُلمت، أما الاستثناء هذا فيتعامل به مَن وَجد في نفسه أنه لو ما تكلم عن ظُلمه نَهَزَ إلى السيف. فهناك نفوس ربنا خلقها شديدة، فيها حميّة قوية لنفسها، لو ظُلمت وما تكلمت عن ظلمها وأمرتها الشريعة بالسكوت، فإنها ستذهب وتأخذ السيف وتقتل ظالمها، فمِن أجل تنفيس ما في قلوب هؤلاء أُذِن لهم أن يتكلموا عن ظلمهم ويشتكوا؛ لئلا يتحول هذا الغيظ إلى اعتداء أكبر منه.

وأتت الآية التي بعدها مباشرة تدعونا إلى العفو، وعدم معاملة الخلق إلا بما نحب أن يعاملنا الله به، فهل ترى شرعًا ألطف من هذا راعى النفوس؟! الله عز وجل لا يحب الجهر بالسوء، لا يحب أن تتكلم عن الناس، لكن إن كنت لا تقدر على العفو، ولا تستطيع السكوت عمّا أصابك من ظلم فتكلَّم؛ لكي لا تتحول جَمرة الظلم هذه إلى اعتداء أعلى. فانظر إلى لطافة الحكم، وكيف أنه راعى مَن يستطيع ضبط نفسه، وراعى أيضًا من لا يستطيع ضبط نفسه، ذكر الأعلى، وذكر الأدنى، بحيث يستطيع كل الناس الدخول تحت هذا، **فمَن رَوَّض نفسه واستطاع أن يعفو سيعامله الله بالعفو**، وَمن لا يستطيع ذلك فلْيتكلَّم عند مَن ينفعه الكلام معه، بحيث تخرج هذه الجمرة وتنطفئ. وأنتم تعرفون أن بعض المظلومين يرون أن الكلام ينفّس عنهم، وبعضهم يرى أن الكلام لا يجدي شيئًا.

والمقصود هو أن ننظر لسماحة الشريعة ومحاسنها، وكيف أنها راعت كل الخلق، وأن الأحكام كلها أتت في مواطنها.

ومن الأمثلة على حُسن الشريعة: **"ما جاءت به الشريعة من الأمر بالحَجْر على الإنسان عن التصرف في ماله إذا كان تصرفه مُضرًّا به أو بغيره .**

---

[1] (النساء :١٤٨)

[2] (النساء :١٤٩)

وذلك كالحَجْر على المجنون والصغير والسفيه ونحوهم، والحَجْر على الغريم لمصلحة غُرمائه.

وكل هذا من محاسن الشريعة، حيث منعت الإنسان من التصرف في ماله الذي كان في الأصل مطلق التصرف فيه، ولكن لما كان تصرفه ضرره أكثر من نفعه وشره أكبر من خيره حَجَرَ عليه الشارع حَجْرًا للتصرفات في ميدان المصالح، وإرشادًا للعباد أن يسعوا في كل تصرف نافع غير ضار."

وهذا الأمر ظاهر.

مثلًا: هذا طفل صغير وَرِث مالًا، إذا أُطلقت يده في المال استطاع كل أحد أن يمكر به، ويأخذ ماله، أو ضيّعه هو في سَفَه، وعندما يكبر يلوم الناس الذين حوله، ويقول: لماذا لم تمنعوني؟! لماذا لم تُرشِدوني للصواب؟!

أو من وجه آخر: يكون الإنسان قد غرم مالًا، كمديرة مدرسة وعندها معلمات، وهذه المديرة لم تحصل على أموال من الطلاب من أجل أن تعطي المعلمات رواتبهم، وبقي الحال على هذا في الشهر الأول والثاني والثالث، وأتوا قبل الاختبارات أو أثناءها وقالوا للطلاب: لن نعطيكم شهاداتكم إلا إذا أعطيتمونا أقساط المدرسة، فأخذت المديرة أقساط المدرسة، وبدلًا من أن تعطي المعلمات رواتبهم، أخذت الأقساط وسافرت بها!!

فذهب أصحاب الرواتب واستصدروا حكمًا من المحكمة بالحجر على أموال المديرة، فدُعيت هذه المديرة إلى المحكمة، وحُجِر عليها في التعامل مع مالها، بالرغم من أن هذا مالها، وهو موضوع في البنك باسمها، لكن هل يُعقَل أن تحجز هي للسفر، وتصرف المال في عشرة أيام، وتؤجَّل رواتب هؤلاء المعلمات للعام القادم؟!! هل فِعل المعلمات صحيح؟ بالطبع صحيح، لا بد أن يحجروا عليها ولو كان هذا مالها؛ لأجل أن يأخذ هؤلاء الغرماء حقّهم، وما يتبقى من المال فهو لها، تذهب به مكان ما تريد!

موقف الناس من مثل هذه الأحداث يختلف على حسب موضعهم من الدائرة، فإن الناس البعيدون عن هذا هاجموا المحاكم، وقالوا: كيف يُحجَر على مالها؟ مالها هذا ملكها! والمعلمات أصحاب دَيْن، وعندما ترجع هي من سفرها تتصرّف معهم!!!

والمقصد من هذا هو أن ننظر لحفاظ الشريعة على الحدود، وعلى استقرار الناس، وعدم تلاعب الناس ببعضهم، فالحَجر من المصالح الشرعية، التي لا تجعل السفيه يتصرف في المال، ولا تجعل المجنون يتصرف في المال، وإن كان بعض الناس استعملوا الحجر فيما لا يليق، لكن الحجر أصلًا من المصالح الشرعية.

ومن صور محاسن الشريعة: **"ما جاءت به الشريعة من مشروعية الوثائق التي يتوثّق بها أهل الحقوق.**

وذلك كالشهادة التي تُستوفى بها الحقوق، وتمنع التجاحد، ويزول بها الارتياب.

وكالرهن، والضمان، والكفالة، التي إذا تعذر الاستيفاء ممّن عليه الحق رجع صاحب الحق إلى الوثيقة التي يُستوفى منها .

ولا يخفى ما في ذلك من المنافع المتنوعة، وحفظ الحقوق، وتوسيع المعاملات، وردّها إلى القسط والعدل، وصلاح الأحوال، واستقامة المعاملات.

فلولا الوثائق لتعطّل القسم الأكبر من المعاملات، فإنها نافعة للمتوثِّق، نافعة لمن عليه الحق من وجوه متعددة معروفة."

من محاسن الشريعة: التوثيق في الديون والحقوق.

أنا أتذكر ما لي عند فلان، لكن نفس المحقوق –الذي وجَبَ عليه الحقّ– إذا اعتمد على ذاكرته سينسى، ويدخل الناس في إشكالات لا نهاية له، فلا يُعتمد على الذاكرة حتى في العلاقات الحسنة، وإنما من الواجبات علينا أن تُسجّل الحقوق ، سواء كانت الديون أو التبادلات النفعية، مثل: القروض ...وإلخ.

على كل حال هذا جزء يسير من الكلام على محاسن الشريعة.

*سأطلب منكم للقاء القادم أن تُحضِروا معكم جدول مواطن ورود اسم الله (الحكيم)، فنحن عند بداية كلامنا عن اسم الله (الحكيم) ذكرنا أن هذا الاسم ورد في القرآن أكثر من مائة مرة، واتفقنا أنكم ستستخرجون هذه المواطن من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، وتكتبونها في جدول.

[1] كما أوجبت ذلك بعض المذاهب، وبعضها يرى أن العبد يأثم إذا ما وثّق وكتب، وهناك مَن يرى أن هذا للنَّدب.

اللقاء الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا بفضل الله ومنّته نتدارس هذا الاسم العظيم، اسم الله (الحكيم)، ونسأله سبحانه وتعالى بإذنه وبأمره وبفضله أن تستقر في قلوبنا معاني هذا الاسم العظيم؛ فنتمتع به في حياتنا، ونخرج بالنتائج من دراسته، التي من أهمها: الرضا عن الله، فإن الرضا عن الله إذا وقع في القلب كانت تلك هي النفس المطمئنة التي يُقال لها: {ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً}[1]، فمن عاش حياتَه راضيًا عن الله في أفعاله، وأحكامه، وشرعه، وتصنيفه، وأوامره فإنه سيتمتّع بهذه النفس المطمئنة.

والذي يجعل أهل النفاق يتردّدون في نفاقهم، ولا يلوون على شيء، ويكونون {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ} هو أنهم مرتابون، في ريبهم[2] يتردّدون، ثم إنهم يتربّصون، بسبب أنهم لا يقين عندهم، فهم إذا وجدوا نتائج مادية من الشرع قَبِلوا به، وإذا لم يجدوا تركوه! ولهذا يقول الله عز وجل في وصفهم -الذي لا نزال نخاف منه، ولابد أن نحذره-: {وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[3].

فمَن فَتَن نفسه، وتربّص، وارتاب، فإنه فعل هذا كله لأنه لا يُؤمن بحكْمَة الله عز وجل وحُكْمه؛ فمن آثار الإيمان باسم (الحكيم): طرد النفاق، ووراثة الطمأنينة.

النفس المطمئنة هي النفس المتيقّنة بكمال الله، وباستحقاقه للألوهية، وبكمال شرعه، ودينه، وأمره، وقضائه، وقدره.

سنناقش اليوم جزءًا آخر من الكلام حول (محاسن الدين) التي تظهر فيها حكمة الله في شرعه. سنأخذ ما تيسّر، ثم ننتقل إلى (حكمة الله في أمره وقضائه)، وهذا سيكون آخر جزء بالنسبة لنا. وغدًا إن شاء الله سيكون كلامنا عن جَمْع اسم الله [الحكيم] من القرآن، وبعد غد سنمرّ من جديد على الاسم كاملاً بالتقريرات التي خرجنا بها -إن شاء الله-.

نحن نتكلم عن شيء من محاسن الدين؛ لأن هذا يُبرز لنا حكمة الله في شرعه. ونحن نتبع هذه الطريقة في دراسة الأسماء؛ لنفهم أن **أسماء الله عز وجل واسعة في فهمها**، بمعنى أنه حتى تتمكن من فهم اسم واحد فإنك تحتاج أن تقضي جزءًا كبيرًا من حياتك في البحث إلى أن تتبين لك معاني الاسم. وها نحن قد تنقّلنا من مكان إلى مكان ونحن نناقش اسم الله [الحكيم].

---

[1] / [الفجر:٢٨]

[2] / [النساء:١٤٣]

[3] / [الحديد:١٤]

سنعدّد الآن: **ماذا درسنا خلال اسم الله [الحكيم]؟**

فتحنا في أول يوم كتاب "فقه الأسماء الحسنى"، وقرأنا معنى الاسم من أوله لآخره، وخرجنا بأننا فهمنا أن الله عز وجل:

- له الحُكْم.

- وله الحِكْمَة.

وكان تركيزنا على الحِكْمَة لأن الحُكْم سيأتي من ورائها، واتفقنا على أن الله [الحكيم] هو الذي له الحكمة البالغة:

- في خلقه.

- وفي أمره.

- وفي شرعه.

بدأنا أولاً بحكمته في **خلقه**، وأتينا بجملة من كلام المؤلف، التي قال فيها: **"أما الحكمة في الخلق: فإنه سبحانه خلق الخلق بالحق، ومشتملًا على الحق"**. أخذنا هاتين الجملتين، وخرجنا للقرآن، وبدأنا نبحث عن ورود كلمة (الحق) في خلق السماوات والأرض، وفي غير ذلك، وتبيّن لنا معنى (بالحق)، وتبين لنا عكسها: معنى (بالباطل)، وقضينا في هذا يومين.

ثم أردنا أن نعرف ما معنى **"مشتملاً على الحق"**، وقلنا أن هذا معناه أنك تأتي إلى مخلوقات الله وترى فيها الحق، وظهور حِكْمَة الله فيها، وأن الله قد وضع كل شيء في موضعه. واتفقنا كيف تُدرس مثل هذه الأمور، وانتهينا إلى أن قرأنا جزءًا من كلام ابن القيم –رحمه الله– في كتابه: "مفتاح دار السعادة".

ثم تكلمنا بعد ذلك عن حكمة الله في **شرعه**، ودخل تحت هذا ثلاثة أمور:

الأمر الأول: حكمته في **إرسال الرسول** –صلى الله عليه وسلم–. فالله عز وجل الحكيم أرسل الرسول، وأيّده بالمعجزات التي تدلّ على صدق نبوته.

الأمر الثاني: حكمته في **إنزال القرآن** الذي فيه الشرع، وترى فيه كمال الحكمة، {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}[1] . وطبّقنا على سورة (ص)، فكانت نموذجًا لبيان حِكْمة الله عز وجل في القرآن.

الأمر الثالث: حكمة الله عز وجل في شرعه من جهة **الأحكام**، ويظهر ذلك عند البحث عن محاسن الدين.

سنكمل قراءتنا في رسالة الشيخ السعدي –رحمه الله– "الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي".

ثم بعد ذلك سنتكلم عن حِكْمَة الله في **أمره**، والمراد بأمر الله هنا: قضاؤه وقدره.

ذكر الشيخ السعدي –رحمه الله– في رسالته أمثلة نافعة تظهر فيها محاسن الدين، منها: **"مَا حَثّ الشّارع عَليه مِن الإِحْسَانِ الذّي يُكسِب صَاحِبه الأجرِ عِنْد الله والمعْروف عِندَ النّاس، ثُم يرجِع إليه ماله بِعينه أو بَدله، فَيكُون مَكسَب هَذا النّوع أجلّ المكاسِب، دونَ أنْ يلَحَق صَاحِبه ضَرَر.**

وَذلِكَ كاَلقرْض، واَلعَاريّة، وَنحوهما.

فإن في ذلك من المصَالح، وَقَضاءِ الحَاجَات، وتَفريج الكُرُبَات، وحصول الخيرات والمبرّات مَا لَا يُعدّ ولا يُحصَى.

وصَاحِبه يَرْجع إِليه مَاله، وقد اسْتفادَ مِنْ رَبِه أجرًا جزيلاً، وبَذرَ عندَ أخيه إحْسَانًا وجَميلًا، مَعْ مَا يتْبع ذَلِكَ مِنَ الخَيْر والبرَكة، وانْشِرَاحِ الصَّدر، وحصول الأُلفَةِ والمودّة.

وَأمّا الإِحْسَانُ المحضُ الّذي يُعطِيه صَاحبُه مجَّانًا ولا يرَجع إِلَيهِ، فقد تَقَدّمتِ الإِشَارَةُ إِلَى حِكْمَتِه فِي الزكَاة وَالصدقة ".

من محاسن الدين: أنّ الله عز وجل يحثّ الناس على القرض. والقرض والعارية مختلفان عن الصدقة، فقد ورد في الحديث أنّ الصدقة تُضاعَف بعشرة أمثالها، أما القرض فيُضاعَف إلى ثمانية عشر ضعفًا[2] ، ولنفهم سبب ذلك سنضرب مثالًا: يكون لك مائة ألف ريال، وتريد أن تُخرج منها صدقة، ستحسِب أنها إذا خرجت لن تعود لك في الدنيا، وبناءً على ذلك ستتصدق بعشرة

---

[1] [الأنعام:١١٥]

[2] روى ابن ماجه في سننه/ في كتاب الصدقات/ باب القرض/ (٢٤٣١) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبا: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، فقلت: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة " [حكم الألباني]: ضعيف جدًا.

آلاف فقط، لكن يُقال لك في القرض: اعطِه ولو تسعين ألفًا –مثلاً–، وستُؤجر على هذا ثمانية عشر ضعفًا، مع اعتقادك أن المقترض سيردّها إليك، فتكون بمثابة المغامرة.

هناك فرق بين أن تعطي وأنت تعرفين أن هذا المال لن يرجع لك، وبين أن تعطي وأنت على انتظار الرد، ولا زالت ملكية الأمر موجودة في نفسك، فهذا فيه نوع مشاحّة تحتاج إلى علاج، ولهذا يقول كثير من الناس: "أنا أتصدق، ولا أُقرض أحدًا؛ لأن القرض سيلزم مني السعي وراء المقترض لمطالبته بمالي". مع أنّ أجر القرض في المضاعفة أعلى من أجر الصدقة؛ لأنك في القرض ستعطي أكثر، فأنت قد تُقرض بمبلغ تسعين ألفًا؛ لأنك مطمئن بأنها ستعود، لكن في الصدقة لن تُخرج إلا عشرة آلاف، مع أن الناس حولك محتاجون أن تقرضهم تسعين، لا أن تتصدق عليهم بعشرة!

ولو انتشر مثل هذا الأمر لحصل من الخير للبلاد والعباد ما يكفينا شر البنوك الربوية، وشر السجون التي تقف وراءها الديون! النفوس عندما تشحّ بالمال يحصل في المجتمع مثل هذه المشاكل.

حينما ترى أن الله حضّ الناس على القرض والعارية، ستجد أن النفوس التي تنتظر الأجر من الله يهون عليها الأمر. ثم لا تظنوا أنّ الأمر يتوقف عند "عشرة" و"ثمانين" و"تسعين" ألف! بل تصل المسألة إلى حد أن تعيري جارتك آنيتك، ألا تسمعين في القرآن قوله تعال: {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}[1]، عندما تقرضين جارتك الماعون؛ من أجل أن تستضيف ضيوفها، تكونين ممن وُعد بثمانية عشر ضعفًا، فلا يشترط أن يكون الإقراض في الأموال العظيمة، وإنما حتى الأمور اليسيرة تدخل فيه.

المُلك فيه شحّ دائمًا، والقرض ماذا يفعل في القلب؟ يهوِّن هذا الشحّ؛ فالمُلك مُلكك ولكنه في يد غيرك يتمتع به، ثم يعود لك، وأنت مأجور بلا كلفة على ذلك. لا تجعلي الشيطان يُخذّلك عن أمر وراءه أجر عظيم، أو يُنسيك الأجر العظيم من وراء هذا الأمر!

أنت الآن في موقف العارية هذا أمام مشكلتين:

-إما أن تعطي جيرانك صحونك، وتقولي: إن شاء الله تسلم ولا تنكسر. وتخبّئي الجيّدة، وتُظهري الرديئة.

-وإما أن تمدّي لهم يدك دون أن تحتسبي الأجر على الله من وراء هذه العملية، فتعطيهم من باب المجاملة، فيفوتك أجر المضاعفة.

---

[1] / [الماعون: ٧]

والمقصود: هو أن تنظري إلى الشريعة، وكيف أنها حثّتك على أعمال تنالين أجرها. فهذا الماعون الآن مغلق عليه لا تنتفعين به، هو ماعون ملَّكَكِ الله إياه، ثم تمدّين يدك به لتجري عليك الأجور. تأمَّل حُسن الإسلام في ذلك، أرأيت كريم مثله سبحانه وتعالى؟! يملّكك، ثم يفتح لك باب العارية، ثم يعيدها إليك، ويجري عليك الأجر.

ومثله في كل شيء: امرأة —مثلًا– تحتاج في زفافها إلى ملبس، ساعة ...أي شيء، فتستعير منك، وهكذا، كل شيء سأُدخله باب القرض والعارية، وأنت مأجورة على هذا بالمضاعفة.

أما (الفرق بين القرض والعارية): فالقرض مثل العارية، لكن هناك فروق سنذكرها بوجه العموم: في القرض والعارية تبقى العين كما هي ثم تستردّها، لكن القرض يكون بالمال، والعارية بالأشياء المحسوسة، فالطعام –مثلًا– لا يدخل في العارية، فأنت عندما تعطين جارتك بصلة أو بيضة تحتسبينها على الله صدقة، فما يُنفَقْ ولا يعود يسمّى صدقة، وما يُنفَق ويعود يسمى قرض أو عارية.

ماذا يفعل بك الشيطان حينما تُقرضين؟ يقول لك: لن يُحسِن هذا المقترض استعمال القرض، كيف تقرضينه؟! من المؤكد أنه سيعيد إليكِ العارية تالفة. لكن عليك أن تقاومي هذا، واعلمي أن الله عز وجل هو الذي يحفظ لك مالك، فهذه ابتلاءات يختبر الله فيها صدقك. واعلمي أن هذه العارية حينما تنكسر فإن هذا هو الوقت الذي انقضى فيه الانتفاع بها، سواء كانت عندك أو عند مستعيرها! فأنت تتعامل في هذا كله مع الله!

والمقصود: أننا سننظر لمحاسن هذا الدين، وكيف أنه يحثّك على القرض والعارية، وعلى نفع إخوانك، مع أن مالك هذا لا زال لك، لم يحصل فيه شيء، وسيعود لك مرة أخرى.

ومن صور محاسن الدين أيضًا: **"الأصُول والقَواعد الّتي جعَلها الشَّارع أُسُسًا لفصْل الخُصُومات، وحلّ المشكلات، وتَرجيحِ أحَد المتَداعيين عَلى الآخَر.**

فإنّها أصُولٌ مَبنيّة علَى العَدل والبُرهان، واطّراد العُرْف، ومُوافقةِ الفِطَر، فَإنّه جَعَلَ البيّنة عَلى كُل مَن ادّعَى شَيئًا أَو حقًّا مِن الحُقوق، فَإذا أتَى بِالبينة الّتي تُرَجّحُ جانبه وَتُقَوّيه: ثَبَتَ لَهُ الحَق الّذي ادّعى بِه، وَمَتى لَمْ يأتِ إلا بمجرّد الدّعْوَى: حَلَفَ المدَّعَى عَليه عَلى نفي الدَّعْوَى، ولَمْ يَتوَجَّه لِلمدَّعَى عَلَيهِ الحَق.

وجعَل الشَّارِع الْبَيّنَات بِحسْب مَراتبِ الأَشْياء، وَجعَل الْقَرائِنَ المبْنِيَّة وَالعُرْف المطّرد بينَ النّاس من البَيّنَات.

فالبَيِّنةُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلّ ماَ يبُيَنّ الحق ويدُلّ عَلَيْه.

وجَعَلَ عِند الاشتِبَاهِ وتَسَاوِي الخصمَيْن طريق الصلح العادل المناسب لكل قضية طريقًا إلى حلّ المشَاكلِ والمنَازَعَات.

فكلُّ طريق لا ظُلمَ فيهِ ولا يُدخِل العبادَ في مَعْصِيَةِ الله –وهو نافعٌ لهم–، فقد حث عليه إذا كانَ وسيلَة إِلى فصْل الخُصُوماَت وقطْعِ المشَاجرَات.

وسَاوى فِي هَذا بَينَ القَويّ واَلضّعِيف، والرّئِيس والمرْؤوُس فِي جميعِ الحُقوق.

وأرضى الخصوم بسلوكِ طُرق العَدْلِ وعدَمِ الحَيْف".

سنرى هنا محاسن الشريعة في الخصومات:

لو تُرك كل مُدّعي يأخذ بدعوته، لافترى الناس على بعضهم. مثلًا: شخص يقول: أنا لي مال عند فلان. بمجرد أن يقول هذا سيقول الناس: "لا دخان بدون نار"، ويتّهمونه بأنه أخذ مال فلان، لكن الشريعة لا تقبل مثل هذا الكلام؛ فهو بمثابة الأوهام.

مثلًا: شخصان كانا في سفر، ولم يتواثقا، أو كانا في حال من الصحبة والأخوّة والعلاقة الجيدة، فتبادلا أو أخذ هذا مال هذا على هذا العهد، ثم افترقا، فجحده. كل هذه أشياء يمكن أن تحصل، وهي لا تخلوا من حالتين:

أ- إن كان له بينة –والبينة هي: ما يُثبت أن هذا الأمر له-: فإنه سيدّعي ويأتي بالبينة، ولن يكون للثاني ما يرد به على الأول.

ب- أما إذا لم تتوفر البينة: ما الحل في مثل هذا؟ هل سيذهب ماله؟ لا! وإنما سيأتي باليمين (يحلف).

فمن محاسن الشريعة أنها جعلت مسألة الخصومات وفضّ النزاعات واضحة:

- فإنه لا يوجد قبول لدعوى من غير بينة، هذا أولًا.

-ثم إن المدعي إذا أتى بالبينة التي تقوّي حجته: ثبت له الحق.

-ومتى لم يأتِ إلا بمجرد الدعوى: فإن المدّعى عليه سيحلف بنفي هذا الأمر.

والناس يقولون في مثل هذا: أنه سيحلف، ويفوز. نقول: نعم، هذا شيء يلزمه. ثم أتظن وأنت تؤمن بالغيب أنه يحلف بالله في مجلس حُكم حلفًا باطلاً كاذبًا ويتركه الله؟! لن يتركه الله! وهذا الإيمان منك سيجعل هذا الحكم من محاسن الشريعة؛ لأنه لو أُعطي كل مُدعي بدعوته لافترى الناس على بعضهم.

وصاحب اليمين هذا إن كان يعظّم الله فإنه سيقسم بالصدق، وإن كان كاذبًا فليعلم ما سينزل عليه من العقوبة! ولذلك في مثل هذا المجلس قبل أن يُطلب من الشخص أن يحلف، يعظه القاضي: أنك لو أقسمت وأنت كاذب فإنه سيحلّ عليك من العقوبات كذا وكذا وكذا، بحيث أنه يرتدع عن القسم كاذبًا.

فهذا مدّعٍ وليس معه بينة، والآخر يُكذِّبه! هل سنبقى على هذا الحال دون الفصل بينهما؟! بالطبع لا! ولهذا لا يوجد حل يفصل بينهما إلا القَسَم، مع التحذير من الكذب في القسم.

وقوله: **"وجعَل الشَّارِعِ الْبَيِّنَات بِحِسْب مَراتبِ الأَشْياء"**.

هل البينة هي الكتابة أم العُرف؟ هل هناك أشياء عرفية تقوم مقام البينة؟ نعم، العُرف يدخل ضمن البينات.

فمسألة الصلح –مثلًا– لا يوجد إرغام فيها؛ لأن الشريعة لمّا شرعت الصلح لم تجعله سببًا لأن تترك أنت حقك مجاملةً، وإنما إذا اقتنعت بالصلح بطرق لا يوجد فيها ضغط عليك، صحَّ لك أن تدخل هذا الطريق.

فلو حدث مثلًا قتل خطأ، وأتوا أهل القاتل إلى أهل المقتول وأرادوا منهم أن يتنازلوا بدفع مبلغ معين من الديّة، لا يصح أن يأتي أحد ذو شرف ومنصب ويضغط عليهم مع عدم قبولهم! فنقول لصاحب الشرف والمنصب هذا: أن تنازلهم إذا لم يكن باختيارهم ورضاهم، بل كان بسبب ضغطك عليهم، فأنت في ذلك آثم. لا بد أن يكون التنازل برضاهم، وبإقناعهم، وبتطييب خواطرهم، أو بجبرهم بمال، أو بأي صورة، لكن ليس بالضغط عليهم فهذا حقّهم.

وهذا كأن يأتي شيخ قبيلة لأهل المقتول الذين يريدون القصاص لولدهم، فيقول لهم: عليكم أن تقبلوا! فلا يقبلوا، فيغضب عليهم هذا الشيخ، ويخرجهم من القبيلة! هذا لا يصح! كل حل لمشكلة لابد فيه من تراضي الأطراف، ولا يحق لك أن تستعمل جاهك في الضغط على الخلق.

أو يأتي أحد فيضغط على أصحاب الدية، ويقول لهم: هذا فقير، حرام أن تأخذوا منه دية. لا! غير صحيح! هذه الدية من الشرع، ولا يصح لأحد أن يُحرّم ما شرع الله، **حلول المشاكل يجب ألا تكون بمعصية**، فلا تراضٍ على معصية.

ذكر الشيخ مثالًا آخر تظهر فيه محاسن الشريعة، وهو: **"ما جاءت به الشريعة من الأمر بالشورى، والثناء على المؤمنين بأن جميع أمورهم الدينية والدنيوية الداخلية والخارجية شورى بينهم.**

وهذا الأصل الكبير قد أجمع العقلاء على استحسانه، وعلى أنه هو السبب الوحيد في سلوك أصلح الأحوال، وأحسن الوسائل لحصول المقاصد وإصابة الصواب، وسلوك طرق العدل.

وأنه أرقى للأمم العاملة عليه في تحصيل كل خير وصلاح، وكلما ازدادت معارف الناس، واتّسعت أفكارهم عرفوا شدة الحاجة لهذا ومقداره.

ولمّا كان المسلمون قد طبّقوا هذا الأصل في صدر الإسلام على أمورهم الدينية والدنيوية كانت الأمور مستقيمة، والأحوال في رقي وازدياد، فلما انحرفوا عن هذا الأصل ما زالوا في انحطاط في دينهم ودنياهم، حتى وصلت بهم الحال إلى ما ترى، فلو راجعوا دينهم في هذا الأصل وغيره لأفلحوا ونجحوا".

الأصل الشرعي الذي يدل على محاسن الشريعة هنا هو: الشورى.

ماذا تعني الشورى؟

الشورى نوع من أنواع العبادة التي يتقرّب بها إلى الله، فالقوم الذين يجتمعون للتشاور عبدوا الله بذلك.

ما هو الدليل على أن الشورى عبادة؟ أَمْرُه سبحانه وتعالى بها ، فالله يقول لنبيه -صلى[1] الله عليه وسلم: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [2]، فعُلم من ذلك أنها عبادة.

ومن الأخطاء التي تحصل في الشورى:

١- أن يستشير الإنسان غير مستحضر أنها عبادة.

[1] فمن طرق الاستدلال على أن هذا الفعل عبادة: أن يأتي في القرآن بصيغة الأمر، وفي هذا الحال: إما أن يُحمل هذا الأمر على الوجوب، أو على النَّدْب.

[2] / [آل عمرن:١٥٩]

مثلاً: دخلت في مشكلة اقتصادية، أو اجتماعية، مع الزوج ...إلخ، فأتصل على مَن له خبرة، وأكلمه وأحكي له القصة، وآخذ منه الكلام الذي أشعر أنه ينفعني، وأقوم بهذه العملية كلها على وجه العادة، مع أنها في الحقيقة عبادة وقربة إلى الله! نحن نخسر بهذا: نية القربة إلى الله بطلب الشورى.

-فأنت متى ما تقربت إلى الله بطلب الشورى جاءك التوفيق للرأي السديد.

-كونك تعبد الله بالشورى معناه أنك لن تنفرد برأيك.

-كونك تعبد الله بالشورى معناه أنك تعتقد أن عقلك ناقص، وأن الله عز وجل كَمَّل غيرك من الخلق.

-بعبادة الشورى تكسر الكِبر الذي قد يكون موجودًا في القلب.

٢- أو يستشير مَن لا يصلُح للاستشارة، كأن يشاور سفيهًا، أو ذا هوى، أو قرناءه الذين هم ذوو هوى مثله، فيخرج بذلك من العبادة إلى المعصية.

٣- أو يستشير في وضع لا يصح أو لا ينفع معه الاستشارة.

مثلًا: يأتي أحدهم لشخص مستشار في هذه المسألة، له علم وخبرة، فيستشيره وهو خارج من مكان، أو وهو داخل إليه، أو وهو مستعجل لم يكن جامعًا لفكره، فمن ثَم تكون الإجابات مقتضبة (موجزة)، أو ناقصة. فنقول للمستشير في هذه الحالة: قد ارتكبت مخالفة؛ لأن المشاورة عبادة، يجب أن تتهيأ لها ظروفُها، فلو أشار عليك بما يُفسِد دينك نتيجة عجلتك وإلحاحك تكون بذلك قد أفسدت أنت دينك.

٤- عدم الإحسان في عرض ما يطلب له الاستشارة.

٥- عدم قبول الشورى بعد طلبها.

فتتعب نفسك، وتذهب، وتستشير، وتقف، وتنتظر، وتناقش الذي تستشيره، ثم بعد أن يشير عليك، تحاول أن تقنعه بما في رأسك، وهو يقنعك أن هذا غير صحيح، وفي آخر هذا كله: تخرج من عنده ولم تعجبك مشورته، فترميها وراءك وتمشي، وتفعل الذي في رأسك!! أنت بهذا ما عبدت الله بل خالفت أمره!

الاستشارة مسؤولية، لا تستهينوا بها! ليس كل من تجده في طريقك تستشيره على أن هذا شيء من العادات، ثم بعد أن يشيرك: ترمي استشارته إن لم توافق رأيك، وإن وافقت رأيك قبلتها! لماذا استشرت إذًا ما دام أنك لن تقبل إلا ما يدور في رأسك؟!

أما لو أراد باستشارته أن يوافقه من أمامه على رأيه فإن هذا لم يعد عبادة بل صار هوى، فالله عز وجل أمرنا أن نتخلى عن هوانا بالشورى، وأنت خرجت من عند المستشار بنفس هواك، إذًا: لم تستفِد من هذه العبادة.

وهناك مسألة أيضًا متعلقة بالشورى: وهي أن الصحيح في تقديم المشورة للغير أن يكون مجانًا؛ لأن ذلك قربة إلى الله.

مثلاً: أنت الآن ستقدم على شراء بيت في مكان معين، وتريد أن تعرف هل في هذه العملية ربح لك أم لا؟ فتذهب وتشاور أناسًا عندهم معلومات، وهم مقابل مشورتهم وبحثهم ودراستهم يأخذون مالًا على جهدهم الذي يقدمونه.

لكن الصحيح أن تكون الشورى مجانية؛ لأنها قربة إلى الله، فأنت تتقرّب بطلب المشورة وهم أيضًا يتقرّبون بتقديمها.

لكن إذا حصل وأخذوا على هذا أموالًا، فإنهم يأخذونها مقابل ما يقدمونه من خدمات، فمكاتب الاستشارات التعليمية، ومكاتب الاستشارات الاقتصادية، ومكاتب الاستشارات الهندسية، ومكاتب الاستشارات التربوية، كل هؤلاء لا يقدّمون لك المشورة إلا بعد شيء من الدراسة، ولهذا هم يأخذون أجرًا مقابل هذه الدراسة التي سيدرسونها.

ما هي الأمور التي يجب أن يتحلّى بها المستشار؟

الأمر الأول: التقرب إلى الله بالشورى، ومن ثَم سيتعبّد الله بعبادة الاستهداء {أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [1]، فيدعو: اللهم اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك . فيكون من عادة هذا المستشار أن يستهدي الله، فإذا استهدى الله سينتفي من قلبه أي شيء يدور حول الكِبر والثقة بالرأي.

الأمر الثاني: عدم مطاوعة الهوى والمؤثرات النفسية على الاستشارة.

---

[1] [الزمر:٤٦]

[2] روى مسلم في صحيحه/ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه/ (٧٧٠) بسنده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: سألت عائشة أم المؤمنين، بأي شيء كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

مثلًا: يكون لدى المستشار خلفية عن هؤلاء الناس، فيحترمهم أويحتقرهم.

أو تكون المستشارة قد مرَّت بحالات ومواقف سيئة مع زوجها، فتأتي أنتِ وتستشيرينها في مسألة الطلاق، ماذا ستقول لك؟ ستقول: اطلبي الطلاق! بدون تفكير! لأنها تأثرت بحالتها النفسية، وهذه الاستشارة بالطبع تابعة للهوى فتأثم عليها؛ لأن **المستشار مؤتمن**. وأنت عليك ألّا تستشيري شخصية معقدة نفسيًّا!

أو أحيانًا يكون لدى المستشار هدف بعيد المدى، كمن يريد أن تنتشر في المجتمع بعض الأفكار الفاسدة، فيشير على هذا بكذا، ويشير على هذا بكذا، بحيث تنتظم منظومة من الفساد بسبب مشورته للخلق.

الأمر الثالث: أن يسأل المستشار أسئلة لا علاقة لها بموضوع الاستشارة.

هذا الأمر طبعًا لا يحكمه إلا المستشار، فأنتِ أحيانًا من بعيد قد تشعرين أن هذه الأسئلة ليس لها علاقة بالقضية، مع أنها في الحقيقة متعلقة بها.

نضرب مثالًا على ذلك: هذه امرأة أتت تستشير في قضية تعليمية، فتسألها المستشارة: كم عمرك؟ هل أنت متزوجة أم لا؟ كم طفل عندك؟ ما علاقة هذه الأسئلة بموضوع الاستشارة؟!

لكن أنت تريدين أن تأخذي قرارًا: هل تتركين وظيفتك أو لا؟ فأسألك: كم لديك من أطفال؟ هل أطفالك صغار؟ فربما بسبب ضغط الأطفال لن تقدري على النجاح في عملك، إذًا الأفضل أن تقدّمي إجازة أمومة.

فالأسئلة قد يكون بعضها متعلقًا بموضوع الاستشارة، وبعضها يكون مجرد تدخل وتطفُّل، فتستغلّ المستشارة الموقف، وتأخذ معلومات بعيدة.

ضربت لكم أمثلة بسيطة لكن الحقيقة أن الموضوع أبعد من هذا، **لقد وجدنا في الاستشارات الزوجية دخولًا في مسائل لا يحق للمستشار أن يسأل عنها في الحياة الخاصة بين الرجل والمرأة**. فالمرأة تأتي تستشير في مسألة تخص الزواج، لكن هذا المستشار –رجل كان أو امرأة– يسأل أسئلة فيها تطفُّل، والمرأة بسبب عدم وعيها تجيبه، وفي هذا دخول في الحرج، وفي الكلام الذي ليس له علاقة بأصل الموضوع. أو يكون نفس هذا المستشار مريضًا نفسيًّا، فيستمتع بمثل هذه الأسئلة، وبمثل هذه الإجابات.

ولهذا لابد أن يكون الإنسان حذرًا، فإن كنت تشير الناس: لا تسأل إلا فيما يخص الأمر أو حوله، فالأمر أمانة، وحتى أسئلتك أنت مؤتمَن عليها.

الأمر الرابع: على المستشار أن يحذر من أن يُخرِج سر من استشاره.

من القيم العُليا الإسلامية: كتمان السر، وقد ورد في الحديث: "إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ"[1] ، بمعنى لو كنت جالسة مع شخص، ثم التفت ليتأكد من عدم وجود أحد، ثم كلمك، فإن هذا مباشرة يعتبر سرًّا، وكما يقال: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال. ومن ترك كتمان السر فقد ترك قيمة من أعظم القيم الإسلامية.

هناك نقطة مهمة جدًا: قد يكون الشخص أحيانًا تائهًا في الطريق، ضائعًا، تحت ضغوط، وقد يوصله هذا إلى قتل نفسه مثلًا –والعياذ بالله–؛ بسبب أنه ارتكب خطأً ما، وهذا يحدث غالبًا مع الشابات، فتقع خطأً في جريمة الزنا، وبعد ذلك تخرج منها دون أن يعلم أحد عنها، ثم تتطور المسألة وتكبر، ويحصل في نفسها شيء من الانفعالات، وهي لا تفهم ما بها، ولا تعرف كيف الخروج من هذا، ثم يأتي "عريس" وراء "عريس"، وهي لا تعلم ماذا تفعل! بعد ذلك تتمنى أن تموت، فتحاول أن تفعل في نفسها كذا وكذا.

نقول لهذه الآن: اخرجي استشيري شخصًا بعيدًا، واستشارتك لا تعني بحال أن الله ستر عليك وأنت فضحتِ نفسك، فكثير من الناس يتركون الاستشارة بسبب عدم فهمهم لمعنى "فضح النفس"، **فضح النفس هو: أن يتكلم الإنسان عن أخطائه لغير فائدة، مع مَن لا يستفيد من الكلام معه**، والفضح أيضًا فيه نوع تفاخر، **أما أن تذهب عند أحد فتستشيره لكي تخرج من أزمة، فهذا أمر شرعي مندوب تتعبّد الله به.**

وهذه الثقافة يجب أن تنتشر، حتى لا نجد أناسًا يموتون تحت ضغط أمور كهذه. هم اتجهوا إلى الخطأ بسبب عدم وجود مَن يرشدهم إلى الصواب، وقد لا يجِدون حلًّا إلا قتل أنفسهم، فيهلكوا بدون مشورة!

كل هذه الأمور تُبيّن لك ما في الشريعة من محاسن. فإن **الشورى معناها: أن تجمع إلى عقلك عقولًا أخرى، وأن تزيد من قدرتك على فهم الأمور من خلال عقول الخلق، وهذا ما يسمونه اليوم بجلسات العصف الذهني، والانتفاع المركب من الزملاء**، كل هذا بالضبط هو عبادة الشورى، بشرط أن تدخل فيها على أنها عبادة، وتخرج منها وأنت سليم أمين.

[1] رواه أبو داود في سننه/ كتاب الأدب/ باب في نقل الحديث/ (٤٨٦٨) حكم الألباني: حسن.

ثم ذكر الشيخ مثالًا آخر، وهو: "أن هذه الشريعة جاءت بإصلاح الدين، وإصلاح الدنيا، والجمع بين مصلحة الروح والجسد.

وهذا الأصل في الكتاب والسنة منه شيء كثير، يحثّ الله ورسوله على القيام بالأمرين، وأن كل واحد منهما مُمِدٌّ للآخر، ومعين عليه.

والله تعالى خلق الخلق لعبادته، والقيام بحقوقه، وأَدَرّ عليهم الأرزاق، ونَوَّع لهم أسباب الرزق، وطرق المعيشة؛ ليستعينوا بذلك على عبادته، وليكون ذلك قيامًا لداخليّتهم وخارجيّتهم.

ولم يأمر بتغذية الروح وحدها وإهمال الجسد.

كما أنه نهى عن الاشتغال باللذات والشهوات، و(أمر) بتقوية مصالح القلب والروح. ويتضح هذا في أصل آخر. وهو هذا:

أن الشرع جعل العلم، والدين، والولاية، والحكم متآزرات متعاضدات.

فالعلم والدين يقوّم الولايات، وتنبني عليه السلطة والأحكام.

والولايات كلها مقيدة بالعلم والدين الذي هو الحكمة، وهو الصراط المستقيم، وهو الصلاح والفلاح والنجاح.

فحيث كان الدين والسلطة مقترنين متساعدين فإن الأمور تصلح، كما أن الأحوال تستقيم.

وحيث فصل أحدهما عن الآخر اختلّ النظام، وفقد الصلاح والإصلاح، ووقعت الفرقة، وتباعدت القلوب، وأخذ أمر الناس في الانحطاط.

يؤيد هذا: أن العلوم مهما اتّسعت، والمعارف مهما تنوّعت، والاختراعات مهما عظمت وكثرت، فإنه لم يرد منها شيء ينافي ما دل عليه القرآن، ولا يناقض ما جاءت به الشريعة.

فالشرع لا يأتي بما تحيله العقول، وإنما يأتي بما تشهد العقول الصحيحة بحُسنه، أو بما لا يهتدي العقل إلى معرفته جملة أو تفصيلًا. وهذا ينبغي أن يكون مثالًا آخر. وهو:

أن الشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولا بما ينقضه العلم الصحيح.

وهذا من أكبر الأدلة على أن ما عند الله محكم ثابت، صالح لكل زمان ومكان.

وهذه الجمل المختصرة تُعرف على وجه التفصيل بالتتبّع والاستقراء لجميع الحوادث الكونية، وحوادث علوم الاجتماع، وتطبيق ذلك إذا كان من الحقائق الصحيحة على ما جاء به الشرع، فبذلك يُعرف أنه تبيان لكل شيء، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها".

هذا الأصل له درجات، لكن المهم أن تفهمه على وجه العموم: فمن محاسن هذا الدين أنه لا يفصل بين الدين والدنيا، بمعنى: أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته والقيام بحقوقه، وفي نفس الوقت أدرَّ عليهم الأرزاق، وسبَّب لهم أسباب الرزق؛ لتأتي العبادات من وراء هذه الأسباب.

سأضرب لكم مثالاً: الله عز وجل جعل للخلق طُرقًا ينتقلون بها من مكان إلى مكان، من أول الخليقة والخلق ينتقلون، ثم أتى التطور، فأصبحوا ينتقلون بالطائرات والسفن ...وإلخ. هل الدين يمنعك من ركوب طائرة؟ لا، لماذا؟ لأن الدين أتى مُصلِحًا لدينك ودنياك، **فكل ما ينفع في الدنيا ولا يخدِش الدين فإن الشرع لا يمنعه**، بل يأمرك أن تجعل هذا سببًا لطاعته.

عندما يركب طيار مسلم الطائرة، يقول وهو يستعملها: "بسم الله، توكلنا على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"، وأنت تركبينها فتقولين: "سبحان الذي سخّر لنا هذا" وغيرها من الأذكار، أصبحت بذلك الدنيا سببًا للطاعة وليس العكس، فهذا من محاسن الشريعة: أن الدنيا في ديننا سبب لطاعة الله، وليست سببًا لترك الطاعة عند مَن استقام.

مثال آخر: أنت عندك وسائل اتصال كثيرة، ماذا تفعل بها؟ قد تكون وسائل الاتصال هذه سببًا لطاعة الله، وقد تكون سببًا لمعصيته، فالشريعة لا تُحرّم عليك استخدام أي أداة حديثة ما دام أنها لا تناقض الدين، لكن استعمِلها في طاعة الله. وهذا **من محاسن الدين: أن الله عز وجل جعل الدنيا بين يدي أهل الدين ينتفعون بها في طاعته، فأصبحت الدنيا سببًا للوصول إلى الدين، وكلما تطورت الدنيا كلما قيل لك: زِد انتفاعًا بها لدينك.**

الناس في كل مكان في العالم يحفظون القرآن مع الهيئة العالمية لحفظ القرآن في المملكة، عن طريق برنامج (Skype) الذي اخترعه أهل الكفر، فأنت لا تُمنع من استعمال الدنيا، بل اجعلها سببًا في زيادة طاعة الله، وهذا من محاسن الدين.

تتطور الدنيا أيّما تطور، ويقال لك: تَسلَّم هذا التطور، وانتفع به، فهو يزيدك طاعة لله. ولا يقال لك أبدًا: الدنيا ممنوعة، محرمة عليك، كما يفعل "السيخ"، فمن دينهم أن يحرموا أنفسهم من الدنيا. أما ديننا فيقول: خُذ من الدنيا، وزِد طاعة لله، وكل زيادة في الدنيا تجعلك مطيعًا الله أكثر: أنت ممدوح عليها.

على كل حال، بهذا يكون قد انتهى كلامنا عن محاسن الدين.

اللقاء القادم إن شاء الله سنتكلم عن حكمة الله عز وجل في أمره.

جزاكم الله خيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اللقاء الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا بفضل الله ومنّته نناقش هذا الاسم العظيم من أسماء الله، وهو اسم: (الحكيم).

وإيماننا بهذا الاسم مما يطيّب لنا الحياة؛ فإن الإنسان إذا آمن أن ربه حكيم رُزِق عبادة من أعظم العبادات، وهي عبادة: حسن الظن، التي إذا عبد الإنسان ربه بها كان أهلًا لأن يكون من أهل الجنة؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أوصانا جميعًا: ألّا نموت إلا ونحن نحسن الظن بالله، فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل موته بثلاثة أيام يقول: "لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ"(١).

من أين سيأتي إحسان الظن؟ وما علاقته باسم الله الحكيم؟

مرَّ معنا أن اسم الله (الحكيم) معناه: أن الله يضع الأمور في موضعها، في خلقه وشرعه وأمره. وسنبدأ اليوم نقاشنا في حكمته -سبحانه وتعالى- في أمره، والمقصود بـ"أمره": أي قضائه وقدره.

فإن مَن آمن بحكمة الله في القضاء والقدر، لابد أن يصل إلى عبادة حسن الظن.

ولحسن الظن مكانة عظيمة في الشريعة، بل أن أهل النار ما أدخلهم النار إلا سوء ظنهم بالله، كما قال تعالى: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ}(٢)، فسوء الظن يُردي صاحبه.

كيف أؤمن باسم (الحكيم) إيمانًا يورثني حسن ظنٍ بالله؟

نقول وبالله التوفيق: بأن تعلم أن ربك عليمٌ وخبير، وأنه على كل شيء قدير، وأنه يحب عباده، وما يريد بهم إلا يسرًا، وأنه يعاملهم ببرِّه، فهو البرّ، وأنه يعاملهم بكرمه، فهو الكريم، وأنه يعاملهم بجوده، فهو الجواد سبحانه وتعالى، وتعلم أن ربك عزيزٌ إذا قضى أمرًا فلا رادّ لأمره، ولا غالب له.

ثلاثة فروض تجتمع مع بعضها، فترى بعد ذلك معنى (الحكيم) فيها:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت/ (٢٨٧٧).

(٢) (فصلت:٢٣)

- الإيمان بعلمه: تؤمن بأنه عليم، خبير، لطيفٌ في علمه، يعلم دقائق الأمور، ودقائق المصالح.
- الإيمان برحمته وحبه لخلقه، وإرادته لهم اليسر، وعدم حب العسر لهم، وتعلم عن برِّه، فهو البَرّ الكريم، وتعلم عن جوده وإحسانه وودّه، وكل ما يتصل بهذه الصفات العظيمة.
- الإيمان بأن الله على كل شيء قدير: وأنه عزيزٌ، وأنه لا غالب له، وإذا أراد أمرًا قضاه، لا يستطيع أحد أن يردّ أمره.

إذا فهمت هذا عن ربك، ماذا ستقول عن الأقدار التي قدّرَها عليك؟ **ماذا تنتظر ممن وصفه أنه بكل شيء عليم؟ ماذا تنتظر ممن وصفه أن رحمته وسعت كل شيء؟ ماذا تنتظر ممن وصفه أنه على كل شيء قدير؟**

عليم خبير بمصالحك، يعلم كل شيء، بل هو في علمه لطيف، يعلم لطائف الأمور ودقائق العلوم، ويرحمك، ويحبك، ويودّك، ويحب لك الخير، ولا يريد بك العسر، بل يريد بك اليسير، وهو على كل شيء قدير، فلا يأتي مَن يغالب إرادة الله؛ بل إذا أراد شيء نفذ {وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[1]، فإذا كانت هذه صفات من قدَّر لك الأقدار، ومن جعلها عليك مكتوبة، ماذا تنتظر منه؟

ما يُنتظر منه إلا كل خير، ما يُنتظر منه إلا أن تكون الأقدار في أماكنها، كلها تجري على الحكمة، بحيث تصِل في نهاية الأمر إلى المقصود من حياتك، **لكن الإنسان يغفل عن طرفيّ المسألة.**

ما هما هذان الطرفان؟

- **أولاً: يغفل أنه في اختبار.**
- **ثانيًا: يغفل أن المطلوب منه هو أن ينجح من أجل أن يُجازى على ذلك بالجنة.**

يغفل عن اختباره، وعن جزاء الاختبار! ولذا يقال لهذا الغافل: **اعلم أن الذي اختبرك وابتلاك بالدنيا: (حكيم) في اختياره نوع اختبارك، ونوع الأسئلة التي تُعرض عليك، وحكيمٌ في تدبير الحال التي تدور حولك، بحيث أنه –سبحانه وتعالى– قدّر لك الأقدار، وهيّأ لك من الأمور ما يجعل النجاح في الاختبار أقرب ما يكون إليك، لكن أهم شيء هو ألا تُعوِّق نفسك، ولا تغفل عن طرفي المسألة.**

أنت موجود في الدنيا لتُختبر، ومادة الاختبار هي: ما كُتب عليك من الأقدار.

كيف يُقدِّر عليك الحكيم –سبحانه وتعالى– الأقدار؟

---

[1] () (يوسف:٢١)

أنت خُلقت في طبيعةٍ معيَّنة، في وسط معيَّن، وفي وضعٍ معَّين، كل هذه الملابسات التي تُحيط بك، تناسب أن يأتيك هذا الاختبار، فتنجح، وتكون الجائزة: الجنة.

اختبارك الذي أتاك يناسبٌ كل أوضاعك، ويجعلك أقرب ما تكون إلى النجاح، فالذي بينك وبين النجاح هو الستار فقط، الستار بين الشهادة والغيب، وكلَّما آمنت بالغيب، كلَّما تكشَّف لك الأمر، فتقول: هنا أنا أُختَبر، ولو صبرت سيكون خيرًا لي.

مثلًا: تستشيرين أحدًا ليس من أهل العلم، فتقولين له: زوجي أخذ مالي. فيعطيك –هذا المستشار– محاضرة! ويخبرك بأن هذا ليس من حقِّه، وأن من حقِّك أن تفعلي كذا وكذا...، وهو لا يفهم أن الله عز وجل جعل اختبارك كله دائرًا حول مالك أصلًا، وليس حول أي شيء آخر، وأن بينك وبين النجاح هذه الخطوة: أن تؤمني بأن الله هو الرزاق، وأنه هو مَن سيعوِّضك، وأنك إذا أنفقت بيمينك سيعطيك – سبحانه وتعالى –، أليست يده سحَّاء الليل والنهار، وخزائنه ملأى؟ أتدري ماذا أنفق منذ أن خلق الأرض حتى تقوم الساعة؟ مثل ما يدخل أحدكم الإبرة في البحر، ماذا تأخذ من البحر؟ لا شيء!

أتدري من هو الله الذي يختبرك في هذه الحياة؟

إذا علمت من هو: ستكون متنبِّهًا لأنه حكيم، أدخلك الاختبارات التي تناسبك، ولا يوجد بينك وبين النجاح إلا هذا السِّتار الذي هو: الإيمان بالغيب، وإذا آمنت بالغيب ستنجح، وتقول: أنا دونًا عن الخليقة سأدخل هذا الاختبار، أنا بالذات يأتيني هذا الشخص ويفعل بي كذا؛ لأن بي من الطباع النفسية، والأوضاع الاجتماعية، والخبرات، والتَّجارب ما يجعلني أنجح. فإما أن يدفعك إيمانك بالغيب فتنجح، أو تعيقك نفسُك والأرضُ وحبُّها فتبقى وترسب!

ومع ذلك فإن اللطيف الخبير لا يختبرك مرةً واحدة، ويتركك إن رسبت، وإنما يعيد عليك الاختبار، تعاد عليك المسألة نفسها من أجل أن ترقى وتُختبر فتنجح.

لن تظهر حكمة الله –سبحانه وتعالى– في أقداره وشرعه لمن ينظر إلى أمره القدري نظرةً منفصلة، فيقول مثلًا: لماذا يموت هذا بهذه الصورة؟ لماذا لا تلد هذه أولادًا إلا ويموتون؟ لماذا هؤلاء عندهم ولد معاق؟

لا يتكلم الإنسان مع ربه بهذه الصورة!! فهذا الذي تتكلَّم عنه هو اللطيف الخبير، العليم الحكيم، العزيز الحكيم، وأنت لو فهمت الحياة ستفهم أن هذه الأقدار مناسبة للاختبار.

أنت الآن في قاعة اختبار كبيرة، هل ستجد في قاعة الاختبار ما يطيب للنفوس، وتنشرح له الصدور؟ هل ستجلس في هذه القاعة على أفضل حال؟! أم أن الناس كلهم مشدودون فيها، وكل شيء على الحد؟

الناس يعرفون ماذا تعني قاعة الاختبار. يعرفون معنى أن يكون الإنسان مختَبَرًا، وكيف هو حاله أثناء الاختبار: يكون مشدودًا حامًلا للهمّ، لا يريد أن يتمتَّع، تجده يشرب كأس ماء فقط من أجل أن يعيش، لا أن يقضي الساعات في قضاء بعض الحاجات البسيطة! بل هو يشعر أن ليس لديه وقت.

فالذي نظر إلى حياته بهذه النظرة، ستكون هذه أول ورقة تنكشف له، يفهم منها حكمة الله، قال تعالى: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[1] هذا مستحيل!

واعلم أنك لست الوحيد الذي قال: آمنت، ففُتِن، بل العالم كله يجب أن يعرف أن الأرض خُلقت للبلاء؛ كما قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[2]، فلو فهمت حقيقة الحياة ستفهم ما هي الحكمة، لكن لو كنت تظن أن الحياة طِيب وسعادة وهناء ولا يوجد فيها منغِّصات، ستكون غير راضٍ بأقدار الله، وتتساءل: أين الحكمة في أن يكون هذا ناقصًا؟ أين الحكمة بأن لا يطيب لي نوم؟ أين الحكمة في أن أكون مستمتعًا بنومي ثم أفزع من لا شيء؟ أين الحكمة في أن الأبناء ما يأتون إلا بالمشاقّ؟ لا يخرجون إلا بمشقةٍ من أمهاتهم، ثم يُعيّشون آباءهم وأمهاتهم في مشقة تربيتهم وإطعامهم، ثم تجد أن هذه المشقة محبوبة، فأنت تحب أبناءك، وتتلذَّذ بوجودهم، مع كونهم مشقة عليك، فكيف يجتمع في الدنيا كل هذا؟

يجتمع كل هذا في الدنيا لأنها دار اختبار، لن تطيب هنا، هنا ليس مكان لاستيفاء الحقوق. فلو أن شخصًا اعتدى عليك، ثم رُدَّ إليك حقك، لبقي نفس الاعتداء يؤلمك في نفسك!

لابد أن تفهم هذه القاعدة: أنت ما أتيت للدنيا لتطِيب أو لتستمتع، بل أنت هنا في رحلةٍ سريعة.

إذًا: تقرّر أنك ستدخل اختبارًا، لكن لا بد أن نسأل: ما عوامل هذا الاختبار؟

عوامله: ما خلقك الله عليه من طباع، فهو حكيمٌ سبحانه وتعالى في خلق طباع الخلق بالتفاوت، فجعل بعضهم لبعض فتنة.

---

[1] () (العنكبوت: ١-٢)

[2] (الملك: ١-٢)

ولذلك لا تجد أبدًا بيتًا يكون الرجل والمرأة فيه متطابقَين، بل لابد أن يكونا كأسنان المِشط، يتداخل بعضها في بعض. ومَن تصوّر المسألة دخل هذا الاختبار بهدوء، ومن لم يتصورها خرج منها بدون توازن.

والمقصود: أن الله –سبحانه وتعالى– حكيمٌ في خلقك بهذه الطباع، ثم أنه حكيمٌ في تقديره عليك هذه الأقدار. وكأنه يقال لك: انظر إلى هذه الأقدار بما معك من إيمان ويقين بالله، وأخبارٍ عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

لو كنت جالسًا في مكانك تقرأ القرآن، ثم مررت بقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [1]، وبغيرها من آيات الإنفاق، فاعلم أن الاختبار سيأتيك، فتذهب لعملك –مثلًا–، ثم يأتيك من يمدُّ يده. (وقت قراءة القرآن كان هو وقت الدرس، والآن أتى الاختبار)

ولهذا يخبر –سبحانه وتعالى– في قصة آدم عليه السلام في سورة طه: بأنه عندما أنزل آدم إلى الأرض قال: {اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [2]. **فأنت الآن في الأرض في اختبار، والمادة التي ستختبر فيها: هو ما ينزل عليك من السماء، ولحظة الاختبار هي: الأقدار التي تجري عليك.**

أين الحكمة في هذه الأقدار؟

هناك حكمة عظيمة؛ فأنت لا تُبتلى بشخص، ولا بوضع، ولا بأي نوع بَلِيَّة، إلا وفي طباعك وأوضاعك وفي ما علمته ما يعينك على النجاح، وما بينك وبين النجاح إلا الستار بين الدنيا والغيب، أي: بينك وبين الإيمان باليوم الآخر.

ولهذا تسمع الناس يشتكون من بعض شؤونهم:

- فامرأة تقول: مللت من زوجي، جالس في البيت طوال الوقت.
- والثانية تقول: مللت منه، خارج البيت طوال الوقت.

ولو سمعت الأولى شكوى الثانية لقالت لها: بالعكس! الأفضل لك أن يجلس خارج المنزل.

والثانية ستقول للأولى: بالعكس! الأفضل لك أن يجلس في البيت.

---

[1] () (الطَّلاق: ٢-٣)

[2] (طه:١٢٣)

وأنت تقولين: سبحان الله! لماذا لم يكن هذا زوج الثانية، والأخرى زوجها ذاك؟ لماذا لا يكون هذا بالتبادل؟

سنقول: كيف ذلك؟! القصة أصلًا مبنيَّة على الابتلاء والاختبار، فهذه حاجتها النفسية: أن لا يكون باقيًا، فيختبرها الله – عزَّ وجلَّ – ببقائه، وإن نجحت خفَّف عنها الاختبار، وتَكَوَّن لها في طبيعتها ما يعينها على تحمّله، والأخرى بالعكس، لو نجحت في الصبر: سيرد الله –عزَّ وجلَّ– عليها زوجها، ويبقى عندها، وهكذا.

والمقصود: أن هذه **كلها اختبارات مبنيّة على قاعدة الصبر والحَبْس، وعدم الانفعال السريع والردود التي لا تكون لائقةً بأقدار الله**.

هل تعرف من معك وأنت حابس نفسك في فترة الاختبار وإلى أن تنجح؟ هل تعرف من معك يؤيِّدك وينصرك، وبه تُبصِر، وبه تَسمع، وبه تَبطِش، وبه تمشي؟ أتدري من؟ {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [1] ، هذه هي الولاية.

عندما تدخل اختبارًا وأنت صادق لا تظن أنك لوحدك، بل الله –عزَّ وجلَّ –يؤيدك وينصرك ويوفقك للخروج من كل اختبار.

فانظر إلى الحكمة العظيمة: كيف يُبتلى الناس ببلاءات، وتكون هذه الأقدار عليهم بمثابة الاختبارات، فيمرّون بذلك كله من أجل أن يفوزوا وينجحوا، وليس من أجل أن يَبلوا أبدًا، بل {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [2] .

فمن برّه على خلقه، وإحسانه إليهم، وتودّده إليهم: مناداتهم كل ليلة: "هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟" [3] . كل هذا يدلُّك على أن الله –عزَّ وجلَّ – يريدك أن تنجح، فقدّر عليك هذه الأقدار التي هي بمثابة الاختبار، وهيّأ لك الظروف التي بها تنجح، وأعطاك منهجًا تدرسه، وقال لك: {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [4] ، فربما لا تستطيع أن تنجح وحدك، فابحث لك عن صحبةٍ صالحة، ولو كنت صادقًا سيهيِّء الله لك صحبةً صالحة، تسمع منهم الخير، فتنتفع بهم، ويرشدك الله –عزَّ وجلَّ– بهم.

إذًا: هيّأ الله –عزَّ وجلَّ– للإنسان كل الظروف التي بها ينجح في الاختبار، وبها ينجح في الاستعانة به، واللجوء إليه.

---

[1] (البقرة:١٥٣)

[2] (البقرة:١٨٥)

[3] روى مسلم في صحيحه/ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه/ ١٧٢ – (٧٥٨) عن أبي سعيد، وأبي هريرة، قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ".

[4] () (التوبة:١١٩)

سأحكي هذه القصة الحقيقية؛ لأبيّن كيف أن الله -عزَّ وجلَّ يهيّء الإنسان لأن ينجح، ويلجأ إليه في وقت الشدة، ولا يجزع:

هذه امرأة تقول —في أيام الدوام في رمضان من عام ١٤٢١هـ تقريبًا-: خرجت من عملي، فأصرَّت زميلة لي أن تركب معي من أجل أن أوصلها، وقد كان في نفسي من الضيق؛ لأننا كنا في نهار رمضان والشوارع مزدحمة، فلم أكن أرغب في إيصالها، فقلت لها: سأوصلك أولًا ثم أذهب، فشعرت هي أني وجدت في نفسي من التثاقل بوجودها معي، فبقيت تُسلّيني في الطريق، وتكلمني حول الحروق والعسل وأثره في علاجها، وكيف أن العسل بمجرد أن تضعيه على الحرق يذهب أثره ...وإلخ.

ثم ذهبت إلى بيتي، وأتى وقت الإفطار، وعندي طفلة عمرها سنة وشهرين. وضعتُ جلسة القهوة، وبادرت في الإفطار، وذهب والدها في دربه يصلي، فأتت طفلتي وفتحت "ترمس القهوة"، وسكبته على نفسها، ودخلت الطفلة مباشرةً في إغماء، صرخَت صرخة واحدة فقط، وغابت عن الوعي!

لم يكن أمام الأم الآن إلا الكلام الذي سمعته في النهار، الكلام الذي كانت تقوله لها زميلتها بالتفصيل: عندما نضع العسل نقول: بسم الله، ونستعين بالله، ونؤمن أنه أمر الله...

تقول الأم: أصبحت مثل الذي يمشي على خط واحد، أخذت العسل ووضعته وسمَّيت واستعنت، وجمعت قلبي ألّا أجزع من أمر الله عزَّ وجلَّ -فهي قد شعرت أن طفلتها ماتت-. تقول: والله، والله يشهد في السماء أن أباها ما أتى من الصلاة إلا والبنت يقظة، ولا أثر لشيء.

الشاهد من القصة: **أن الله عز وجل لا يختبرك إلا بعدما يهيّئك للاختبار، ويُسمعك كيف تجيب**، لا يختبرك إلا بعدما يقول لك: هذا طريق الصواب، لكن كن ذا سمعٍ، وذا بصرٍ، وانتفِع من الخلق.

كم من امرأة خرجت من بيتها للعمل وهي تقول: أنا لن أرجع بيتي، سأتطلَّق من زوجي! ثم تذهب إلى الدوام فتجد صديقتها تشتكي من مصائب زوجها، فيقع في قلبها أن زوجها أفضل، وأهون. كم يمرّ عليك مثل هذه المواقف التي تقول لك: انجح، لا ترسُب، لا تتعجَّل؟! الكثير!

فتلك الأم تركب معها زميلتها، وتحكي لها هذا الكلام بالتفصيل، وهي تسمع بأذنيها، وتجمع قلبها، كيف يأتي مثل هذا التوفيق؟! هذا لا يأتي إلا من الحكيم سبحانه. صحيح أن هذا الموقف يعتبر بمثابة الكرامة، لكن يمرّ عليك أمثاله كثيرًا، وتسمع مثل هذا، لكنك لا تفتح أذنيك وعينيك لترى كيف أن الله -عزَّ وجلَّ- يُشهدك على نعمه.

كم من المرات تلوم شخصًا على تصرّفه معك، ثم لا يمرّ يوم أو يومان إلا وتجد نفسك تفعل هذا الموقف في أحد! وهذا يحصل معك من أجل أن يقال لك: أنه قد يحصل منك هذا الموقف، فهو خارج عن إرادتك. ويظهر لك أنك أسأت الظن في الشخص الذي لُمتَه.

كم مرة أسأنا الظن في الناس، ثم مرّت علينا مواقف جعلتنا نقول: والله مسكين! فتعود أنت وتتوب عن سوء الظن الذي مررت به؟ أليس هذا كله فعل الحكيم؟! هل تتصوَّر أن هذا يأتي بمثابة الصدفة؟ لا! بل يقدّر الله لك هذه الأقدار ليدفعك إلى بابه فتنجح.

أنت لو فهمت: لماذا وُجِد الخلق؟ وإلى ماذا يدفعهم ربهم؟ لَمَا شككت في الحكمة من أي موقف، لكننا غيَّبنا هاتين الحقيقتين، وأصبحنا نقول: ما الحكمة أن يكون لهذه معاق؟ ما الحكمة أن زوج هذه يفعل بها كذا؟ هذه امرأة لا يوجد فيها أي شيء ناقص، وهي شديدة التعلق بزوجها، لكن قلبه ملتفتٌ عنها، لماذا يحصل مثل هذا؟ ونجد أن الناس يتناقلون قاعدة أن "الرجال لا خير فيهم"، ويقولون عن هذا الزوج: من المؤكد أنه مرتبط بأخرى، أو من المؤكد أنه مسحور، ...وإلخ.

ولا نجد مَن يقول: أن الله -عزَّ وجلَّ -حكيم، قدَّر هذا الالتفات القلبي لئلا يحصل في قلب الزوجة تعلُّق بغير الله، وأن هذا سيدفعها للُّجوء إلى الله.

كيف سترحل للآخرة لو طابت لك الدنيا كلها؟! متى سترحل للآخرة لو أن كل ما أردته كان عندك؟! متى ستقول: يا رب؟! متى ستضطر إليه؟!

كل الأقدار موجودة لهذين العاملين:

العامل الأول: أن الحياة إنما هي اختبار.

العامل الثاني: أنك لا تُدفع لترسُب أبدًا، وإنما تُدفع لتنجح.

فكم حفظك من الذنب؟ وكم جعلك عاجزًا عنه؟ وكم أغمض عينيك عنه؟

أليس هذا كله من حفظه؟! بلى! هذا كله من أجل أن تنجح.

أنت تقول: يا رب احفظني فليس لدي قدرة على منع نفسي! فيقدّر لك أقدارًا تصرف أهل الشر عنك، أليس هذا كله تشهدون عليه؟! بلى، والله نشهد! وكلما طالت بك الحياة ستشهد على ذلك أكثر، **كلما طالت الحياة كلما وجدت مواقف تشهد على أن الله عزَّ وجلَّ يدبِّر لك أمورًا تدفعك إلى الاستقامة على دينه، إلا أن هناك من يسمع ويرى، وهناك من عطَّل سمعه وبصره.**

والمقصود: أنه –سبحانه وتعالى– حكيمٌ في كل أمره، حكيمٌ في كل أقداره، لكن هذه الحكمة لا يفهمها مَن تعنَّت في النظر إلى أقدار الله .[1]

التعنُّت لا يصلح، وإنما علي أن أفهم: لماذا وُجد الخلق؟ إلى ماذا يدفعهم ربهم بهذه الأقدار؟ علي أن أفهم أن كل الذي قُدِّر علي هو بمثابة اختبارات إن نجحتُ فيها ترقَّيت، وكان الجزاء هنا: ذَوقًا فقط، وهناك تطعمه طعامًا.

وعلى هذا سيترتب أمر جديد، وهو:

أن **المطلوب منك** لو تيقَّنت أن الله –عزَّ وجلَّ– قدّر هذه الأقدار بما يلائمك من طباع، وبما يلائمك من حال، وأن كل هذه الأقدار قُدِّرت لك لتدفعك للنجاح في الاختبار: هو **أن تتعبَّد الرب بعبادة حسن الظن؛ فإن قاعدة المعرفة –التي مرَّت معنا في النقاش– تُلزِمنا ألّا ننظر لشيء من أقدار الله إلا ونحن نعتقد أن فيه الحكمة، فإذا طابت نفسك لهذا الأمر، رُزقت أن ينكشف لك في كل موطن ما يزيدك يقينًا وثباتًا.**

سنقول مرة أخرى: أن في هذه المسألة ثلاثة أمور:

١. أنك لا تستطيع أن تفهم حكمة الله في أقداره إلا إذا فهمت سبب وجودك في الدنيا.

٢. أن معنى الحكمة هو: وضع الشيء في موضعه.

[1] "تعنَّت" بمعنى أن يقول: أريد سببًا لهذا، وسببًا لهذا!

٣. أن تعلم أن الله -عزَّ وجلَّ- عندما ابتلاك واختبرك إنما يريد بك اليسر، ويريد أن ينجِّيك، ويريد أن يرشدك إلى طريق الهداية، فأقداره كلها تدفعك إلى جنَّاته.

متى ستدفعك هذه الأقدار للجنة؟ لو آمنت بالغيب، ولذا لابد أن تعرف: ما هو موضعك؟ افهم أنت موجود هنا لأي شيء؟ وهذه الأقدار تدفعك لأي شيء؟ أنت موجود هنا للاختبار، وعندك أدلة كثيرة على تدل على ذلك.

نحن الآن نقرّر أن كل الأقدار عبارة عن اختبار، ولذلك عندما يسأل أحد: لماذا يغيب عنّا القدر؟ سنقول: الاختبار لابد أن يكون غائبًا بالطبع! **أنت عليك أن تأخذ مادة الاختبار، وتدرسها، ثم بعد ذلك تأتيك الاختبارات في لحظات الحياة، فأنت طوال الليل والنهار مُختبر، والمنهج واضح، فلا تقصِّر في دراسة المنهج لكي تنجح.**

أنت تقرأ كل يوم سورة الفاتحة، وتقول:

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ}[1] ← نجّحني يا رب.

{إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[2] ← أنا أستعين بك لكي أنجح.

إذًا هذا هو المُعطى الأول: أنك سترى حكمة الله في أقداره عندما تعلم سبب وجود الخلق في الدنيا، وكيف أن هذه الأقدار هي اختبارات لهم، وكيف أن هذه الاختبارات تأتي ملائمة لهم تمامًا، وكلما أقبلت على الله واستعنت به: وفّقك، وأرشدك، وأوصلك إلى الطريق المستقيم.

قال تعالى:{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}[3]. لابد أن تكون متيقّنًا بأن الله لا يخذلك، ولا يتركك، وكل ما عليك هو أن تجمع قلبك على إرادة الهدى فيهديك.

إذا فهمت هذا، وفهمت أن كل أقداره أتت في موطنها على الحكمة، وأن النوع الذي جاءك هو الذي يناسبك: وجب عليك أن تحسن الظن به إطلاقًا، وتقول: كل الذي يأتي من الله يناسبني، كل الذي يأتي من الله إنما هو في طريق الاختبار الذي أختبره، وكل ما أسأله من الله -عزَّ وجلَّ- هو أن أنجح وأُوفَّق في هذا الاختبار، وأن أتصرَّف فيه كما يحب ربنا ويرضى. هذا هو

[1] (الفاتحة:٦)
[2] (الفاتحة:٥)
[3] (محمد:١٧)

كل ما يُثقِلك، أما ما سيكون مستقبلًا فقد فقال تعالى فيه: {لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}[1]، هذا القدر مكتوب، وأتاك في اختبار، إن تنجح فيه يرفعك الله، وإن لم تنجح فاعلم أن ذلك بسبب ذنبك، والتوبة بابها مفتوح، ولذلك اقترن مع اسم الحكيم مع اسم التواب.

مثلًا: شخص فقد حبيبه بالموت، يجب عليه الآن ألّا يحمل إلا همًّا واحدًا وهو: أن يتصرَّف كما يحب الله؛ لأنه لو فعل أي فعل من الأفعال –سواء جَزِع أم صَبَر– فإن المفقود لن يعود، فالاختبار هو: هل ستنجح أم سترسب؟ هل سيُبنى لك بيت الحمد؟ أم سيكون هذا الموت سببًا لجزعك، وأن تتكلَّم عن الله بما لا يرضيه؟

أنت في بداية الأمر فهمت الحياة، فهمت أنك تُعطى هذا الابن عارية مُستَرَدَّة، ثم يأخذه الله، تُعطى هذا المال عارية ثم يأخذه الله، تُعطى هذا البيت عارية ثم يأخذه الله، ويختبرك بهذا الأخذ.

وانظر مثلًا للأبناء: أنت تُعطاهم في الأصل من غير حولك، ما لك إلا أن يرزقك الله إياهم، فتربّيهم فتؤجَر عليهم، ثم يأخذهم منك فتصبر، فتؤجَر أيضًا عليهم.

أعطاك ← فشكرت ← أُجِرت

أخذ منك ← فصبرت ← أُجِرت

وكل هذا في دائرة الاختبار

أنت تؤمن أن الله حكيم فتُحسن به الظن، تؤمن أنه من حكمته قدَّر عليك هذا القدر لكي تنجح، وترتفع منزلة في الجنة لا تدركها بعملك.

الله ينظر إلى اعتقاد قلبك في لحظة المصاب والبلاء، وأول ما يتخطَّفك الشيطان في هذه اللحظة، لذا عليك أن تُحسن الظن بالله، وتقول: أن هذا القدر فيه من الخير، والرِّفعة، والدفع إلى النجاح، والدفع إلى المنازل العُلى، وأنني لو أحسنتُ التعامل معه: فإن الله سيعطيني شيئًا فوق الذي أتصوَّره.

ولذلك يأتي الناس يوم القيامة فيرون ما لأهل البلاء من منزلة عالية، فيتمنوا لو أنهم نُشِروا في الدنيا بالمناشير.

---

(١) (الحديد:٢٣)

فكونك تتحرَّر من الدنيا، وتتصوَّرها بعين صحيحة، هذا هو التوفيق الذي سينقلك إلى الإيمان بحكمة الله، أما إذا أردت أن أقول لك حكمة الله التي توافق هواك فلن أستطيع أن أجيبك؛ لأن حكمة الله مركَّبة على إيمانك بأن هذه الدنيا دار اختبار، وأن **الله –عزَّ وجلَّ– كلما نجحت وارتفعت زادك إيمانًا وتقوى، وإذا ازددت إيمانًا وتقوى فإن قلبك سيقوى على احتمال الاختبار الأصعب، فيأتيك هذا الاختبار، فتثبت فترتفع أكثر، وهكذا.**

كثير من الناس يقولون: إذا كانت زيادة الإيمان ستأتي لي بزيادة المصائب فإننا لا نريده!

والجواب: أن هذا كلام لا يصدر إلا مِن سَفِيه، لا يفهم عن ربه شيئًا، فإن زيادة الإيمان في قلبك لو مثَّلناها تمثيلًا مادّيًّا سنقول: لو وضعنا الآن على جزء من أرض هذا المسرح مخدة كبيرة ممتلئة بالهواء، وجعلنا الجزء الثاني بدون مخدة هوائية، وافترضنا أننا ألقينا من مكان عالٍ كرة معدنية، هل ستسمع لهذه الكرة المعدنية صوتاً عندما تسقط على المخدة الهوائية؟ لا. لماذا؟ لأن المخدة امتصَّت الثقل، ودفعته.

أما الجهة الثانية –التي ليس فيها مخدَّة– لو أسقطنا الكرة المعدنية عليها ستسمع صوتًا عاليًا، وهذه هي القلوب الجرداء التي لا إيمان فيها، أقل مصيبة تنزل عليها تعطي مقابلها صدىً عاليًا.

أما القلب الذي امتلأ إيمانًا فكأنه هذه المخدة الهوائية، إذا سقطت عليه المصيبة فإن إيمانه سيدفع أثرها، فلا تجد من هذا القلب الممتلئ نفس أثر القلب الخاوي.

ولذلك ترى شخصًا يخسر شيئًا من ماله أو ولده ولا يبكي ذاك البكاء الشديد الذي قد يصدر ممّن انكسر له كأس في بيته، فانهار وتأزَّم! هذه التصرفات مُؤذِنة بما في القلب من إيمان.

حسن ظنك المطلق بالله يستلزم أنك لن تناقش في قَدَره، وإنما ستكون على يقين أنه حصل لحكمة، والحكمة دائرة حول رفع المنزلة، وحُسن حال العبد في الدنيا والآخرة.

فالله لا يحسّن حالك في الآخرة فقط، وإنما يحسّنه أيضًا في الدنيا، ألا ترى أن من أقداره –سبحانه وتعالى– أن جعل الأنبياء يَسُوسُون الغنم؛ لينتقلوا بعد ذلك فيَسُوسُوا الخلق؟ والغنم أقرب ما يكون للخلق، فهذا نوع تدريب، وأنت تعيشه في حياتك، فتعيش –مثلًا– في مجتمع معيَّن من أجل أن تنتقل بعد ذلك إلى مجتمع يناسب هذا المجتمع، فتجد أن **الله –عزَّ وجلَّ – يقدِّر**

عليك أمورًا إذا نظرت إليها جيدًا سترى كيف أنه –سبحانه وتعالى– نقلك من طَور النقص إلى طَور الكمال في شأن دينك ودنياك، وليس في شأن دينك فقط!

ما هو أثر حسن الظن بالله؟ الرِّضا عن الله. وهذه هي الغاية التي نرجوها:

- أن يبقى في قلوبنا دومًا رضًا عن الله.
- أن يبقى في قلوبنا شوق إلى الله.
- أن يبقى في قلوبنا شكرٌ لله.

يحصل من زيادة اليقين بسبب الرضا عن الله ما لا يحصل بسبب غيره، فأنت إذا أحسنت الظن في الله كما ينبغي لابد أن تنتقل من حسن الظن إلى الرضا عن الله، **فإذا رضِيت طابت نفسك بكل شيء، وإذا رضِيت كشف الله لك بعض الأمور التي تزيدك يقينًا.**

عليك أن تحيا محسنًا الظن، عندك يقين أن كل ما يقضي به الله –عزَّ وجلَّ –خير، فيزيدك الله يقينًا عندما ترضى عنه هذا الرضا، ويكشف لك شيئًا من حكمته. وهذه من عطايا الله التي تسبّب ثبات المؤمن على يقينه بأن الله حكيم، وهذا من الأمور المهمة.

آثار الرضا عن الله:

١–قوة التعلق بالله –عزَّ وجلّ–.

ومعناها: أن يبقى العبد سائرًا في حياته ليس له صمد ولا ملجأ ولا مُتَّكَأ ولا مُغيث إلا الله؛ لأنه يعلم أن الله وحده هو الذي يُقدِّر الأقدار، وأنه يريد بأقداره خيرًا للعبد، فحسن ظنك بالله يجعلك متعلقًا به، لا تطرق باب غيره، ورضاك عن الله يجعلك تطرق بابه دائمًا.

٢–كثرة الدعاء.

فيكون هذا العبد ما أن يصيبه أمر إلا ولسانه يلهج بدعاء الله.

٣–الاجتهاد في شكر الله –عزَّ وجلَّ– بالطاعات.

فمن آمن بحكمة الله، وأحسن الظن به، ورضي عنه، تجده مجتهدًا في الطاعات، يسارع إلى رضا الله -عزَّ وجلَّ-.

٤- أن يكون هذا العبد ممن يرضِّي الخلق عن الله.

فلا يسخَط ولا يُسخِّط الناس على الله -عزَّ وجلَّ -.

٥- أن يكون هذا العبد قويًّا في إخلاصه.

لا يلتفت قلبه يمنةً ولا يسرة لغير الله، فلا يلاحظ رضا الخلق، بل يلاحظ رضاه سبحانه وتعالى؛ لأنه هو العظيم في نظره.

٦- كثرة التوبة.

فإن العبد لا يطيق إلا الإنابة إلى الله.

٧- اليقين بأن الله ينصره وينجِّيه في الضيق.

وهذا عكس ما يظنّه المنافقون الذين قيل فيهم: {وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا}[١].

فإن أول آثار ضعف الإيمان بحكمة الله في الأقدار: أن يسيء العبد الظن بالله، فييأس من رَوح الله.

ولهذا **كلما لاحظت نفسك يائسًا من رَوح الله، يائسًا من رحمته، يائسًا أن يُفرَج لك هم، يائسًا أن يتغيَّر فيك طبع، يائسًا أن يتحوَّل حالك، اعلم أنك أسأت الظن بالله**، وإذا أسأت الظن بالله، فإن هذا يُركَّب عليه أنك لا تؤمن بكمال حكمته، وأنه على كل شيء قدير، وأنه يضع الأمور في موضعها، وأنه ابتلاك بهذا الأمر من أجل أن تلهج، وتقول: يا رب، وتسأله، وتدعوه.

ومن هنا سأقول كلمة مختصرة في (مسألة: تكرار وقوع الإنسان في الذنب):

لابد أن تعلم أن الله -عزَّ وجلَّ -حكيم حتى في مثل هذه الأمور، بمعنى: أنه عندما يتكرر وقوعك في الذنب لا تسمح للشيطان أن يأخذك إلى اليأس، بل فليأخذك الإيمان بحكمة الله إلى شدَّة اللجوء والإنابة إليه، وتكرارها، وعدم التوقف عنها مهما أخذتك نفسك إلى الذنب.

لا تعامل الله بالعكس، وتقول: لا يوجد أمل في أن أتغيَّر! هذا كلام اليائسين الذين تلاعَب بهم الشيطان، وإنما **اعلم أن من النفوس ما يكون من طبعها الكِبر، فإذا أحسنَت، وعبَدت، وقامت الليل، ولم تُذنب: انتفخت!! فكان أثر هذا الانتفاخ**

[١] () (الأحزاب: ١٠)

أن تدخل النار بسبب الكِبر، فيكسرها الحكيم –عزَّ وجلَّ– بالذنب، فما أن تتذكَّر أنها طائعة إلا وتتّهم نفسها بأنها عاصية، فتبقى في حال الذُّل الممدوح. فهذه النفوس لا تصلح إلا بهذه الطريقة.

عندما يجد بعض الناس أنهم يكرِّرون المعصية فإنهم ييأسون من رَوح الله، فيقال لهم: لا! بل أكثِروا من الإنابة، فإن نفس التوبة المتكررة عبادة جديدة، وهذا هو معنى الإنابة، فالإنابة مأخوذة من العَود والرجوع، وهذا العَود والرجوع لا يكون إلا من إنسان يدخل للذنب، ويخرج منه.

إذًا: "المنيب" عبدٌ يعود إلى ربه كثيرًا، يتذكر دقائق ذنبه فيعود إلى ربه، بل يتذكَّر الذنوب البعيدة التي تاب عنها، فيستحي أن يلقى ربه بها، فيبقى يجدّد توبته ويراجعها، فتزداد مكانته ارتفاعًا عند ربه، فتتحوَّل سيئاته إلى حسنات!

لا تيأس من رَوح الله أبدًا، بل ابقَ متصلًا به، منكسرًا بين يديه، لا تُقدِم على الذنب وأنت مستهين بالله. لكن إذا وقعت وجرَّتك قدماك إلى الذنب، فعليك بقوة الإنابة، وحسن الظن في الله بأنه لا يردّ مَن أقبل عليه، وأن هناك حكمة وراء إصابتك للذنب.

اللقاء الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا –بفضل الله وبرحمته– نناقش هذا الاسم العظيم: اسم الله الحكيم. وهذا هو لقاؤنا الأخير لمناقشته.

سنعالج في لقائنا اليوم: المسألة الأخيرة التي اتَّفقنا عليها، وهي: الجداول التي خرجتم بها من قراءتكم وإحصائكم لاسم الحكيم في القرآن.

اسم الحكيم تكرّر في القرآن قرابة المائة مرَّة، فبماذا اقترن هذا الاسم العظيم؟

- أكثر اسمين اقترنا به هما: (العزيز) و(العليم).
- واقترن أيضًا بـ(الخبير).
- وبـ(التَّواب) مرة واحدة.
- وبـ(العلي) مرة واحدة.
- وأتى في النساء في آية (١٣٠) أنه سبحانه وتعالى (واسعٌ) حكيم.
- واقترن أيضًا بـ(الحميد).

كيف تستدل باسم الحكيم؟ وعلى ماذا ستستدل؟ سنرى بعض المواطن لنجيب عن ذلك:

١. نبدأ بسورة البقرة آية (١٢٩) في سياق دعاء إبراهيم –عليه السلام–، قال: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

ما دلالة ختْم الآية بالعزيز الحكيم؟

هذا مشروع للمستقبل: يجب عليك دراسة كل هذه المواطن بسؤال يقول: لماذا خُتمت هذه الآية بهذين الاسمين؟

فأنت قد فهمت معنى (الحكيم)، بقي أن تضيف عليه معنى (العزيز، العليم، التواب، العلي)، وترى ما دلالة ختْم الآيات بهذه الأسماء.

نحن هنا في سياق الكلام حول النبوّات، والإرشاد إلى الدين، ثم نجد أن إبراهيم عليه السلام يدعو ربنا قائلًا: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

(العزيز) بمعنى: أن أمرك نافذٌ في إرسال رسول، ورسولك الذي سترسله سيكون عزيزًا بعزّك.

(الحكيم) في اصطفاء هذا الرسول واختياره، وفي الشرع الذي ستشرّعه لهم، وفي الوقت الذي سترسله لهم، وفي الحال الذي سترسله لهم. ستظهر على رسولك كل آثار حكمتك.

قرأنا كلامًا في معنى اسم (الحكيم) سنأتي الآن بأدلته:

من أين أتى العلماء والمؤلِّفين بأن الله حكيم في شرعه؟ كيف خرجوا بهذه النتيجة؟

أتوا للآيات، ورأوا خواتيمها، فخرجوا بهذه النتيجة: أن **اسم الحكيم في سياق الكلام حول الدين والرسول يدل على حكمته سبحانه وتعالى في شرعه**.

٢. نرى آية (٦) في سورة آل عمران، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

هنا تظهر حكمته سبحانه وتعالى في خلقه.

٣. نأتي إلى آية (١١٨) في سورة المائدة، قال تعالى: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

تظهر هنا حكمته عز وجل في جزائه، فالسياق عن يوم القيامة، وهذا من كلام عيسى -عليه السلام-، فهو يقول: يا رب إنك إن أخذتهم فعذبتهم فهم عبادك، {وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، أي: (حكيم) لا تغفر إلا لِمَن أتى بأسباب المغفرة.

فأنت لا تغفر لهم من ذِلّة؛ لأنك العزيز، ولا من وضع الشيء في غير موضعه؛ فأنت حكيم، ومن المؤكد أنك ستغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

وهذه الآية رد على كل مَن قال: قد يغفر الله لمشرك! قد يغفر الله لمن مات على الكفر! لا تُحجّروا رحمة الله!

يُرد عليهم: بأن عيسى عليه السلام يقول: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، ومن المؤكد أن مغفرة الله صادرة من عزه، فلا أحد يجبره، وليس لأحد أن يفعل ذلك! ومغفرته صادرة من حكمته، أي: أنه سيضع مغفرته في مكانها، {أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[1]؟!

يستحيل أن يكون الشخص فاجرًا طيلة حياته، ويموت على هذا الفجور -وأهم الفجور هو عدم عبادة الله بالتوحيد- ثم يُجعل هذا كالمتقين؟ هذا تأباه حكمة الله؛ فالله يضع الأمور في مواضعها، وهو سبحانه تعالى حكيم في جزائه.

مقصدي من هذه التجربة: أن تعودوا لكل مواطن اسم الحكيم، وتسألوا: ماذا ظهر لنا هنا من حكمة الله في أمره، أو شرعه، أو خلقه، أو جزائه؟

٤. لنرى آية (٨٣) في سورة يوسف، قال تعالى: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}.

هذه أمور تحصل في الحياة. يعقوب -عليه السلام- ذهب أبناؤه الثلاثة فقال ما قال، ثم خُتمت الآيات بأن **هذا القدر الذي وقع، وقع ممن وصفه أنه عليمٌ حكيم، إذًا حقّه عليّ -ما دمت أعلم هذا-: أن أصبر صبرًا جميلًا.**

كما اتفقنا: أنت إذا آمنت أن أمره كله فيه علمٌ وحكمة، فستُحسن الظن، فإذا أحسنت الظن ستتمتّع بالصبر الجميل، وليس الصبر القبيح! لا يكن لسانك ممتدًّا على الله! لا تكن متأفّفًا طوال الوقت! بل {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}.

أتعلم ماذا قال يعقوب -عليه السلام- بعدما فقد ثلاثة من أبنائه؟ قال -مُحسنًا الظن في ربه-: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}. أحسَنَ الظن مع فقدان الأسباب! لأنه كان معتمدًا على العليم الحكيم.

لا بد أن نعلم أن كتابات أهل السنة التي يكتبونها عن الله إنما هي ناتجة عن بحثهم ودراستهم لهذا الاسم في كتاب الله، وفي دلالاته.

لكن أنت -مثلًا- طالب علم، وتريد أن تكتب عن اسم (الحكيم)، ستتبع هذه الخطوات:

---

[1] () (ص:٢٨)

أولًا: ستأتي لكل المواطن التي ورد فيها هذا الاسم، وكل المواطن التي يظهر فيها أن الله يخاطبنا فيها بحكمته.

ثانيًا: ستبحث عن دلالة كل موطن.

كما فعلنا في خبر يعقوب عليه السلام:

ستقرأ الآية من أولها لآخرها، ثم تقول: صَبَرَ لأنه يُحسن الظن بالله؛ لعلمه أن الله عليمٌ حكيم.

ثم تقرؤها من آخرها لأولها، فتقول: هو يعلم أن الله عليمٌ حكيم، ولهذا أحسَن الظن، فصَبَر. وهكذا.

فهذه هي علاقتنا بالرسل، سنتعلم منهم أمورًا، ومما سنتعلَّمه أن يعقوب عليه السلام يخاطب نفسه في هذه الآية، ويقول لأبنائه أيضًا: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}، ثم يُظهِر حسن ظنه بالله؛ فالصبر الجميل لا ينافي حُسن الظن، بل أصبِر وأنا مؤمن بأن الله سيعطيني؛ وهذا من إيماني بأنه -سبحانه وتعالى- عليمٌ حكيم.

لو آمنتَ أن الله عليمٌ حكيم، وأنه يضع الأمور في مواضعها، وأن حكمته مبنيَّة على علمه، بل على لطيف علمه سبحانه وتعالى، فإن هذا سيسبّب لك حسن الظن، وحسن الظن سيجعلك تصبر صبرًا جميلًا، وتقول: ستتدبر الأمور.

مثلًا: لو أن بنتًا تزوجت، ومرّت بأزمة مع زوجها، وهي ضعيفة في تعلقها بالله، -وأنتم تعلمون كيف هي أماني البنات!- وعندما دخلت الحياة الزوجية، وبدأت حياة الجِدّ، بدأ يضيق الأمر بينها وبين زوجها، وبدأت ملامح الخوف من الطلاق تظهر، ومثل هذا طبعًا يشقّ قلب الأم، لكن ألا تعلم أن الله عليمٌ حكيم؟

قلب الأم سينفطر، لكن الله -عز وجل- ما جعلها تمرّ بهذه الأزمة إلا لتُحسن الظن به، فالله يريد أن يردَّ ابنتها إليه، وأن يكسرها بين يديه، فتظهر منها العبودية.

لا بد أن يكون موقف الأم هنا: حُسن الظن بالله، وأنه عليمٌ حكيم، وأنه ما أراد ببنتها إلا أن تعود لربها، فهذا سيسبّب لها أن تصبر صبرًا جميلًا.

هذه خطة الحياة:

تعلم أن الله عليمٌ حكيم ← تُحسن الظن به ← تصبر على أقداره

بإحسان الظن سأفسِّر أقدار الله تفسيرات لائقة بجلاله –عز وجل–، بمعنى: أني لن أنتظر منه إلا خيرًا، سأعلم أن الأمر لن يعود إلا إلى خير، وأن الأزمة ستمرّ، لكني أحتاج لابتهال، وانكسار، ودعاء، وعدم ثقة في الأطراف.

تميل نفوسنا إلى أن هذه البنت لن تحدث لها مشاكل، وأن هذا الرجل طيب، لا يوجد مثله، ثم نُصدَم بالواقع. لكن مَن أحسن الظن بالله سيقول: ما ابتلى الله ابنتنا بهذا البلاء إلا لتبتهل، ولتنكسر، ولتبقى بين يدي ربها، ولئلا تثق بالخلق.

عِلّة العِلل: أن تجد في قلبك رُكونًا للخلق، فتُستخرَج هذه العلَّة بالبلوى هذه، ثم تمرّ –إن شاء الله–، ويخرج الخلق منها كما يريد سبحانه وتعالى، لن يخرجوا إلا وهم منتفعون بقضائه وقدره.

٥. نرى آية (٤) في سورة إبراهيم، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

سيصبح الآن في الآيات مُكَرَّرات، لكننا سنحاول أن نَستظهِر المعنى جيدًا.

تظهر في هذه الآية:

- حكمة الله –عز وجل– في تشريعه في إرسال الرسل.
- وحكمته أيضًا في أمره –أي: في قضائه وقدره–، فالله يُضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

وهذا الأمر سأقوله في كلمة مختصرة:

مَن الذي يهتدي؟

قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [١].

الله –عز وجلَّ– حكيم، مَن أقبل بقلبه على ربه صادقًا قدّر الله له أقدارًا تزيده ثباتًا وهدايةً.

فأقبِل يُقبِل الله عليك، ومَن آوى إلى الله آواه الله.

مَن الذي يَضِل؟

[١] (محمد:١٧)

قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} فهم يزيغون أولًا، فيكون[1] جزاؤهم أن تزيغ قلوبهم، وهذا مِن حكمة الله. وقال تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} هو الذي سعى بقدميه للضلالة.

ولتتصوَّروا هذه القاعدة جيدًا، سنفهم حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي وصف فيه الثلاثة نفر الذين دخلوا على مجلسه:

عن أبي واقد الليثي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أحدهما: فرأى فُرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ" [3].

- **الأول**: مُقبِل، أتى حتى وجد فُرجة في الأمام فجلس فيها.
- **الثاني**: رأى الزحام فاستحى، وجلس في آخر المجلس.
- **الثالث**: لم يناسبه الوضع فذهب.

ثم فسّر النبي -صلى الله عليه وسلم- أحوالهم الثلاثة، فقال:

- "أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ" سعى، وبحث، ودخل في الزحام.
- أما الثاني فحماسه أضعف، لم يكن كالأول في حماسه وإقباله، لكنه لا زال متمسّكًا بالخير، فيأتي متأخرًا، بعيدًا عن الاقتراب من الخير. قال عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-: "وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ" أي: استحيا الله أن يطرده [4].
- الثالث: أعرَض، فأعرَضَ الله عنه.

---

[1] (الصف:٥)

[2] (مريم:٧٥)

[3] رواه البخاري في صحيحه/ كتاب العلم/ باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها/ (٦٦). ورواه مسلم في صحيحه/ كتاب السلام/ باب من أتى مجلسا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم/ (٢١٧٦)

[4] والحياء من صفاته سبحانه وتعالى، فالله يستحي أن يردّ عباده صِفرًا، ويستحي مِن عبد استحيا منه.

وكذلك حالنا في الدنيا، فالله عز وجل حكيمٌ، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. **إن أقبلت بقلبك، أقبل الله عليك، وإن أعرضت، أعرض الله عنك ولو بعد حين.**

مثلًا: أنت تمثّل أنك مُقْبِل، وحالك أمام الناس يبدو مستقيمًا، لكنك من الداخل شخص آخر، تنتظر أي مخرج لتخرج! أتظن أن الله –عزَّ وجلَّ– لا يطّلع على فؤادك؟!

في حديث سهل بن سعد الساعدي –رضي الله عنه–، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[1].

لو كنت مُقبِلًا بصدق، ونقّيت قلبك في كل زمن من الشوائب، وتأكدت من كونك لا تريد إلا الله: لن تطرب نفسك عندما تسمعهم يقولون: "أنك طالب علم، وتتكلم بالآيات..." فتزيد حفظًا للآيات لأجل هذا الطرب! بل ستراجع نفسك، وتقول: أنا لا أريد إلا وجهه.

هل تظن أن الله سيخذلك عندما تنقّي نفسك، وتقترب من النهاية؟! تعالى الله العليمُ الحكيم عن ذلك!

لكن أن يكون في نفسك ما يضرّها، فتسكت عنها، ثم تمرّ عليك الخواطر الرديئة، إلى أن تصبح إرادات مستقرة، وتصبح لا تريد بعملك إلا الخلق، وتمثّل أنك تريد وجه الله، ومن قوة هذه الإرادة المستقرة: تدخل باب الخير وأنت لا تفكر مَن تريد!!

مَن كان هذا حاله لابد أن يُخذل في خاتمته؛ لأنه ما أعطى قلبه حقَّه في التفتيش، والله عليمٌ حكيم.

ولذلك أي نوع من الشرك ممنوع، حتى لفتة الرياء –لفتة رضا الناس– تعتبر شركًا؛ ففي الحديث القدسيّ: عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَة"[2].

"يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا" أي: لا أكبر ولا أصغر "لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَة".

---

[1] () رواه البخاري في صحيحه/ كتاب المغازي/ باب غزوة خيبر/ (٤٢٠٢). ورواه مسلم في صحيحه/ كتاب الإيمان/ باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة/ (١١٢)

[2] () رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ في سننه/ أبواب الدعوات/ (٣٥٤٠) وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

صاحب الشرك والرياء يُعذَّب في النار؛ فالرياء شرك، وليس أمرًا يسيرًا، لأن معناه أنك تلتفت لغير الله.

وهذا النوع من الشرك إذا تراكم فإنه يُخرِج الإنسان من الإيمان للنفاق، بسبب تراكم التفاته للخلق، وهذا الذي يسبّب سوء الخاتمة، وهذا لا يكون إلا بسبب عدم التفتيش في القلب، وعدم الالتفات له.

الله -عزَّ وجلَّ- عليمٌ حكيم، يُضل من يشاء، ويهدي من يشاء: (عليمٌ) بما في قلوب الخلق، (حكيمٌ) يعرض عليهم المواقف والأحداث، ويذكِّرهم، ويُنبّههم، ويعلّمهم، ويؤدّبهم، وهم في غفلةٍ من شأنهم، حتى يأتي أجَلهم المحتوم، الذي ستكون خاتمتهم فيه على ما يوافق حالهم طيلة حياتهم، {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[1] ، وإنما **العبد هو الذي يجني على نفسه بإهماله لقلبه.**

٦. نأتي لموطن أخير في سورة النمل آية (٩)، قال تعالى: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

هذا في سياق خطاب الله -عزَّ وجلَّ- لموسى -عليه السلام- في موقف الوحي، أي: أن الله يُعْلِم موسى بالرسالة، ويعرّف نفسه -عزَّ وجلَّ- لموسى -عليه السلام- فيقول له: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

الشاهد: أن هذا الاسم من أعظم الأسماء التي يجب أن تُدرس، ويأخذ وقته في ذلك. اسم عظيم يجب أن يُكرَّر عليك.

إذا سألك أحدهم: ما بالكم مهتمّون باسم (الحكيم)؟ ترد فتقول: ألا ترى أن الله لمّا أراد أن يعرّف نفسه لموسى قال له: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}؟!

إذًا هذا من أهم الأسماء التي يجب أن تعرفها عن الله؛ لكي يحصل لك تأليهه سبحانه وتعالى.

هذه النصوص لابد أن تكون دقيقة الدلالة في قلبك.

إذا عرّف الله نفسه لموسى بأنه عزيزٌ حكيم، فيجب علي أن أُتقِن معنى (العزيز الحكيم).

ما معنى أن يكون الله هو العزيز الحكيم؟ ولماذا يعرّف نفسه -سبحانه وتعالى- لموسى بهذين الاسمين؟ لأنه من المؤكد أنهما إذا وُجدا تامّان في القلب حصل التأليه الذي هو المقصود من التعريف. فإذا عرف الخلق الله بأسمائه وصفاته فإنهم سيؤلّهونه — أي: يحبونه ويعظِّمونه، ثم يعبدونه-، ولهذا اسمي (العزيز الحكيم) من الأسماء الضرورية للوصول للتأليه.

[1] (الكهف:٤٩)

يجب أن تبدأ أعيننا تتبصَّر ما سمّى الله به نفسه في كتابه، وتُبصر بالذات اسم (الحكيم)، فتصبح بينك وبين هذا الاسم العظيم نوع علاقة، بحيث أنك ما تجده في موطن -سواء أتى نفس اسم (الحكيم)، أو أتى الكلام عن الحُكم، وأنه وحده الذي يحكم الخلق، ويشرّع لهم الشرائع- إلا وتسأل نفسك: ما دلالة هذا الاسم هنا؟ في أي شيء تتجلّى حكمته سبحانه وتعالى هنا؟ وقد تتعدّد في الآية الواحدة أنواع من الحِكَم.

← كَوْن أن هذا الاسم يتكرر في القرآن قرابة المائة مرَّة: يدل على أهميته.

← وكون أن الله يُعرّف نفسه لموسى -عليه السلام- بهذا الاسم: يدل على أهميته.

← وكون أنه من شروط الإيمان الذي لا يصح الإيمان إلا به، فتؤمن أن الله له الحُكم التام في الدنيا والآخرة: دليل على أن اسم (الحكيم) من أعظم الأسماء التي يجب أن تُدرَس.

ونحن قد أنعم الله -عز وجل- علينا بنعمة عظيمة في هذه البلد المباركة، بأن نجتمع في أمن وأمان، وأن تبقى مثل هذه المجالس عامرة بفضله -سبحانه وتعالى- ومنّته وحده لا شريك له، فأسأله سبحانه وتعالى كما يسّر هذه "الخمسة عشر يومًا" التي كنا نرتع فيها في رياض الجنة، أن يقبلها منّا سبحانه وتعالى، وأن يجعلها في موازين الحسنات.

جزاكم الله خيرًا، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.